الشرق الأوسط الجديد

الشعوب في مواجهة أمريكا

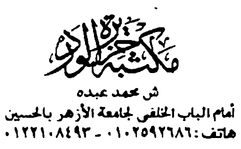


د/ محمد مورو

الشرق الأوسط
الجديد

المؤلف

د / محمد مورو



ش محمد عبده
أمام الباب الخلفي لجامعة الأزهر بالحسين
هاتف: ٠١٠٢٥٩٢٦٨٦ - ٠١٢٢١٠٨٤٩٣

اسم الكتاب: **الشرق الأوسط الجديد**

المؤلـف: د/ محمد مـورو

الناشـر: مكتبة جزيرة الـورد - القاهـرة

تليفـون: ٠٢/٥١١٤٣٧١

محمول: ٠١٢/٢١٠٨٤٩٣

رقـم الإيداع ١٤٦٦٠/٢٠٠٥

المقدمـــة

دخلت المنطقة العربية والإسلامية مرحلة جديدة ذات مدخلات ومخرجات مختلفة بعد الاحتلال الأمريكي للعراق .

لقد أسقط الاحتلال ورقة النوت الأخيرة عن حقائق الأهداف الأمريكية والغربية والصهيونية ، ومن ناحية أخرى قامت إسرائيل بحرق كل الأوراق والمعطيات حول السلام المزعوم ، وبالتالي أصبحنا على الحجة البيضاء ليلها كنهارها ، لم يعد هناك إمكانية للهروب من الواقع المرير أو التحديات الضخمة التي أصبحت فوق رؤوسنا ، لقد أصبحت أحذية الستر الأمريكي فوق رؤوسنا في العراق وأفغانستان ، وفي فلسطين المحتلة تمارس إسرائيل كل الأفعال الحقيرة والاستفزازية والإجرامية بلا هوادة وبصورة منقطعة النظير ، والمتاح أمامنا إما النهاية والموت والخروج من التاريخ والخضوع للاستكبار الأمريكي والصهيوني وضياع الهوية والثقافة والدين والوطن والأمن ، والحق في حياة كريمة ، وإما المقاومة .

ولا شك أن المقاومة العربية والإسلامية قادرة على وقف هذا المسلسل العدواني ، ولدينا تجارب المقاومة الإسلامية في لبنان ، والمقاومة الإسلامية في فلسطين المحتلة والمقاومة العراقية كذلك ، وكلها تجارب أثبتت أن بالإمكان وقف عجلة العدوان ، وإحداث خسائر جسيمة بالعدو ، وحتى لو لم تنجح المقاومة ، فيكفي أن نموت واقفين وبكرامة ، على أن نموت خائفين خاضعين بلا كرامة .

مرحلة ما بعد العدوان الأمريكي على العراق واحتلاله ، هي استمرار قطار العدوان الأمريكي ، فهناك القرار ١٥٥٩ ، وهناك قانون معاقبة سوريا ، والضغط على مصر والسعودية ، والانبطاح الليبي أمام العاصفة اختيارا ، ولولا المقاومة العراقية لاستمر قطار العدوان الأمريكي سائرا إلى سوريا وإيران ، بل ومصر والسعودية .

إن صور اليمين الأمريكي ، ومفاهيم الإمبراطورية والتحالف الأمريكي الصهيوني المعلق والمعروف والذي أصبح انطباقا كاملا ، وصور أسوأ إفراز ت الإرهاب الصهيوني كل هذا يجعلنا ندرك أننا أمام ذئاب لا تشبع ، وأن أساليب الذئاب هي التي سوف تتبع معنا ، وليس أساليب الثعالب ، وإن كان كل من الثعالب والذئاب أسوأ من بعضها البعض ، إلا أن أسلوب العدوان المستمر والناعم ، والهيمنة بالوسائل الناعمة بالإضافة إلى القوة ، هذا الإسلوب لم يعد موجودا الآن ، بل الموجود أمامنا أسلوب القوة والقهر والنهب والحماقة والغطرسة ، بلا هوادة . وإما أن نكون أو لا نكون .

※ ※ ※

وعـد بــوش

لم تخطـئ الأوسـاط السياسـية والصـحفية العربـية حـين وصـفت بـيان الرئـيس الأمـريكى جـورج دبلـيو بـوش الصـادر فـى ١٤/ ٤/ ٢٠٠٤ بأنـه وعـد بـوش علـى غـرار وعـد بلفـور الصـادر عـام ١٩١٧ مـن وزيـر خارجـية بريطانـيا فـى ذلـك الوقـت والـذى وعـد الـيهود بإقامـة وطـن قومـى لهـم فـى فلسـطين دون المسـاس بحقـوق السـكان الأصـليين "الفلسـطينيين" . وبديهـى أن مسـألة عـدم المسـاس بحقـوق السـكان الأصـليين قـد تم تجاهلـه عملـيا فـيما بعـد وغضـت بريطانـيا الطـرف عـن ذلـك ، أمـا بـيان بـوش الصـادر فـى ١٤/ ٤/ ٢٠٠٤ فقـد نـص عـلى عـدم قدسـية حـدود ١٩٦٧ ، والسـماح بالـتالى لإسـرائيل بالـتهام مـا تشـاء مـن أمـراض الضـفة الغربـية ، كمـا نـص عـلى عـدم عـودة اللاجـئين الفلسـطينيين إلى ديـارهم وهـو مـا يهـدر حقـوق ٦ ملـيون لاجـئ فلسـطينى ، واعـترف وعـد بـوش بـأن إسـرائيل دولـة يهوديـة ، وأن مـن حقهـا الدفـاع عـن نفسـها بكـل الطـرق أى ممارسـة العـدوان والقـتل والتهديد بحجة محاربة الإرهاب .

بـين وعـد بـوش ٢٠٠٤ ووعـد بلفـور ١٩١٧ كـثير مـن نقـاط التشـابه وأيضـا بعـض نقـاط الاخـتلاف ، فوعـد بلفـور ١٩١٧ ، جـاء فـى أعقـاب قـيام زعمـاء عـرب بمسـاعدة بريطانـيا فـى الحـرب العالمـية الأولى مسـاعدات جلـيلة ، وخاصـة ضـد الحكومـة التركـية الـتى كانـت متحالفة مـع الألمـان ضد الحلفـاء عـلى أمـل أن يـتم مكافـآة هـؤلاء الـزعماء العـرب بالاسـتقلال أو

إقامة دولة عربية كبرى ، ولكن الذى حدث أن هؤلاء أخذوا جزاء سنمار وتنكر لهم الحلفاء جملة وتفصيلا ، بل تم اقتطاع جزء من أغلى الأراضى العربية ومنحها لليهود من خلال وعد بلفور ، الأمر نفسه تكرر مع حلفاء أمريكا من الزعماء والحكام العرب الذين بذلوا الغالى والرخيص من أجل مساعدة أمريكا والتحالف منهم ، على أمل أن يتم عمل تسوية للقضية الفلسطينية تراعى شيئا من الحقوق الفلسطينية ، ولكن الذى حدث أن هؤلاء أيضا أخذوا جزاء سنمار ، بل إن وعد بوش جاء ليقضى على كل وعود أمريكا وحولها من وسيط إلى طرف فى الصراع منحاز إلى إسرائيل ، بل أكثر من هذا أن وعد بوش صدر فى وقت كان أحد الزعماء العرب لايزال موجودا على الأراضى الأمريكية ، وعقب يوم واحد من اجتماعه بالرئيس الأمريكى بوش ، وهكذا فإن كل من وعد بلفور ووعد بوش يثبتان أن التربص والعدوان والغدر ضد العرب والمسلمين ليس سلوكا يهوديا فقط بل هو سياسة غربية ثابتة "بريطانيا ثم أمريكا" . وأننا أمام وجدان صليبى غربى مغرق فى العداء والحقد علينا ، وأن المعركة واحدة وهى معركة مع التحالف الغربى الصهيونى وليس مع إسرائيل فقط ، وكذلك فإن وهم إرضاء الغرب أو أمريكا أو محاولة إقناعها بالحقوق العربية هو نوع من الوهم ، وكذلك فإنه لا طريق آخر سوى المواجهة والمقاومة .

وإذا كان وعد بلفور قد أعطى وطنا قوميا لليهود فإن وعد بوش قد ألغى الحقوق الفلسطينية تماما ، ونسف فكرة السلام من جذورها ، واعترف بيهودية

الدولـة الإسـرائيلية ، بـل وأعطـى تلـك الدولـة مـيزة التوسع من خلال العدوان وبالـتالى سـيادة شـريعة الغـاب ، بـل وجعلها الدولة المهيمنة على المنطقة عسكريا وأطلق يدها فى أن تقوم بما تشاء من عدوان وقتل وتدمير بحجة محاربة الإرهاب ، ومـع الاحـتلال الأمـريكى للعـراق فـإن المسـألة بوضوح أصبحت أننا أمام عدوا واحـداً هـو العـدو الأمريكى الصهيونى ، وأنه فى الحقيقة لافرق هناك بين أمريكا وإسرائيل . . ونلاحظ هنا أن كل الاحزاب والقوى والمؤسسات الأمريكية بما فيها الحـزب الديمقـراطى بالإضـافة إلى الحـزب الجمهـورى ، اتخذت نفس الموقف من وعـد بـوش ، وهكـذا فـنحن أمام الدولة الأمريكية والمؤسسة الحاكمة وليس أمام فقط مجرد إدارة بوش اليمينية المتطرفة!! .

وهكذا فإن وهم تحقيق أى شىء من خلال الوساطة الأمريكية أو التغافل عن أن أمريكا هى العدو هو نوع من الوهم والغباء أو حتى ضرب من الجنون .

وإذا كـان وعـد بلفـور قـد وصـف بأنـه أعطـى مـن لا يملـك لمن لا يستحق فالأمـر نفسـه ينطـبق عـلى وعـد بـوش ، بـل أكـثر مـن ذلـك أن بـوش اعتـبر نفسـه وكـيلا عـن الشـعب الفلسـطينى وحـدد ملامـح الحـل المتمـثل فـى خطـة شـارون للانسـحاب مـن غـزة بـدون تفـاوض او استشـارة الفلسـطينيين وهـو أمـر خطـير وسـابقة نوعـية خطـيرة ؛ لأن معـنى ذلـك أن كـل مـن أمـريكا وإسـرائيل تعتـبر أنـه لا وجـود للشـعب الفلسـطينى ولا وجـود للسـلطة ولا حـتى وجـود للـزعماء والحكومـات العربـية بمـا فـيها مـن معـتدلين ومـتطرفين ومرالـين ومعـادين . وبديهـى أن شـارون لـن يعطـى شـيئا حقيقـيا للفلسـطينيين ، فالانسـحاب المـزعوم مـن غـزة هـو نـوع مـن إعـادة الانتشـار

خارج المناطق السكانية ، ويمكن للجيش الإسرائيلى العودة وقت مايشاء ويجتاح غزة ، وكذلك فإنه وفقا للخطة الإسرائيلية المعلنة فإن السيادة الجوية والبحرية والسيادة على الحدود والمعابر كلها للسلطات الإسرائيلية ، ومع استمرار بناء الجدار العازل فإن ما هو متاح هو مجرد أقفاص دجاج للفلسطينيين وليست دولة ؛ لأن ماهو متاح لا يعطى أى قدر من المصداقية أو الواقعية لكلمة دولة ، وبديهى أن المسألة بهذه الطريقة تقول للفلسطينيين وللعرب والمسلمين: إما أن تقاوموا وإما أنكم عبيد لا أكثر ولا أقل .

من المهم طبعا البحث عن تفسير لتلك الخطوة الأمريكية الخطيرة والنوعية فى إصدار مثل هذا الوعد فى هذا التوقيت ، وبالنسبة لنا فالمسألة تخضع لتوجهات استراتيجية عميقة فى الوجدان الغربى ، تجد الفرصة لتعبر عن نفسها ، إنها العدوان والروح الصليبية القديمة الجديدة ، وقد انطلقت تلك الروح من عقالها بعد سقوط الاتحاد السوفيتى السابق والمنظومة الاشتراكية ثم حالة الانبطاح والتردى الحكومى العربى والإسلامى ، ويمكن أن نضيف عوامل مساعدة فى هذا الصدد مثل: وصول اليمين الإسرائيلى فى أسوأ إفرازاته إلى سدة الحكم فى إسرائيل وكذا اليمين الأمريكى ، ولكن حتى ولو كانت هناك حكومات غير يمينية فى إسرائيل وأمريكا فالمسألة لن تختلف كثيرا اللهم إلا فى الوسائل ، أى الفرق بين طريقة الذئاب وطريقة الثعالب .

على كل حال فإن المسألة أصبحت من الوضوح بحيث إن أهم كاتب

عقلانـى أو هكـذا يصـف نفسـه وهـو الدكـتور محمـد السـيد سـعيد اعتـبر أن وعـد بـوش - واسـتخدم وعـد بـوش كعـنوان لمقالـه "حـول وعـد بـوش المشئوم" . اعتـبر أن هـذا الوعـد دعـوة صـريحة للشـباب العـربى للانخـراط فـى الإرهـاب ، وأنـه لم يعـد مـن الممكـن بالـتالى الحديـث عـن أى فرصـة للسـلام ، والدكـتور سـعيد كـان مـن كـبار دعـاة السـلام ولم يكـن يومـا أصـوليا ولا إرهابـيا وأنـه شـعر بالغضـب ، وبتعـبيره هـو انـتقض مـن الغضـب عـندما سمع تصـريحات بـوش واحـتاج إلى وقـت طويـل لكـى يسـتعيد تماسـكه ، ويفسـر الدكـتور سـعيد هـذا السـلوك مـن الإدارة الأمريكـية بـأن بـوش يخضـع لتفسـيرات توراتـية ومسـيحية معيـنة حـول معـركة هـر مجـدون ، وبالـتالى فهـو يـريد دفـع العـداء والمواجهـة بـين العـرب وأمـريكا إلى أقصـى حالاتـه بحيـث لا يمكن العودة عن هذه المواجهة ، وبالتالى تجهيز المسرح لمعركة هر مجدون .

وإذا كـان كاتـب عقلانى من دعاة السلام قد وصل إلى هذا التفسير - التآمرى - فهـل هـناك طـريق آخـر سـوى المواجهـة - وإذا كان الأمر قد أصبح واضحا إلى درجـة أن يمـيل كاتـب مـثل الدكـتور محمـد السيد سعيد إلى هذا التفسير ، فهل لا يزال البعض مصرا على التغابى!! واللامبالاة والبلاهة .

*** *** ***

النفط والصراع والدم

شكل النفط ولا يزال منذ اكتشافه عام ١٨٥٩م وحتى الآن أحد أهم أسباب الصراع فى العالم ، وقد شغل هذا الصراع على النفط مساحة كبيرة من خريطة الصراع العالمى طوال القرن الماضى ، ومن المرشح أن يستمر هذا الأمر لفترة طويلة قادمة فى قرننا الحالى .

فى عام ١٨٥٩ حفرت الولايات المتحدة الأمريكية أول بئر نفطى فى أراضيها لتحدث بذلك نقلة نوعية هائلة فى موضوع الطاقة ، ومن ثم الاقتصاد والسياسة والصراع والحروب والعلاقات الدولية .

كان العالم الصناعى قبل ذلك العام يعتمد على الفحم الحجرى كمصدر للطاقة ، وكان هذا الفحم موجود تقريبا فى معظم الدول الصناعية ، وبالمقارنة بالنفط فإن الفحم الحجرى كان يحتاج إلى تكاليف نقل باهظة وحيزا كبيرا فى تشغيل الآلة الصناعية ، وهكذا اكتسح النفط سوق الطاقة ، ولكنه لم يكن متوفرا فى كل مكان كالفحم ، بل تركز إنتاجه فى أماكن معينة ، وبالتالى كان من الطبيعى أن يحدث الصراع حول النفوذ فى تلك المناطق وحول طرق المواصلات المتصلة بنقل النفط من أماكن إنتاجه .

أحدث اكتشاف النفط ثورة هائلة فى شكل الآلة وحجمها وقدراتها وأصبح بمثابة الدم الذى يجرى فى شريان الصناعة والحرب والنقل ، بل إن اكتشاف النفط شكل فى حد ذاته حافزا علميا هاما لتسهيل المزيد من

الاختراعات ، ويمكننا أن نقول: إن الطائرة والصاروخ والأقمار الصناعية وغيرها من الآلات المتقدمة لم تكن لترى النور بدون النفط . ولا يزال النفط حتى اليوم يشكل العصب الرئيسى للطاقة ، وحتى عندما ارتفعت أسعار النفط عقب حرب رمضان "أكتوبر" ١٩٧٣ وشعرت الدول الصناعية الكبرى وخاصة فى أوروبا وأمريكا بإمكانية تحكم الدول المنتجة فى الأسعار ، أو فى ربط ذلك بالمواقف السياسية ، حاولت الدوائر العلمية فى تلك الدول أن تبحث عن بديل للبترول بأسعار معقولة ، وروجت تلك الدوائر أن ذلك ممكن ومتاح ، ولكن مع الوقت اكتشف الجميع أن تلك لم تكن إلا خدعة إعلامية .

بعث الخوف والتراجع فى صفوف منتجى الطاقة البترولية حتى لا تزداد رغبتهم فى زيادة الأسعار ، وظل النفط أرخص حتى لو وصل سعره إلى ١٠٠ دولارا للبرميل ، وأفضل مصدر معروف للطاقة حتى الآن وكان من الطبيعى أن تحاول الدول الصناعية الكبرى السيطرة على منابع النفط بصورة أو أخرى ومحاولة التأثير بكل الوسائل على المنتجين ، ودخلنا من وقتها ما يسمى بالدم مقابل النفط ، أى استعداد تلك الدول لنشر جيوشها وخوض الحروب من أجل تحقيق تدفق آمن ورخيص للنفط ، ومنذ ذلك الوقت كان النفط هو العامل الأهم فى الصراع الدولى .

عقب حفر أول بئر للنفط فى الولايات المتحدة الأمريكية عام ١٨٥٩ بدأت كل الدول الصناعية فى البحث عن تأمين مصادرها من النفط ، وبدأ البحث والتنقيب فى كل مكان بالعالم ، وشاءت إرادة الله أن يتواجد النفط – فى معظمه –

فـى أقطار عربية وإسلامية ، ونجحت شركة النفط "الانجلوفارسيا" فى حفر أول بئر بـترولى فـى إيـران ، ثـم بـدأ الـنفط يظهـر فـى العراق والكويت والخليج العربى عمومـا ، وتسـابقت دول مـثل بريطانـيا وألمانـيا وفرنسا لعقد صفقات مع مشايخ وحكـام مـنطقة الخلـيج وإيـران ، إلا أن الولايـات المتحدة دخلت على الخط عام ١٩٣٣ ونجحـت شركة ستاندرو اويل كومبانى اوف كاليفورنيا فى توقيع عقد مع العربـية السـعودية ، وصدر المرسوم الملكى رقم (١١٣٥) فى ٧ يوليو ١٩٣٣ بمنح تلـك الشركة حق التنقيب واستخراج النفط فى المملكة وخاصة فى الجزء الشرقى منها "منطقة الأحساء" .

كانـت السـيطرة عـلى النفط تعنى ضمان استمرار عمل الآلة الصناعية والآلة العسـكرية معـا ، أى الـرخاء والقـوة ، وكـان بالإضـافة إلى ذلك يمثل قطاعا هاما للاسـتثمار الـرأسمالى ، وهكـذا كان النفط محورا لصراع الرأسماليات والشركات والدول ومقاولى النقل ، بل والأفاقين فضلا عن العسكريين بالطبع .

ومع تصاعد حركات التحرر الوطنى عقب الحرب العالمية الثانية ونجاح معظم الـدول المحتلة فـى تحقـيق اسـتقلالها ، تقلـص نفـوذ الدول الاستعمارية التقليدية بريطانـيا - فرنسـا - ألمانـيا- بلجـيكا - الـبرتغال - هولـندا . . إلخ ، وأصـبحت الولايـات المـتحدة والاتحـاد السـوفيتى هما قطبا الصراع ؛ ولأن الاتحاد السوفيتى السـابق كـان يمـتلك النفط فى أراضيه ، وليست لديه شركات رأسمالية تطمع فى بـترول الآخـرين ، فـإن الثقل الأساسى لمحاولة السيطرة على النفط صب فى خانة الولايات المتحدة الأمريكية التى تطلعت بدورها إلى مد نفوذها في الدول الأخرى واستغلال ثرواتها .

وفـى ظـل حالة الاستقطاب الدولى بين الاتحاد السوفيتى والمنظومة الاشتراكية والولايـات المتحدة ودول حلف شمال الأطلنطى ، ومع صعود حركات التحرير الوطنى فـى معظـم بـلاد العـالم النامى وخاصـة الدول النفطية ، تطلعت الدول المنتجة للنفط إلى السيطرة على ثروتها الأساسية ، وظهرت حركات وحكومات ودول أممت أو سعت إلى تأميم إنتاج النفط ، وكـان ذلـك جـزءا مـن التحرر والكـرامة وجـزء مـن اسـتعادة الثروة المنهوبة ؛ لأن عملـية الإنتاج كانت تصب أرباحهـا الأساسـية فى جيب الشركات الرأسمالية والدول الصناعية الكبرى على حسـاب الشـعوب الفقـيرة الـتى كانـت تعـانى مـن تدهـور أحوالهـا الاقتصـادية والاجتماعـية . وفـى كـل الأحـوال لم تحاول تلك الدول قطع البترول عن الدول الصـناعية ، بـل ظـل يـتدفق بانـتظام فى كل الظروف بأسعار رخيصة جدا ، ومع ذلـك لم يكـن الغـرب ولا أمـريكا راضـون عـن مجـرد التطلع لدى تلك الشعوب لممارسـة شيء من سيادتها على ثرواتها ، وفى عام ١٩٦٠ تم إنشاء منظمة الأوبك وشملـت ١١ دولـة هـى " الجزائـر ـ وإندونيسيا - إيران - العراق - الكويت - ليبـيا - نـيجيريا - قطـر - السـعودية - الإمـارات ، فنزويلا " فى محاولة لتشكيل تجمـع مـن الـدول المنتجة يعـادل شـيئا مـا قـوة المستهلكين ، ورغم ذلك لم تتأثر إمدادات النفط للدول المستهلكة ولا أسعار النفط أيضا ، وفى عام ١٩٧٣ حدثت أزمـة الـنفط التاريخية المعروفة فى أعقاب حرب أكتوبر ، وارتفعت أسعار البترول بصـورة كـبيرة وكان ذلك بالطبع خيرا كبيرا ؛ لأن لو استخدمت عوائد النفط منذ ذلـك الوقـت فـى بناء قاعدة صناعية واقتصادية للدول المنتجة لكان الأمر مختلفا ، عـندما حدثـت أزمـة النفط تلك قررت الولايات المتحدة الأمريكية التى تستهلك

¼ إنتاج النفط العالمى وحدها ، والتى كانت ولا تزال أكبر قوة عسكرية واقتصادية والتى يشكل النفط بالتالى عاملا هاما من عوامل قوتها ورخائها ـ قررت الولايات المتحدة ألا تترك إمداداتها النفطية للظروف ، بل أن تنشأ مخازن تخزين نفط تسع احتياطى إستراتيجى يكفيها ٨٤ يوما ، وقد صدر قرار بذلك من الرئيس الأمريكى وقتها "جيرالد فورد" عام ١٩٧٥ ، وفى نفس الوقت قررت الولايات المتحدة الأمريكية السيطرة بطريقة أو بأخرى على منابع النفط الأساسية فى العالم وخاصة منطقة الخليج ، وتم إعداد خطة فى عهد الرئيس كارتر عام ١٩٧٦ سميت خطة كارتر تقول: إن أمريكا على استعداد للتدخل الفورى والمباشر عسكريا فى أى نقطة فى العالم تمثل تهديدا للنفط ، وقال كارتر: إن تهديد منابع النفط يعنى مباشرة تهديد الأمن القومى الأمريكى ، وأننا على استعداد لندفع الدم مقابل ضمان استمرار تدفق النفط . وهكذا كان كارتر أول من صك عبارة "الدم مقابل النفط" .

فى نهاية السبعينيات ١٩٧٩ اندلعت الثورة الإيرانية وكان ذلك مؤشرا خطرا على المصالح البترولية فى الخليج ، وعلى المصالح البترولية المتوقعة فى بحر قزوين ، وكانت الولايات المتحدة قد نجحت فى احتواء ارتفاع أسعار النفط وأمنت لنفسها إمدادا آمنا منه من منطقة الخليج تحديدا ، ودخل الاتحاد السوفييتى أفغانستان مهددا بالوصول إلى المياه الدافئة وهكذا تحركت الولايات المتحدة بسرعة لاحتواء هذا الخطر المتفاقم ، وانتهى الأمر بإثارة قوى كبيرة ضد الاتحاد السوفيتى انتهت بهزيمته وسقوطه فى بداية التسعينيات ، بل وتفكك المنظومة الاشتراكية برمتها ، كما أشعلت الولايات المتحدة وشجعت الحروب ضد إيران

وخاضت ضدها حربا دعائية وسياسية انتهت بتقليص أظافرها الثورية .

جاءت حرب الخليج الثانية لتقدم فرصة ذهبية إلى الولايات المتحد الأمريكية لإدحال قواتها العسكرية إلى منطقة الخليج بدعوى إخراج العراق من الكويت ثم حماية دول الخليج من الخطر العراقى ، ولم تخرج تلك القوات من يومها ، بل ازداد انتشارها ، وظهرت القواعد الأمريكية فى السعودية والكويت وقطر والبحرين وتم احتلال العراق سنة ٢٠٠٣ ، وعلينا أن نرصد الآن قوات أمريكية وقواعد بالإضافة إلى الدول السابقة فى أفغانستان التى دخلتها بحجة مسئولية تنظيم القاعدة عن أحداث ١١ سبتمبر ومسؤولية طالبان عن حماية تنظيم القاعدة ، ولم تخرج القوات الأمريكية من هناك رغم الإطاحة بنظام طالبان وإقامة نظام تابع للولايات المتحدة الأمريكية هناك .

وتتواجد أيضا فى جورجيا وطاجيكستان والجمهوريات المحيطة ببحر قزوين من دول الاتحاد السوفيتى السابق ، وهى موجودة فى تركيا وباكستان ثم جيبوتى واليمن والقرن الإفريقى والفلبين وهى كلها مناطق نفط ، أو على طرق المواصلات المتصلة بالنفط ، ونلاحظ أن القوات الأمريكية لم تتجه إلى دول أمريكا اللاتينية بحثا عن إرهابيين مؤكدين أو داخل الولايات المتحدة فى الغابات التى تعج بالجماعات والمنظمات الأمريكية المسلحة التى تهدف إلى الإضرار المؤكدة باحكومة الأمريكية .

ماذا تريد أمريكا من نشر قواتها حول مناطق إنتاج البترول أو الطرق المؤدية إليها أو تمر بها إمدادات النفط . . ولماذا تنشر أمريكا قواتها الآن؟ . . الإجابة على السؤال يقتضى الأخد بالاعتبار نهاية الاتحاد السوفيتى ، انفراد أمريكا بالهيمنة

على العالم ، تصاعد موجات العولمة أو الأمركة ، بروز قوة الولايات المتحدة الأمريكية عسكريا واقتصاديا ، حالة التنافس الاقتصادى والعسكري المحتمل مع أوروبا - اليابان - الصين - روسيا ، وهكذا فإن المطلوب احتواء روسيا والصين ، وضع الرأسماليات الأوروبية واليابانية تحت السيطرة الأمريكية بالتحكم فى إمدادات النفط .

وإذا كان النظام الأمريكى يمثل تحالف الرأسماليين والعسكر الذين يرغبون فى مناطق تمدد جديدة وحروب جديدة ، وإذا كانت التقارير تصب يوميا تتحدث عن قوة أمريكية عسكرية هائلة لا يستطيع أحد الوقوف أمامها أو منافستها وقوة إقتصادية هائلة تمثل٣/ ١ ، الاقتصاد العالمى " ١١ تريليون دخل قومى سنوى فى أمريكا " ، وأن تلك الحالة الدولية السائلة يمكن أن تنتهى فى غضون سنوات ، كان من الطبيعى أن تستغل الحكومة الأمريكية الفرصة للتمدد فى العالم ، والسيطرة على البترول ، واحتجاز مكان مضمون للسيطرة الدائمة على العالم ولو لمدة قرن وهكذا جاء الحديث عن القرن الحالى "الواحد والعشرين" على أنه قرن الولايات المتحدة الأمريكية ، ففى إطار السيطرة على الرأسماليات الأخرى فى أوروبا واليابان وتحديد مستوى نموها بما لا يهدد المصالح الأمريكية ، كان لابد من التحكم فى البترول حتى تكون تلك الرأسماليات تحت رحمة السيد الأمريكى "يبلغ الناتج القومى الأوروبى ٩ ترليون دولار سنويا ، والألمانى منه ٢ . ٥ تريليون دولار سنويا ، فى حين يبلغ الناتج القومى اليابانى ٥ تريليون " . وبالنسبة لروسيا والصين يجب احتواءهما بالقوات الأمريكية فى كوريا وأفغانستان وباكستان والفلبين والخليج والقرن الإفريقى ، وعبر مظلة حلف

الأطلنطى شرقا حتى حدود روسيا ، وذلك لمنع روسيا من إعادة بناء نفسها واستعادة دورها القديم ومنع الصين من التطور خارج الإطار .

النفط والصراع على النفط يفسر كثيرا من معادلات الصراع والحروب والانتشار العسكرى والسياسى . . وإذا وضعنا أمامنا خريطة احتياطيات النفط العلمى حاليا لوجدنا أن الخليج العربى يمتلك ٦٤% من الاحتياطى المؤكد للنفط ، فالسعودية مثلا تمتلك ٢٦٢ مليار برميل احتياطى ، والعراق من ١١٥-٢٢٠ مليار حسب اختلاف التقديرات ، وفنزويلا من ٦٥ مليار ، أما بحر قزوين ففيه من ١٥ إلى ٤٠ مليار برميل حسب اختلاف التقديرات ، وهناك مشاكل بين الدول المحيطة به حول الإنتاج وحقوق الاستغلال " روسيا - إيران - أذربيجان - كازخستان - تركمانستان " ، وهناك أيضا مشاكل فى النقل عن طريق تركيا أو الخليج عبر إيران!! وهكذا فالمجال المفضل أمام الولايات المتحدة هو منطقة الخليج ، وهذا يفسر احتلالها للعراق الذى لا علاقة له بموضوع أسلحة الدمار الشامل ، أو موضوع الديمقراطية المزعومة ، والولايات المتحدة أيضا ذهبت إلى أفغانستان وجورجيا وكازاخستان من أجل بترول بحر قزوين .

ويمكن أن يكتمل فهمنا لمعادلات الصراع إذا أدركنا أن الولايات المتحدة الأمريكية لا تملك سوى ٢١ مليار برميل احتياطى ، وإنتاجها حاليا ٧ ملايين برميل وهى تحتاج ١٧ مليون برميل يوميا حاليا ، وهكذا فإنها تستورد ١٠ مليون برميل يوميا ، ومن المتوقع أن تصل احتياجاتها إلى ٢٦ مليون برميل يوميا عام ٢٠٢٠ وهو ما يعني أنها بحاجة إلى ١٧ مليون برميل يوميا حيث لن يصل إنتاجها المحلى إلا إلى ٩ مليون برميل

فقط وهو سقف يصعب تجاوزه . أى أنها تريد استيراد ٦٦% من حاجتها اليومية للبترول والغاز ، وإذا كان الإنتاج العالمى حاليا يصل إلى ٧٤ مليون برميل يوميا يفيض عن حاجة المستهلكين ، فإن من المتوقع أن يصل الإنتاج إلى ٩٢ مليون برميل يوميا عام ٢٠٢٠ فى حين يصل الاستهلاك إلى ١١١ مليون برميل يوميا ، أى أن هناك فجوة ستحدث ، ومن لا يستطيع أن يؤمن حاجاته البترولية سيتراجع صناعيا واقتصاديا وعسكريا ، وإذا هيمنت الولايات 'لمتحدة على البترول تحكمت فى الآخرين فضلا من تأمين حاجاتها!!

لم تترك الولايات المتحدة فرصة نلسيطرة على البترون إلا وسارعت إليها ، وحتى بترول السودان المتوقع " ٣ مليار برميل احتياطى" ، جعل الولايات المتحدة تسارع إلى التدخل فى الموضوع السودانى وتضع يدها على البترول وتحقق نفوذا هناك ، وكذلك فيما تخطط له فى نيجيريا والجزائر وليبيا .

وفى الحقيقة فإن ما تعلنه الولايات المتحدة من أنها تحارب الإرهاب ليس إلا حجة فى موضوع البترول والهيمنة ، وحتى أحداث ١١ سبتمبر لم تكن سببا لانتشار العدوان الأمريكى ومحاولات الهيمنة ، بل هى فرصة استغلتها لإقناع الشعب الأمريكى بدفع الدم لصالح الآلة العسكرية والرأسمالية ، والمجمع الصناعى العسكرى الأمريكى الذى يسيطر على أجهزة الحكم ، فقبل أحداث ١١ سبتمبر بـ ٤ أشهر كاملة أى فى شهر مايو ٢٠٠١ صدر تقرير السياسة الوطنية للطاقة عن مجموعة تنمية سياسة الطاقة الوطنية الأمريكية " تتكون من ١٤ عضو من مؤسسة الرئاسة

الأمريكية بما فيهم نائب الرئيس نفسه " ، وقد أشار التقرير إلى أن أمريكا تواجه أكبر نقص فى البترول تعرضت له منذ ١٩٧٣ ، وطالب التقرير باتخاذ العديد من الاجراءات والتحركات وفى مقدمتها زيادة موارد البلاد من الطاقة عموما والبترول خصوصا وزيادة مستوى تأمين المصالح البترولية فى الخارج .

بالطبع فإن الصراع له أسباب متعددة ، حضارية ، عقائدية ، سياسية ، اقتصادية ، استراتيجية ، نفسية ، ولكن البترول بدوره أحد أهم عوامل هذا الصراع ، وبديهى أن حديثنا السابق عن هذا العامل لا يلغى ولا يغفل قيمة العوامل الأخرى .

* * *

مسؤولية الحكام أم الشعوب

بديهى أنه ينبغى أن نفرق بين مسؤولية حاكم ما والشعب الذى يحكمه هذا الحاكم ، وأن الشعب لا يجب أن يدفع فتورة أخطاء هذا الحاكم أو يكون مسؤولا عن ممارساته وتصرفاته ، هذا بالطبع إن كان هذا الشعب مغلوبا على أمره ، وإن هذا الحاكم قد اغتصب السلطة وقهر الشعب . . ولا نريد أن نقسوا فى الحكم على الشعوب فنقول: إنها لم تعارض هذا الحاكم وتحاول الإطاحة به ، فهذه ولا شك مسؤولية معتبرة . . ولكن الأمر الواقع يقول: إن شعوبا دفعت ثمنا باهظا لخروجها على الحاكم ، ومع ذلك ظل قابعا على السلطة حتى توفاه الله ، أو أن هذا الأمر صعب شديد الصعوبة ، وهذا بالطبع لا يسقط المسؤولية الشعبية ولا مسؤولية أى فرد يساعد هذا الحاكم .

ولكن إذا كان شعب ما يختار حاكمه وفق آليات معينة ذات أى مرجعية سياسية ، لايهمنا هنا اسم تلك المرجعية السياسية التى يتم الاختيار وفقا لها ، كالديمقراطية أو غيرها ، ولكن إذا تحققت بالفعل قدرة الشعوب على اختيار حكامها وتغييرهم وإقالتهم إذا لزم الأمر ، فإن مسؤولية الشعوب عن تصرفات الحكام بديهية .

وبديهي أن لكل قاعدة شواذ فالشعوب العربية والإسلامية فى معظمها ليست مسؤولة عن تصرفات الحكام ؛ لأنهم فرضوا عليها فرضا بالانقلابات العسكرية أو تزييف الانتخابات أو غيرها من الوسائل ، فى حين أن الدول الأوروبية وأمريكا وغيرها تستطيع شعوبها أن تختار الحكام وتغيرهم أو على

الأقل تزعم ذلك - شعوبا وحكومات - وبالتالى فهى مسؤولة عن تصرفات الحكام ، ومن المفروض أن تدفع هى الأخرى ثمن تلك المسؤولية ، ولا يمكن التفرقة من حيث المبدأ بين الحكام والشعوب إلا فى درجة المسؤولية ، وبالطبع لن نناقش هنا أسباب ذلك ونتباكى على سوء حظ شعوبنا مثلا ، أو كيف يمكن إنهاء تلك الحالة التى لا تتفق مع قيمنا الدينية والحضارية!!

المهم أننا نرى الآن أن شعوب الغرب وأمريكا - بل وإسرائيل للأسف - تستطيع أن تغير الحكام وتختارهم ، ومن ثم فهى مسؤولة عن تصرفات هؤلاء الحكام بصورة أو بأخرى ، وإذا أخذنا مثلا مسألة العدوان على العراق واحتلاله ، وجدنا أن هناك قوة رئيسية هى الولايات المتحدة الأمريكية وعدد من الدول الحليفة أهمها: بريطانيا واستراليا ، ونجد مثلا أن الذرائع التى استخدمتها تلك الدول فى العدوان على العراق رغم أنف الشرعية الدولية طبعا هى موضوع خطورة العراق على الأمن العالمى والأمن الأمريكى بسبب امتلاكها لأسلحة الدمار الشامل ، وقد جاءت كل الشهادات والأحداث لتقول بكذب هذا الادعاء . ففريق التفتيش الدولى على العراق قال بعكس ذلك - قبل بدء العدوان - وضرب الحلفاء بهذا التقرير عرض الحائط ، ونفذوا عدوانهم ، وكذلك كانت قد صدرت تقارير عن مؤسسة كارينج للسلام الدولى وهى من أبرز مؤسسات ومراكز الدراسات فى واشنطن ، وجاء فيه أن مسؤولى إدارة بوش قد شوهوا بشكل منهجى الحقائق المتعلقة بامتلاك العراق لأسلحة الدمار الشامل ، وإن إدارة بوش قد بالغت فى الحديث عن المخاطر التى يفرضها هذا البلد على الولايات المتحدة أو على الأمن العالمى ، واعترف أيضا وزير العدل الأمريكى السابق فى

إدارة بـوش "بـول أونيل" بأن إدارة بوش كانت تعد لغزو العراق قبل أحداث ١١ سـبتمبر ٢٠٠١ بعام كامل ، أى بعد أيام قليلة من وصول الرئيس الأمريكى بوش إلى البيـت الأبـيض عـام ٢٠٠٠ دعـنا مـن كل ذلك ، ولكن اللجنة التابعة لإدارة بـوش نفسـه وهـى لجـنة مسـح العـراق والتى تم تشكيلها بقرار من الرئيس بوش برئاسـة تشـارلز دولـف كـبير مفتشـى الأسـلحة الأمريكية ، انتهت مؤخرا من أن العـراق لم يكن يمتلك أسلحة دمار شامل ولا قدرة ، على إنتاجها منذ عام ١٩٩٦ . ونلاحـظ فـى هـذا الصـدد أن الرئـيس الأمـريكى جورج بوش كان قد استند فى خطـاب حالـة الاتحـاد ٢٨ يناير ٢٠٠٣ إلى أن العراق يمتلك أسلحة دمار شامل ، وأنـه قـد اسـتورد يورانـيوم مـن النيجر ، وقد ثبت كذب ذلك تماما فيما بعد وأن رئـيس الـوزراء الـبريطانى تونى بلير كان يزعم أن العراق قادر على إنتاج أسلحة وتهديـد الأمـن العـالمى فـى مـدة ٤٥ دقـيقة وهـو مـا ثبـت كذبه تماما فيما بعد ، وبديهى أنها كذبة واسعة جدا .

ترتـب عـلى تلـك الأكاذيب التى افتضحت أنه تم غزو العراق وقتل عشرات الآلاف وتدمـير البنـية . . إلخ . والأعجب أن هؤلاء الزعماء أنفسهم استمروا فى الكـذب فـتحدثوا عن أسلحة ذكية ونظيفة ، فثبت أنها غبية وغير نظيفة ، وتحدثوا عـن ترحيـب العراقـيين بهـم ، فاندلعـت أقوى وأعظم مقاومة عربية إسلامية فى العصر الحديث للاحتلال .

إذن نحـن أمام جريمة كاملة المعالم - ومفضوحة علنا - ومن المفروض دوليا أن يـتم محاكمة المسؤولية عنها ، ولكن هب أن الشريعة الدولية لا تمتلك شيئا لأمريكا وبريطانـيا واسـتراليا ، ولكـن شـعوب أمـريكا وبريطانـيا واسـتراليا تستطيع وفقا

للدستور هناك محاكمة هؤلاء الحكام وإسقاطهم ، وقد حدث ذلك مرات عديدة فى قضايا أقل . إذن هناك نوع من الرضا الشعبى على تلك التصرفات - سواء كان بالخداع أو غيره فهذا لا يعنينا - الأخطر أن بوش مثلا حظى بثقة ٥٢% من الأمريكيين فى الانتخابات الرئاسية ، وبصرف النظر عن النتيجة فإن قطاعا كبيرا من الشعب الأمريكى كان موافقا على جرائم بوش ، الأمر ذاته أو أكثر بالنسبة لتونى بلير ، بل إن استطلاعات الرأى بعد أحداث العراق قالت: إن تونى بلير هو أكثر شخصية بريطانية تحظى بالشعبية ، وأن حزب العمال البريطانى سيفوز فى أى انتخابات ، مع استراليا الأمر أسوأ منذ فازت حكومة حزب المحافظين ، التى شاركت فى العدوان على العراق مع أمريكا وبريطانيا فى أول انتخابات برلمانية تمت بعد الحرب بعام ونصف ، وهكذا فالشعوب فى تلك الدول على الأقل تشارك فى المسؤولية على الجريمة مع حكامها . ومن ثم فإن عليها أن تدفع الثمن .

ومع الأخذ فى الاعتبار أن الـ٥٢% الذين صوتوا لبوش لا يعنى أن الباقين غير راضين عن تمرد العراق بل عن أشياء أخرى اقتصادية أو سياسية ، بل إن الدعامة الأساسية فى حملة جورج بوش كان الموضوع العراقى ، والمعارضين لبوش لم يعارضوا غزو العراق بل عارضوا الطريقة والأسلوب والفشل وليس المبدأ ، وهكذا فأغلبية الشعب الأمريكى توافق على هذا العدوان ، واستطلاعات الرأى ذاتها حول هذا الموضوع تحديدا تحدثت عن نسبة عالية من قبول العدوان على العراق تقاربت وتراجعت حول ٦٥ـ٨٠% . تتغير بالطبع نتائج استطلاعات الرأي العام في الولايات المتحدة حول هذا الموضوع بسبب ارتفاع الخسائر

الأمريكية في العراق وليس بسبب مبدأ عدم العدوان مثلا!! .

وهكذا فأغلبية الشعب الأمريكى كانت مع العدوان والظلم ، ويمكننا بالطبع تفسير ذلك الشعور الشعبى الأوروبى والأمريكى والاسترالى بوجود وجدان صليبى معادى للعرب والمسلمين فى تلافيف العقل الغربى ، أو وجود نزعة جوهرية تتصل بالنهب والقهر والقمع والعدوان فى الحضارة الغربية ، وأيا كان التفسير - وحتى بدون تفسير - فإن الجريمة تظل جريمة!! . ويمكننا داخل التفسير أن نضيف إلى ما سبق أن القوى الرئيسبة المشاركة فى العدوان: أمريكا - بريطانيا - اسراليا تنتمى شعوبها فى معظمها إلى الأنجلو سكسون وإلى البروتستانتية ، وبالتالى فهناك أسباب دينية بروتستانتية تتصل بالمسيحية الصهيونية التى انبثقت عن البروتستانتيين ، وعن الرأسمالية التى وجدت فى المذهب البروتستانتى دعما وتبريرا لها ، يمكننا إذن أن نضيف التفسير البروتستانتى الأنجلو سكسونى لسبب عداء هذه الشعوب لكل ما هو عربى وإسلامى .

❊ ❊ ❊

مشروع أمريكا القرن الجديد

الحديث عن تفشى مفاهيم "الإمبراطورية الأمريكية" وأن هذا المفاهيم تعكس روحا عنصرية واضحة ، وأنها التطور الطبيعى للمجتمع الأمريكى الذى قام أساسا على إبادة شعب آخر "الهنود الحمر" واسترقاق الملايين من السود ، وبالتالى فالقاعدة الثقافية والنفسية لظهور المفاهيم الإمبراطورية موجودة فى البنية الأمريكية ، هذا الحديث ليس كلاما مرسلا ، أو نوع من التفسير لظواهر وممارسات لا يمكن تفسيرها إلا من خلال هذه المفاهيم ، ولكنه بالإضافة إلى ذلك أصبح حقيقة معلنة ، ولها جماعاتها ورموزها فى السلطة والإدارة والكنيسة والأجهزة والمجتمع الأمريكى عموما . وهى التعبير الأكثر أهمية عن المجمع الصناعى العسكرى الأمريكى الذى يحكم أمريكا فى حقيقة الأمر ، بل هى ذراعه وأداته السياسية والثقافية والإعلامية .

"جماعة أمريكا القرن الجديد" ليست مسمى من عندنا ، بل هى جماعة موجودة بالفعل فى أمريكا ، نشأت رسميا عام ١٩٩٧ ، وخططت وفكرت وجهزت ودعت إلى غزو العراق من وقتها أى منذ عام ١٩٩٧ ، وهذا فى حد ذاته دليل على أن العدوان على العراق جزء من مخطط المجمع الصناعى العسكرى ، وليس رد فعل على أحداث ١١ سبتمبر مثلا ، أو محاولة لنزع أسلحة دمار شامل أو القضاء على أنظمة ديكتاتورية أو غيرها من الحجج المعلنة الآن لتبرير العدوان .

ففى عام ١٩٩٨ مثلا ، دعت تلك الجماعة إلى غزو العراق وأرسلت رسالة بهذا المعنى إلى الرئيس الأمريكى وقتها "بيل كلينتون" ، وإذا كانت النشأة الرسمية

لهذه الجماعة هو عام ١٩٩٧ ، فإن ما تمثله كان موجودا وبقوة فى البنية الأمريكية أى خطورة المجمع الصناعى العسكرى وتحكمه فى السلطة ومفاهيمه الداعية لنشر الحروب وبناء إمبراطورية ؛ لدرجة أن رجلا مثل الرئيس إيزنهاور قد حذر من تلك القوة عام ١٩٦١ قائلا: "علينا أن نحمى أنفسنا من أى نفوذ كان سواء تطلب الأمر أم لا ، بالحفاظ على عقدة صناعة السلاح ، فالخطر موجود ويمكن أن يداهمنا فى أى وقت" .

رموز هذا الجماعة ، والجماعات الشبيهة بها ، أو المنبثقة عنها هم خليط من رجال الصناعة والنفط والسلاح " المجمع الصناعى العسكرى" وهم بالطبع يريدون المزيد من الأرباح عن طريق نشر الحروب وإنتاج السلاح وافتعال الأزمات ، ويستخدمون لتبرير ذلك أو إقناع الأمريكيين به الحديث عن عظمة أمريكا ، عن مخاطر محور الشر ، الخطر على الديمقراطية الأمريكية ، حقد الشعوب الأخرى على الأمريكان ، نشر القيم الديمقراطية ، نزع أسلحة الدمار الشامل . . إلخ .

وهذه الجماعة تسيطر الآن على الإدارة الأمريكية من خلال عدد من رموزها مثل ديك تشينى نائب الرئيس الأمريكى ، وهو من رجال البترول ، ومن مؤسسى تلك الجماعة "جماعة أمريكا القرن الجديد" . وهو يطالب منذ عام ١٩٩٧ بالعدوان على العراق ومثل "رونالد رامسفيلد" وزير الدفاع وهو أيضا عضو مؤسس فى تلك الجماعة ، "واليوت أبرامز" وهو عضو بارز فى مجلس الأمن القومى " وجون بلقون" ثم "ريتشارد بيرل" رئيس لجنة سياسة الدفاع ، ومنهم " لويس ليبى" كبير مساعدى مجلس الأمن القومى الأمريكى .

وحسب منشورات ووثائق ودراسات تلك الجماعة والتى نشرها عدد من

الكتاب والصحفيين الأمريكيين مثل " تورمان بود هوردز " فى صحيفة كومنترى والكاتب الأمريكى "ويليام ديفرزبيت" وهو من أشهر كتاب صحيفة نيويورك تايمز وصاحب أكثر الكتب مبيعا فى الولايات المتحدة مثل: "الحرب على العراق" و"الصمت أكبر جريمة" فإن تلك الجماعة تسعى إلى تأسيس أمريكا العظمى أى تحويل أمريكا إلى إمبراطورية كونية . وفى تقرير نشرته الجماعة عام ٢٠٠٠ قالت الجماعة: إنه يجب نشر واسع لسياسات الدفاع والدخول فى حروب كبرى لتحقيق هذا الغرض ، ويسيطر أعضاء هذه الجماعة على الرئيس بوش ، ودفعوه إلى إصدار أكبر ميزانية دفاعية وعسكرية فى تاريخ أمريكا تصل إلى ٦٥٠ مليار دولار سنويا ، وهم ينتشرون فى وزارات الدفاع والبيت الأبيض وأجهزة الاستخبارات ومجالس الأمن القومى والكونجرس بمجلسيه "النواب والشيوخ " وهم على تحالف قوى مع رموز اليمين المسيحى فى الكنيسة البروتستانتية وفى وزارة العدل اشكروفت" .

وترى هذه الجماعة أن غزو العراق ونشر قوات أمريكية فى المنطقة هو مقدمة لتغيير كل الأنظمة غير الموالية لأمريكا ، أو حتى الموالية لتصبح على استعداد للخضوع الكامل ، والسيطرة على البترول ، ومن ثم التحكم فى اقتصاد العالم .

ونشر القوات الأمريكية فى كل مكان بالعالم ، أى عودة الاستعمار الإمبراطورى القديم ، وضرب كل الثقافات والديانات التى تشكل عقبة فى هذا الصدد وعلى رأسها الإسلام من خلال تغيير مفاهيمه وجعله أكثر عصرية أى تفريغه من مضمونه الحقيقى .

* * *

الأمم المتحدة..
دور الكناس والآلية الكاذبة

فى قول لا يخلو من الدلالة وصف السيد كورت فالدهايم السكرتير العام الأسبق للأمم المتحدة أن الأمم المتحدة ما هى إلا آلية للكذب من أجل السلام . . وهذا التعبير من مسؤول سابق عن تلك الأمم المتحدة يفتح الطريق وينير البصيرة عن فائدة هذه الأمم المتحدة ودورها السابق والحالى واللاحق ، ووفقا للطريقة التى تم إنشاء الأمم المتحدة بها والمفروض أنها تجمع يضم جميع دول العالم "١٩١ دولة حاليا" وتسعى لنشر الأمن والسلام وحل النزاعات وتحقيق العدل ، فإن شيئا من ذلك لم يحدث قط اللهم إلا إذا توافقت مصالح الكبار أو جاء الحل وفقا لمحصلة هذه المصالح . وهذا يرجع إلى طبيعة وبنية الأمم المتحدة التى تتكون من هيئتين رئيسيتين هى الجمعية العامة التى تضم كل الدول ، ولكن قرارها استشارى أى لا قيمة عملية له فما هى إلا مكلمة فى النهاية ، ومجلس الأمن الذى يحظى بسلطات حقيقية وفقا للمادة الثانية من ميثاق مجلس الأمن ، ولكن هذه السلطات محكومة بإرادة ٥ دول فقط من العالم هى الدول الكبار صاحبة حق الفيتو ، بالإضافة إلى ١٠ دول لها صوت فى مجلس الأمن تتغير كل عامين وهى لا تملك حق الفيتو - الاعتراض - أى عمليا فإن أى قرار لايروق - أو كان لا يروق لأى من الولايات المتحدة الأمريكية أو الاتحاد السوفيتى السابق "روسيا حاليا" وبريطانيا وفرنسا والصين "فرموزا سابقا" فإن أى قرار لا يروق لإحدى هذه الدول صاحبة حق الفيتو لم يكن ليمر ، بل أكثر من هذا تم التلاعب ببعض

هـذه القـرارات فأسـندت إلى غير البند الثانى والفقرة السابعة ، فلم تكن لها صفة الإلـزام بـالقوة كمـا فـى قرار رقم ٢٤٢ الخاص بانسحاب إسرائيل من الأراضى المحتلة فى عام ١٩٦٧ ، وهكذا فإن أى قرار كان لا يروق لإسرائيل فإن الولايات المـتحدة كانـت تعـترض علـيه بالفيـتو ، وإذا مـر القـرار كـان ضعيفا ويمكن أيضا لإسـرائيل أن تـتجاهله دون أن يترتـب عـلى ذلـك أى عقوبـة علـيها أو تدخـل عسـكرى ضـدها ، وهكـذا فـإن القرارات التى صدرت من الأمم المتحدة كرست للاعـتراف بإسـرائيل حـال نشـأتها ، أو جاءت ضد إسرائيل فى أشياء جزئية ومع ذلـك لم يـتم احترامهـا ، أو جاءت أصلا من الجمعية العامة للأمم المتحدة فكانت بـلا قـيمة حقيقـية ، وهكذا كانت الأمم المتحدة منذ نشأتها عبئا بلا قيمة أو عاملا سلبيا بالنسبة للعرب والمسلمين .

وحتى بدأ انهيار الاتحاد السوفيتى السابق وتفكك المنظومة الاشتراكية وغياب الاسـتقطاب الدولى ، وانفراد أمريكا بالهيمنة على العالم ، فإن الأمم المتحدة لم تعد فقـط عبـئا على العالم العربى والإسلامي تحديدا والعالم عموما ، بل أصبحت أداة فـى يـد أمـريكا تحـركها كـيف تشـاء وتسـتخدمها فـى تغطـية أعمالهـا القـذرة والإجرامـية ، وعـلى حـد قول الدكتور جورج أبى صعب الخبير الدولى المعروف: "فإن الأمم المتحدة تحولت إلى مجرد كناس يطلب منه أن يقوم بتنظيف القذارة التى تسببها أمريكا فى العالم" .

وإذا أخذنـا قضـايا العـرب والمسـلمين كمعـيار ومقـياس لـتحديد دور الأمم المـتحدة ، نجـد أن القـرارات الـتى صـدرت لصـالح العـالم العربى والإسلامى تم تجاهـلها ولم تـنفذ "قرار حق تقرير المصير لشعب كشمير" ، أو قرار (٢٤٢) الخاص

بالانسحاب الإسرائيلى من أراضى ١٩٦٧ ، أو قرار (٣٣٨) فى نفس الموضوع ، أو قرار عودة اللاجئين ، وحتى قرار ٤٢٥ الخاص بالانسحاب الإسرائيلى من لبنان تجاهلته إسرائيل ٢٠ عاما ، ولم تنسحب إسرائيل من لبنان وفقا لهذا القرار بل تحت ضغط المقاومة اللبنانية ، وفى نفس الوقت فإن القرارات ضد العرب والمسلمين تم تنفيذها بالقوة أو بالضغط من أمثال قرارات العقوبات على ليبيا أو السودان أو إيران أو سوريا . . إلخ . ولعل القرارات الخاصة بالعراق بدءا من قرار التدخل العسكرى ثم العقوبات منذ عام ١٩٩١ ، والتى أدت إلى موت ٢/ ١ مليون مواطن عراقى وآفلاس العراق ، ثم التدخل الأمريكى فى العراق والعدوان عليه وغزوه واحتلاله عام ٢٠٠٣ بتفسير أحادى لقرار مجلس الأمن ، ثم صدور قرار مجلس الأمن بالاعتراف بالاحتلال الأمريكى فى العراق ، وتحويل اسم قوات الاحتلال إلى ما يسمى بقوات متعددة الجنسيات هى حالة واضحة لمدى الظلم الذى يقع على العرب تحت عنوان قرارات مجلس الأمن والشرعية الدولية ، مع العلم أن إسرائيل تقوم بكل الممارسات الاستفزازية من إبادة وقتل وتدمير للبشر والحجر والأرض والبنية تحت سمع وبصر الأمم المتحدة ولا يتحرك أحدا .

على أنه فى الآونة الأخيرة فإن المسألة دخلت مستوى غير مسبوق فى الظلم للعرب والمسلمين ، ونحن أمام تحركات وقرارات صدرت أو فى الطريق للصدور ، القرار (١٥٥٩) الخاص بتهديد سوريا ولبنان ، وطلب انسحاب القوات السورية من لبنان وحل ميليشيات المقاومة وذبح المقاومة بالتالى ، وتهديد سوريا بعدم إيواء عناصر حماس والجهاد وقوى المقاومة الفلسطينية ضد إسرائيل ،

وهـو قـرار ظـالم ولاشـك ويسـتهدف مصلحة إسرائيل أولا وأخيرا ، ولعل انحياز فرنسـا إلى هـذا القـرار الغريـب يؤكـد أن الغـرب يـنحاز فى النهاية ضد مصالح العـرب والمسـلمين ، وأن التناقضـات الثانوية بين دول الغرب المختلفة سرعان ما تتلاشـى أمـام التـناقض الجوهـرى بين الغرب والمسلمين ، فها هى فرنسا تصطف خلـف أمـريكا فـى موضـوع سوريا ولبنان ، وقد عارضت قبل ذلك الحرب على العـراق ثـم عـادت تقبلـت قـرار مجلس الأمن الذى سمى قوات الاحتلال قوات مـتعددة الجنسيات ، أى أن فرنسـا يمكن أن تعارض أمريكا لحدود معينة ، فإذا ما ظهـر أن المقاومـة العراقـية يمكـن أن تنتصـر عـلى أمـريكا ، فإن الموقف الفرنسى يختلف ؛ لأنهـا تضـحى بمصـالحها الثانوية فى العراق ولا تقبل أن تنتصر المقاومة العراقـية على أمريكا فيكون ذلك بداية الصحوة العربية والإسلامية الشاملة ، وقد حـدث ذلـك مـن قـبل من فرنسا عدة مرات ، فى عام ١٨٨٢ عندما فضلت ذبح الـثورة العرابـية فى مصر على يد الإنجليز رغم أن ذلك يعطى مصر للإنجليز على حسـاب المصـالح الفرنسـية ، وكذلـك فى الاتفاق الودى مع الإنجليز عام ١٩٠٤ والأمـثلة أكثر من أن تحصى ، ومنها مثلا اعتبار الاتحاد الأوروبى أن منظمة حماس منظمة إرهابية . . إلخ .

وهـناك القـرارات الخاصـة بالسـودان ، والتى تفرض عقوبات وتمهد للعدوان والـتدخل بحجـة وجـود إبـادة جماعـية فـى دارفـور ، وهـو أمـر كان قد نفاه نفس المسـؤولون الأمريكـيون والأوروبـيون الذيـن عـادوا فتبنوه فيما بعد ، وبديهى أن ذلـك خطـر عـلى السـودان ووحدتـه ووجـوده وخطـر عـلى مصـر والعـرب والمسلمين .

وهناك التلويح بقرارات من مجلس الأمن ضد إيران فى موضوع الملف النووى ، وواضح انحياز أوروبا وأمريكا إلى بعضهما البعض وإلى إسرائيل فى هذا الصدد وخاصة فى إدارة الموضوع فى الهيئات الدولية المختصة بالطاقة النووية .

وهكذا فإن أقل قدر من الحكمة يقتضى الانسحاب من الأمم المتحدة ، حتى لا يتحول العرب والمسلمين إلى شهود زور على أنفسهم فى تلك المنظمة الضارة جدا علينا ، وعند انسحاب الدول العربية والإسلامية فإن المسألة ستكون أقل ضررا وأكثر وضوحا ولو من باب أنه لو وقع العدوان فلن يكون باسم الشرعية الدولية ، أو على الأقل إذا وقع عدوان على دولة عربية أو إسلامية ، العراق ، سوريا ، السودان ، إيران مثلا فإنه لن يكون باسم باقى الدول العربية والإسلامية المشاركة فى تلك الهيئة المشؤومة المسماة بالأمم المتحدة .

* * *

تجديد الخطاب الدينى

التجديد سنة من سنن الله تعالى فى الكون والحياة ، وجسم الإنسان مثلا تتجدد خلاياه باستمرار وتنشأ خلايا جديدة وتموت خلايا قديمة اللهم إلا الخلايا العصبية ، ولكن هذا التجديد يتم من خلال الكائن الحى نفسه ومن داخله ، ويظل هذا الكائن هو ذاته وليس شيئا مغايرا ولا ممسوخا ، أى أن الجسد الحى ككائن متكامل يستخدم عناصر الغذاء والماء وغيرها فى عملية تجديد خلاياه وأنسجته باستمرار ، أى أن التجديد يأتى من خلال هضم العوامل الخارجية واستخدامها فى عملية تجديد داخلى بحتة .

وإذا حاول البعض أن يقطع جزءا من الكائن الحى ويلصق مكانه جزءا آخر ، فإن الجسم الحى يلفظ هذا الجزء الآخر ويرفضه ، وهذا بالضبط ما يحدث لأى أمة ذات شخصية ثقافية وحضارية معينة ، فيمكنها أن تستفيد من الثقافات واحضارات الأخرى بحيث تهضم ما تأخذه وتدخله من خلال أنسجتها الحية ليستخدم فى تجديد خلايا هذا الكائن الحى .

وهناك فرق بالطبع بين التجديد - الذى هو غاية كل حى - وبين التخريب بمعنى تدمير البنى التقليدى الراسخة للثقافة الوطنية ، والتى هى الأساس لعملية الهضم والتجديد من الداخل ، والأمر أشبه بكسر الإناء وليس تغيير ما بداخله ، والمسألة هنا ليس تجديدا ؛ لأن التجديد لا يحدث إلا من خلال الكائن الثقافى الحى الموجود فعلا وأيا كانت درجة تخلفه ، ومن خلال عملية إصلاح داخلى

طويلـة ، ولكـنها وسـيلة لتحقيق عملية التفتيت وتدمير قنوات التواصل وحرمان الأمـة مـن القدرة على الصمود والمقاومة ، وقتلا لوجودها ذاته فى النهاية ، وهذا لا يعـنى الانكفـاء عـلى الذات ولا رفض التجديد ، بل يكون التجديد من داخل وفـى إطـار الكـائن الحى الموجود واستفادة وهضما للعوامل الخارجية ودمجها من خلال الهضم والتمثيل الغذائى داخل أنسجة الجسم الحضارى الحى للأمة .

وهكـذا فـإن الموقـف مـن تجديـد الخطـاب الديـنى ، يكـون بأنـنا نرحـب بالـتجديد بشـرط أن يكـون مـن الداخـل ، ولـيس إمـلاء أمريكـيا مـثلا ، ولا يكـون وفـق التصـور الأمـريكى ولا اسـتجابة لمـا يـريده مـن إعـادة هـيكلة الفكـر والعقـل بتزيـيف تفسـير الديـن أو إعـادة صـياغته ، ونذكـر هـنا أن تومـاس فـريد مـان قـال فـى مقـال لـه: " إن المطلـوب استنسـاخ عقـل إسلامى على الطريقة الأمريكية فى غضون عشر سنوات " .

وبديهـى أن ثوابت الدين ؛ لأنها ثوابت ولأنها دين فهى لا تخضع لهوى البشر يغيرها وفق ما يريد ، فهناك مساحة للثابـت والمساحة الباقية للمتغير ، وهذه يسمح فـيها بالتغـيير عـلى شـريطة أن يكـون فـى إطار المنهج العام ، ومن خلال الكيان الثقافى نفسه ومن داخله وليس إقحاما عليه أو تغييرا لمناهجه وقواعده الكلية .

والمشـكلة فـى تجديـد الخطـاب الديـنى هـنا أن الكـلمة ذاتهـا تحمـل سمعـة غـير طيـبة وتحمـل مضـامين خطـيرة حملـت بهـا بحـق أو بـباطل . وهـذا أفقدهـا مصـداقيتها وأثـار حولهـا شـبهات مشـروعة ، والكـلمة نفسـها غـير مـريحة ؛ لأنهـا قدمـت فـى إطـار تغيير مفاهـيم ديـنية وحضـارية وثقافـية معيـنة ودعـوة مباشـرة للانـبطاح أمـام الغـرب وأمـريكا وإسـرائيل وإعـادة تفسـير الديـن

والـثقافة وفقـا لهـذا المعـيار ، فالانهزامـية تعـنى العقلانـية والمقاومـة تعـنى العـنف والإرهـاب ، والتمسـك بـالذات والهويـة تعـنى الرجعـية ، والعملـيات الاستشـهادية تعـنى العملـيات الانـتحارية والجهـاد مـرفوع مـن الخدمـة ، فهـو لـيس القـتال مـن أجـل الديـن والوطـن والمـال والعـرض ولكـنه جهاد النفس ، وترك ما لأمريكا لأمريكا ، وما لإسرائيل لإسرائيل .

وهكـذا فـإن تجديـد الفكـر الديـنى وفق ما يريده الذين .يـ.جوا للمصطلح لا تعـنى إلا نزع فتيل الجهاد والمقاومة من الإسلام ، وترك المسـ حة خالية أمام أمريكا وإسرائيل .

* * *

الإصلاح على أسنة الرماح

الإصلاح هو الاسم الكودى الذى تستخدمه الولايات المتحدة الأمريكية لتبرير التدخل فى شؤون المنطقة وإعادة صياغتها على الطريقة الملائمة لها ، ويصل الأمر إلى حد استخدام الإصلاح كمبرر للاحتلال العسكرى كما حدث فى العراق ، وكما يمكن أن يحدث فى دول أخرى ومناطق أخرى وأحوال أخرى . الاسم الكودى للهيمنة والنهب والاحتلال وبسط النفوذ وفرض الإرادات من الخارج يمكن أن يكون الإصلاح أو يكون حماية الأقليات ، كما كان من قبل رسالة الرجل الأبيض "مرحلة الاستعمار" أو إنقاذ قبر المسيح من الكفار المسلمين كما حدث إبان الحروب لصليبية وهكذا فالمسألة فى جوهرها ليست جديدة ، بل هى جزءا لايتجزأ من المحاولات المستمرة في الزمان والمكان منذ ما يزيد على الألف عام للقضاء على الحضارة الإسلامية التى تمثل الحق والعدل والخير والحرية لحساب الاستكبار والعصرية والقهر والعنف والنهب .

موضوع الإصلاح الذى قفز إلى واجهة الأحداث ، وشكل النقطة الرئيسية فى الأجندة الأمريكية منذ مبادرة كولن باول وزير الخارجية الأمريكية ، ثم خطاب الرئيس بوش حول ما يسمى بالشرق الأوسط الكبير ، ثم الشرق الأوسط الأكثر اتساعا فى قمة الثمانية الكبار فى سى غيلاند بالولايات المتحددة الأمريكية فى ٨ يونيو "حزيران" ٢٠٠٤ ، ثم قمة الاتحاد الأوروبى - أمريكا المنعقد بأيرلندا فى ٢٦ يونيو ٢٠٠٤ أيضا ثم فى قمة حلف الناتو فى إسطنبول يومى ٢٨ ، ٢٩ يونيو ٢٠٠٤ ، كلها أسماء لنفس المضمون ، ولكن الجديد فى المسألة أن تحويل

المسألة من اختصاصات السياسيين إلى اختصاصات العسكريين متمثلا فى عرض الموضوع والحصول على خطة محددة من حلف الناتو وهو حلف عسكرى أساسا يعنى أن المسألة ليست فقط ضغوطا سياسية ، ولا رؤى ثقافية بل هى فى صميم عمل العسكرية أى الاحتلال والجيوش ، وهو ما يسقط القناع ويكشف المضمون الحقيقى للموضوع ، إنه تبرير العدوان والاحتلال ونشر النفوذ بالقوة وإجبار حكومات المنطقة على الاعتراف بإسرائيل وتطبيع العلاقات معها وإدماجها قهرا فى المنظومة السياسية والاقتصادية والعسكرية للمنطقة ، وهل هذه النقطة الأخيرة تعصى عكس المطلوب عندما قالت حكومات المنطقة: إنه لا يمكن البدء فى الإصلاح بدون حل مشكلة الصراع العربى الإسرائيلى ، فإذا بأمريكا تطور المشروع ليس باتجاه حل المشكلة ، بل بتكريس وجود إسرائيل وهيمنتها الإقليمية بوضوح .

عناوين المبادرات الصادرة عن القمم الغربية المختلفة حول الموضوع تكشف عن المضمون الحقيقى لها ، وهو الخضوع الكامل للهيمنة الأمريكية ثقافيا واقتصاديا وسياسيا وعسكريا والقبول الكامل بوجود إسرائيل والتعاون معها!! وهو مايرشح مباشرة من عنوان قمة الثمانية الكبار فى ولاية جورجيا بالولايات المتحدة الأمريكية ٦ يونيو ٢٠٠٤ وقد كان "مشروع الشرق الأوسط الموسع وشمال إفريقيا " ثم قمة إيرلندا التى كان عنوان مبادرتها "٢٦ يونيو" هو "دعم مساعى حكومات المنطقة الرامية إلى تحديث بلدانها والمضى قدما فى الإصلاحات السياسية والاقتصادية والاجتماعية وتشجيع حقوق الإنسان" ثم قمة الناتو باسطنبول ٢٨ يونيو تحت عنوان "مبادرة اسطنبول للتعاون" مع بلدان البحر

المتوسط والخليج الغربى ونلاحظ فى هذا الصدد أن مبرر استمرار وتوسيع حلف الناتو بعد سقوط الاتحاد السوفيتى السابق والمنظومة الاشتراكية كان مواجهة الخطر الإسلامى المزعوم ، وقد عبر عن ذلك فى حينها عدد من قادة الحلف العسكريين والقادة السياسيين الغربيين والأمريكيين . وهكذا فنحن فى مرحلة تنفيذ الخطة المعتمدة أصلا وهى حصار العالم الإسلامى ، والقضاء على أى مشروع وحدة إسلامية أو عربية والهيمنة على المنطقة وربما احتلالها عسكريا بدعوى محاربة الإرهاب!! ولعل تصريحات كونداليزا رايس تكشف حقيقة المسألة حين قالت فى ديسمبر ٢٠٠٣ - أى قبل اجتماع حلف الناتو فى اسطنبول ٢٨ يونيو ٢٠٠٤ أو صدور مبادرة اسطبول " إن المطلوب من الناتو أن يشارك فى عملية التغيير فى المنطقة العربية ومراقبته والتأكد من الإصلاحات المتخذة فى هذه البلدان " وبديهى أن المشاركة والمراقبة والتأكد لا تكون عن طريق منظمة عسكرية اللهم إلا إذا كان الهدف النهائى هو الاحتلال العسكرى . ولا يعنينا بالطبع أن نتحدث عن هذه المبادرات في ضرورة قيام تلك الحكومات من تلقاء نفسها بالخطوات المطلوبة أو عن طريق الحوار ، فهو نوع من تقديم قربان الطاعة والقبول بالاحتلال طواعية ، أى تحقيق الهدف بدون جهد ، أو أن يقوم حلف الناتو بفرض ذلك بالقوة إذا لم تنصاع تلك الدول طواعية!! .

فالمحصلة فى النهاية واحدة ، وربما كان الانصياع والقبول بالتدخل الأجنبى والقبول بإسرائيل والتعاون معها والانخراط فى الجهد الأمريكى العسكرى ضد الإرهاب وغيرها طواعية أسوأ من الخضوع لذلك قهرا !! والمهم فى كل الأحوال أن صيغة المبادرات لا تخلو من الإشارة إلى أن من حق الناتو أن يفرض ذلك

بـالقوة!! خاصة وأنه قد توسع شرقا بل ووصل إلى حد الشراكة مع روسيا ذاتها أى أن المستهدف بوضـوح لعمليات الحلف هـو المنطقة العربية خصوصـا والشرق الأوسـط العـربى الإسـلامى عمومـا ، وإلا فمـا الدافـع العسـكرى وراء توسـعه وشـراكته مـع روسـيا ، ولمـاذا يسـتمر الحلـف أصـلا بعـد زوال الخطـر الشـيوعى والسـوفيتى ، مـاذا يعـنى امـتداد حلـف الـناتو من غرب المحيط الأطلسى إلى أقصى شـرق القـارة الأوروبـية وحتى جنوب المتوسط ، وشراكته مع روسيا ووصول عدد أعضـائه إلى ٢٦ عضـوا وهـو مـا لم يحدث أيام الحرب الباردة ، ماذا يعنى أن مسرح عمليات حلـف الـناتو بـاب قريـب جـدا بالمقاييس الجغرافـية البحـتة مـن المنطقة العربية .

عـلى كـل حـال فـإن ما يسمى بمبادرة اسطنبول حول الشرق الأوسط الكبير والـتى تبـناها حلـف الـناتو فـى مؤتمـره الأخير باسطنبول ٢٨ ، ٢٩ يونيو ٢٠٠٤ تكشـف الكـثير مـن الحقائق حول طبيعة هذا الإصلاح والتعاون والدور الحقيقى لحزب الناتو فى هذا الصدد . وقد تضمنت تلك المبادرة:

- إنشـاء قواعـد عسـكرية لحلـف الـناتو بحيـث ترتبط تلك القواعد الجديدة بالقواعد الموجودة "الأمريكية" .
- مـن حـق هـذه القوات التدخل بدون استشارة الحكومات المعنية فى حالة وجود أزمة .
- إنشـاء مكاتـب لجمـع المعلومـات والتحلـيل ، وإنشـاء المكاتـب الفنـية المتخصصـة الـتى تقـدم توصيات فى مجالات الأمن والاقتصاد والإصلاح

الداخلى والتعليم والبيئة ومحو الأمية والحقوق السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، وأن هذه المكاتب الفنية ستنتشر فى الجهات العلمية والجامعات ومراكز الأبحاث والمؤسسات الوطنية المختلفة .

وبديهى أن الترجمة الحقيقية لهذه المقترحات هى الاختراق السياسى والاقتصادى والثقافى والعلمى ، والاحتلال العسكرى أيضا إذا لزم الأمر .

ومن المقترحات أيضا فى مبادرة اسطنبول:

- إقامة علاقات وتعاون بين الدول العربية وإسرائيل ، ويصل الأمر إلى حد إقامة مناورات عسكرية مشتركة بين تلك الدول وإسرائيل ، ومشاركة هذه الدول وإسرائيل مع أمريكا فى عملياتها العسكرية ضد الإرهاب .
- تغيير مناهج التعليم والتثقيف بما يتلائم مع دعم ثقافة السلام وتجفيف منابع الإرهاب .
- التدرج في الإصلاح السياسى وحقوق الإنسان بما يتلائم مع ظروف كل دولة .
- التحكم في تسليح الجيوش العربية بما يحقق التوازن العسكرى مع إسرائيل ، والتفتيش الدورى على أسلحة الدمار الشامل في تلك الدول باستثناء إسرائيل .

وهكذا فإن مبادرات الإصلاح والديمقراطية وحقوق الإنسان وحماية الأقليات . . إلخ التى طالبت بها أمريكا وحلفائها وعملائها طويلا قد تمخضت عن تأجيل هذا الإصلاح والتدرج فيه ، ولكن الإسراع بفرض إسرائيل والتعاون معها على دول المنطقة ، واختراق هذه الدول أو حتى احتلالها إذا لزم الأمر .

* * *

الناخب الأمريكي يختار العدوان

دلالات إعادة انتخاب بوش:

أحمق من لا يفهم الدلالات الحقيقية لإعادة انتخاب الرئيس الأمريكي جورج بـوش الابـن ، وتكون هذه الحماقة جريمة بحق النفس والمجتمع والدين والوطن إذا كـان ذلـك الشـخص عـربى أو مسـلم ؛ لأن الدمـاء العربـية والمسـلمة والحقـوق الضـائعة والانـتهاكات المستمرة الـتى حدثت للعرب والمسلمين في عهد بوش لا تسمح بخداع النفس أو التحالف عن سبق إصرار أو السير وراء الأوهام .

ينبغى في الـبدء أن نقـر بعـض الحقـائق وهـى أن الرئـيس الأمريكي جورج بوش الابـن قـد فـاز بالانـتخابات الرئاسـية ، وإذا كـان الدسـتور الأمـريكي قـد نظم عملية الانـتخابات مـن خـلال مـا يسـمى بأصـوات المجمع الانتخابى ، أى مندوبى الولايات بمعـنى أن لكـل ولايـة عـدد من الأعضاء في ذلك المجمع يصوتون لمن فاز بتلك الولاية بصـرف الـنظر عـن نسبة هذا الفوز فإن الرئيس الأمريكي بوش قد فاز بأصوات المجمع الانـتخابى حيـث حصـد ٢٧٩ صـوتا ، ونـال كـيرى ٢٥٢ صـوتا ، ومـن حيث عدد الأصـوات الشـعبية فـإن بوش فاز بـ ٥٩ مليون صوت ، في حين نال كيرى ٥٥ مليونا ورالـف نـادر بـــ ٣٩٥ ألـف صـوت ، أى أن بوش زاد بحوالى ٣ . ٥ مليون صوت أو مايقدر بـ ٥١% من الأصوات مقابـــل ٤٨% لكيرى و١% لرالف نادر .

وهكـذا فـإن بـوش فـاز بالأصوات الشعبية وبأصوات المجمع الانتخابى معا ، وبالـتالى فـإن الشـعب الأمـريكي اخـتاره بكـل معنى الكلمة - أيا كان السبب - بعكـس المـرة السـابقة عـام ٢٠٠٠ التى كان بوش قد فاز فيها فوزا مشكوكا فيه ،

حيث إنه حصل على أصوات شعبية أقل من آل جور ، كما أن أصوات ولاية فلوريدا وقتها كان مشكوكا فيها . . المهم أن جورج بوش الابن الذي فاز عام ٢٠٠٠ فوزا مشكوكا فيه ولا يستند إلى أغلبية شعبية - والمفروض أن ينتقم منه الناخب الأمريكي في أول فرصة انتخابية - قد أحدث العكس حيث فاز فوزا كاملا ، وهذا يعنى أن سياسات بوش طوال الأربع سنوات - وهى العدوان على العرب والمسلمين - دعم إسرائيل دعما غير مسبوق - مفاهيم الإمبراطورية وغيرها تحظى برضا من أغلبية الشعب الأمريكى وهذا معناه مسؤولية الشعب الأمريكي عن تلك السياسات .

قد يفسر البعض هذا الفوز لأسباب أخرى تتصل مثلا بضعف شخصية المرشح الآخر ، وهذا هو الغباء بعينه فحسب كل الأوساط الأمريكية وغيرها ، فإن بوش موصوف بالغباء وضعف لشخصية لدرجة وصفه بالدمية في يد ديك تشينى وجماعة اليمين المحافظ الجديد . . إلخ . وبالتالى فالحديث عن ضعف شخصية الخصم هى في عكس صالح هذا المنطق ، وقد يقول البعض: إن حملة الديمقراطيين ارتكبت أخطاء فادحة في محاولة الظهور بمظهر القوة والشجاعة في مواجهة الإرهاب أو إظهار قدر من التطرف في السياسة الخارجية لقطع الطريق على بوش ، وأن ذلك صب في عكس مصلحة الديمقراطيين ، وأنه كان من الأفضل لكيرى الوصول إلى أقصى مدى في معارضة سياسات بوش إلخ . وبداية ألا يعنى هذا أن هناك مزاجا شعبيا أمريكيا يمينيا دفع الديمقراطيين وحملتهم الانتخابية إلى محاولة مجاراة بوش ، وهذا يؤكد أن الشعب الأمريكي يؤيد ومسؤول عن سياسات بوش .

وقد يقول البعض: إن شخصا عبقريا هو "كارل روف" مدير الحملة الانتخابية لبوش هو الذي تسبب في نجاح بوش بالتركيز على قضايا معينة . . إلخ . ينسب عدد كبير من المراقبين داخل أمريكا وخارجها الفضل في نجاح بوش إلى ذلك الرجل وهذا بالطبع منطق جزئى ، فأى مدير حملة عبقرى لن يستطيع إنجاح مرشح مرفوض ، وذكاء وقدرات مدير الحملة الانتخابية لا تعمل إلا في وجود مزاج عام يسير في اتجاه معين . وعلى كل حال فإن الجمهوريون فازوا في مجلس الشيوخ أيضا بـ ٥٥ مقعدا وفاز الديمقراطيون بـ ٤٤ مقعدا ، وفاز مستقل بمقعد واحد ، وفى مجلس النواب فاز الجمهوريون بـ ٢٣٢ مقابل ٢٠١ للديمقراطيين ومقعد واحد لمستقل . وفى حكام الولايات فاز الجمهوريون بـ ٢٨ مقعدا مقابل ٢١ للديمقراطيين ، أى أن الأمر يتصل بوجود مزاج يميني عارم في المجتمع الأمريكي ورضا عن سياسات اليمين المحافظ الجديد الذي هو قلب الحزب الجمهورى حاليا وأقوى مؤسساته .

قد يرى البعض أن المسألة لا علاقة لها بشخصية المرشحين إنما هى المؤسسات التى تأتى بمن يكون ملائما لسياساتها ، وقد أرادت بوش لأسباب معينة وهى قادرة دائما على تسيير الانتخابات بطريقة معينة تحقق لها أهدافها سواء في اختيار شخصية الخصم أو في الدعاية والإعلام . . . إلخ ، وهذا صحيح طبعا ، ولكنه بدوره يؤكد أن المؤسسات تريد سياسة عدوانية معادية للعرب والمسلمين ، ومن ثم فإن الحل الصحيح هو المقاومة . سواء كان الأمر يتصل بالمؤسسة أو يتصل بالمفاضلة الحقيقية بين أشخاص ، ونحن ننحاز إلى وجود مؤسسة ، وأنها هى التى تحدد في النهاية السياسات وهذا يعنى أن المفاضلة بين بوش وكيرى هى وهم ،

ولكـن في نفـس الوقـت فـإن شخصـية الرئـيس تحـدد الطريقة التى تدير بها هذه المؤسسـة أو سـوف تديـر بهـا تلـك السياسـات أو الفـرق بـين طـريقة الذئـاب (بوش - شارون) أو الثعالب (كيرى - رابين - أو بيريز) .

عـودة إلى الـدلالات المتصـلة بانتخاب بوش فلا شك أن الرئيس بوش شخص كـذاب ؛ لأنه كذب على الشعب الأمريكي والعالم بخصوص أسلحة الدمار الشامل العراقـية ، ومـع ذلـك اخـتاره الأمريكـيون أى أن تأيـيد سياسات العدوان ومحاربة العـرب والمسـلمين لدى الأمريكيين أعلى من اهتمامهم بصدق الرئيس!! ولا شك أنـه أسـوأ رئـيس أمـريكى مـنذ عشـرات السـنين بخصـوص فـرص العمـل وتدنى الأوضـاع الاقتصـادية ، وسياسـات التأمين الصحى . . إلخ . ومع ذلك ورغم ذلك فـإن الناخـب الأمـريكي قـد اخـتاره ، وهذا يعنى أن جنون العنصرية والعدوان قد استبدت بالأمريكيين أو على الأقل بأغلبيتهم التى اختارت بوش .

ولاشـك أنـه لـولا المـزاج اليمـينى الجـارف أو الرغـبة في العـدوان ومفاهـيم الإمـبراطورية ، سـواء كـان ذلـك عـن إيمـان شعبى أمريكى أو الوسائل الجهنمية للمؤسسـة الحاكمـة في أمـريكا ، فـإن أى شخص كان قادرا على الإطاحة بجورج بـوش ، وبالـتالى فـإن الدلالـة الواضـحة هى أن سياسات الظلم والعدوان وروح الإمـبراطورية والعنصرية ستستمر في أمريكا ، وأن علينا مواجهة أساليب الذئاب ، وأن علينـا ألا نخدع أنفسـنا بضـرورة التحرك السـريع للالـتفاف عـلى بوش أو سياسـاته ، فـلا جدوى مع الذئاب بتلك الأساليب ، ولا سبيل إلا المواجهة ، فإما موت شريف أو نصر بإذن الله .

❊ ❊ ❊

التناقضات الثانوية والتناقض الجوهرى

في الحساب السياسى العلمى ينبغى التفريق بين نوعين من التناقضات ، ومن ثم الصراعات التى تنشأ نتيجة لها ، وهى التناقضات الثانوية والتناقض الجوهرى ؛ لأن معرفة طبيعة التناقض تؤدى إلى اتخاذ الموقف الصحيح من أى موضوع وأى قضية ، ولاشك أن إدراك هذه المسألة ، أو بالأحرى عدم إدراكها إلى الوقوع في أخطاء منهجية وسياسية هائلة سواء على مستوى الحكومات أو الأفراد أو الجماعات السياسية وبالأخص الحركات الإسلامية .

بداية فإن التناقضات الجوهرية هى من النوع الاستراتيجى وتكون عميقة في الزمان والمكان ، ومن الصعب حلها إن لم يكن من المستحيل على الأقل في المستوى المنظور وتحتاج لوقت وجهد ، أما التناقضات الثانوية فذات طبيعة تكتيكية ومحددة بموقف معين وبحسابات خاصة ، وأن هذه التناقضات الثانوية عادة ما تتلاشى عند ظهور التناقض الجوهرى .

ولاشك أن التناقض الجوهرى في عالمنا المعاصر بالنسبة لنا كعرب ومسلمين هو التناقض بين الحضارة الإسلامية بما تمثله من حق وعدل والحضارة الغربية بما تمثله من قهر ونهب وعنصرية ، وأن هذا التناقض يمتد في الزمان والمكان منذ حياة الرسول إلى يومنا هذا . فقد تم الصدام بين النموذجين منذ البداية ، أربعة مواقع في حياة الرسول ﷺ منها معركة مؤتة ، دومة الجندل ، موقعة تبوك ، بعث أسامة

ثـم حـروب الفـتح ضـد الـرومان ، ثـم الحروب الصليبية ، ثم الصراع في المغرب العـربى "حـرب الألـف عـام" ، ثـم صـراع الدولـة العثمانـية ضـد أوروبـا ، ثـم الاستعمار فالصهيونية ، فالاحتلال الأمريكي لأفغانستان والعراق . . إلخ .

لم يـتوقف هـذا التناقض الجوهرى ، وليس مقدرا لـه أن يتوقف ، ولكن يمكن ظهـور تـناقض ثانوى يزيح هذا التناقض الجوهرى قليلا مثل الحرب الباردة ، وما أن تنتهى هذه الحرب الباردة حتى يعود التناقض الجوهرى ليأخذ صدر المسرح .

الـذي يعنيـنا هنا ليس ما سبق ، بل الحديث عن وجود تناقضات ثانوية داخل معسـكر الأعـداء ولكـن هـذه التناقضـات تتلاشـى مباشـرة إذا مـا أطل التناقض الرئيسـى برأسـه ، وهـذا لا يمـنع بالطـبع دراسـة التناقضـات الـثانوية في معسـكر الأعـداء وتفصـيلها والاسـتفادة مـنها ، ولكـن شريطة إدراك أن مجرد اللعب على هـذه التناقضـات لـن يعـيد إليـنا حقوقنا ، بل فقط سيكون أن العوامل المساعدة ، وشريطة إن نظل واعين بأنها تناقضات ثانوية .

مـن التناقضـات الـثانوية في معسـكر الأعـداء تاريخيا - ولنقصـر بحثـنا على الـتاريخ المعاصر ، الصراع مثلا بين انجلترا وفرنسا إبان المرحلة الاستعمارية ، وقد كانـت كـل من فرنسا وانجلترا تتنافسان على النفوذ في مصر في القرن التاسع عشر وبدايـة القـرن العشـرين ، ووصـل التـنافس بينهما إلى درجة كبيرة ، ولكن عندما اندلعـت الثورة العرابية في مصر فضلت فرنسا التضحية بالكعكة لصالح انجلترا في مقـابل أن تقـوم انجلـترا بذبح الثورة العرابية عام ١٨٨٢ ، وقد قام وزير الخارجية الفرنسـية بنفسـه بتهنـئة الإنجلـيز عـندما انتصـروا عـلى العرابـيين في موقعـة التل الكـبير ، وقال وزير الخارجية الفرنسية وقتها: إنه يفضل النفوذ الإنجليزى في مصر

على نجاح ثورة إسلامية يمكن أن تكون خطر على المشروع الاستعمارى الغربى بكامله" .

وتكرر نفس الأمر عندما اعتمدت الحركة الوطنية المصرية "مصطفى كامل" على الدعم الثقافى والسياسى الفرنسى ضد الاحتلال الإنجليزى لمصر ، ولكن سرعان ما ضربت فرنسا تلك الحركة الوطنية المصرية بتوقيع الاتفاق الودى مع انجلترا عام ١٩٠٤ والذي تم فيه تبادل المصالح بين الطرفين على حساب المستعمرات طبعا .

نفس الأمر تكرر دائما ، مع الاتحاد السوفيتى السابق إبان صراعه مع الولايات المتحدة ، وتم اتفاق الطرفين على حساب مصر والعرب ، ومرة أخرى في حرب الخليج الثانية التى عارضتها فرنسا في البداية ثم عادت فشاركت فيها .

وفى العدوان الأخير على العراق عارضت فرنسا وألمانيا ، ولكن من أجل المشاركة في الوليمة وخوفا من احتكار أمريكا لمنابع البترول ، ولكن حينما تأخر النصر الأمريكي قليلا في بداية الحرب أبدى الرئيس الفرنسى انزعاجه من إمكانية انتصار البربرية ، وبعد اندلاع المقاومة العراقية بعد شهرين من الاحتلال ثم تعاظمها بعد ذلك خشت ألمانيا وفرنسا أن تتحول تلك المقاومة إلى رافعة وصحوة للعرب والمسلمين ، فتم التوافق على قرار في مجلس الأمن لتسمية الاحتلال الأمريكي باسم قوات متعددة الجنسيات ، وأكثر من هذا فإن التحرك الأمريكي ضد سوريا ولبنان في مجلس الأمن تحت اسم القرار ١٥٥٩ قد حظى برضا الفرنسيين بالكامل وهو قرار يتحدث عن حل المقاومة ، وبالتالى إطلاق يد إسرائيل في المنطقة ، والأمر ذاته يحدث من أوروبا كلها وفرنسا بضمنها في

موضوع السودان "دارفور" وموضوع الملف النووى الإيرانى .

ولا ننسى في هذا الصدد أن الاتحاد الأوروبى كان قد اتخذ قرارا باعتبار حماس منظمة إرهابية ، وأن رئيس الوزراء الفرنسى "جوسبان" كان قد اعتبر حزب الله في لبنان حزبا إرهابيا ، وهو الأمر الذي قرره مؤخرا وزير الداخلية الألمانى الذي اعتبر أن من حق إسرائيل إقامة الجدار العازل ، وبديهى أن وزير الداخية الألمانى "أتوشيلى" يعبر عن موقف حكومته ، وقد صدر بيان من الخارجية الألمانية يؤيد ما قاله وزير الداخلية . وهكذا فالتناقضات الثانوية بين فرنسا وأمريكا أو ألمانيا وأمريكا لن تصل إلى حد تبنى الحقوق العربية ، بل فقط دور مريب أو محدود . وفى النهاية ومرة أخرى فلا مانع من الاستفادة من أى تناقض ثانوى شريطة إدراك أنه ثانوى ، وأن الطريق إلى الحقوق لن يكون إلا بقوانا الذاتية .

على أن المسألة الأكثر توضيحا للفرق بين التناقضات الثانوية والتناقض الجوهرى هو موضوع إسرائيل ، التى اعترف بها كل أمريكا والاتحاد السوفيتى السابق ودول أوروبا وغيرها بعد قيامها بعدة ساعات ، والتى تلقت دعما دائما من انجلترا ثم فرنسا "الميراج الفرنسى وإنشاء المفاعل الإسرائيلى في ديمونة بدعم فرنسى علمي ومالي" وكذلك ألمانيا "التعويضات الهائلة لليهود التى أخذتها إسرائيل ثم أمريكا الآن ، ولعل هذ الموضوع الإسرائيلى أو الفلسطينى يكشف حقيقة التناقضات وطبيعة المسألة في جوهرها وفيما هو رئيسى وثانوى .

* * *

التحالف الشمالى في مصر

التحالف الشمالى . . أصبح مصطلحا مشبوها ، يشير على قوى معينة تتحالف مع أعداء الوطن لتمكين هؤلاء الأعداء من احتلال هذا الركن ، وكان الدكتور محمد عباس هو أول من استخدم هذا المصطلح بهذا المعنى ، وقد أطلق هذا الاسم على مجموعة من القوى في أفغانستان قامت بالتعاون مع القوات الأمريكية الغازية عام ٢٠٠٢ ، ومارست قدرا هائلا من الانحطاط الأخلاقى والممارسات الوحشية بالتعاون مع القوات الغازية . هذا التحالف الشمالى إن لم يكن عميلا بالسليقة ، ومستعد من أجل المال أو السلطة أن يفعل أى شيء ، فهو على الأقل قد قدم ما هو تكتيكى على ما هو استراتيجى ، وفضل أن يقوم الأجانب باحتلال الوطن للإطاحة بخصومه في السلطة "حركة طالبان" ، وهذا بالطبع عمى استراتيجى وخيانة دينية ووطنية أيا كان الباعث عليها .

التحالف الشمالى أيضا ظهر في العراق إبان الغزو الأمريكى البريطانى للعراق عام ٢٠٠٣ ، وكان يتكون من عملاء مباشرين للأمريكان والإنجليز ومعادين للمشروع الوطنى ، وأيضا كان يضم قوى سياسية وطائفية من المفروض أن تعادى النفوذ الأجنبى ، ولكنها أيضا فضلت التعاون مع الأجانب للإطاحة بخصومهم في السلطة ، وأيا كان الرأي في تلك السلطة ، ومهما كانت الجرائم التى اقترفتها ، فهذا نوع من العمى الاستراتيجى والخيانة الدينية والوطنية ، خاصة أن هؤلاء وغيرهم للأسف استمروا في التعاون مع قوات الاحتلال بعد انكشاف زيف دعاويها وكذب ادعاءاتها ، وبعد ممارساتها القمعية التى وصلت إلى حد

المذبحة في أحيان كثيرة في النجف وسامراء والفلوجة وما أدراك ما الفلوجة وبغداد ومدينة الصدر وكل مكان تقريبا بالعراق!!

هذا التحالف الشمالى يمكن أن نرصده أيضا في السودان ، ولا يهمنا بالطبع أن يكون شماليا بالنظر إلى الاتجاهات الجغرافية ، ولكن هو مصطلح يشير إلى حالة . متمثلا في المتمردين في دارفور ، وأيا كانت الدوافع والأسباب فهؤلاء عبروا عن رغبة معلنة في التدخل الأمريكي ، بل وفعلوا كل شيء لمنع حل المشكلة أو الوصول إلى اتفاق مع الحكومة السودانية من أجل تهيئة المسرح إلى التدخل الأجنبى ، ولا يهم الوطن ولا الدين المهم الإطاحة بالخصوم في السلطة ، وهذا وما قبله لا يعنى أننا نؤيد تلك السلطة أو نرى أنها بلا أخطاء .

ولكن فقط نتذكر قول أحد الأندلسيين الذي عبر عن المسألة كلها بقوله: إنه يفضل أن يكون راعى غنم عند عربى مسلم عن أن يكون راعى خنازير لدى الصليبيين!!

في لبنان نفس المسألة ، التحالف الشمالى يتكون من القوى الانعزالية التى ذهبت إلى الكونجرس للتحريض على التدخل الأمريكي ضد لبنان وسوريا ، وأيا كان الرأي أيضا في السلطة اللبنانية أو السورية فإن المسألة تحمل نفس المضامين ، مع الأخذ في الاعتبار في الحالة اللبنانية أن القوى الانعزالية معظمها مارونى ، ولكن من المفروض أن نصارى الشرق عموما والعرب خصوصا ينحازون إلى المشروع الوطني الإسلامى الذي يمثل هنا ليس دينهم ولكن حضارتهم وثقافتهم ، وهذا أمر لم نخترعه نحن بل قال به الكثير من نصارى العرب الموضوعيون من رجال دين وفكر وسياسة وفنانين . . إلخ .

في كـل مكـان تقريـبا سنجد هذا التحالف الشمالى الذي يحرض ضد الوطن ، ومسـتعد للـتعاون مـع الأجنـبى عـلى حساب الوطن والدين والثقافى والحضارة لأسباب تتصل بحب المال أو السلطة أو تتصل بالغباء والعمل الاستراتيجى أو أى أسباب أخرى . وبديهى أن الغازى الأجنبى سيجد تحالفا شماليا في كل مكان فإن لم يجده أوجده بنفسه ، واصطنع لـه رموزا .

في حالـة مصـر فـإن المسـألة أكـثر تركيـبا ، فالسـلطة المصرية أولا غير معادية للأمـريكان ، ولكـنها لـن تقـبل الغزو الأمريكي مثلا ولا هذا التدخل الذي يضر سـلطتها ، والمعارضـة المصـرية - في عمومهـا - ارتـبط تاريخها وخطابها السياسى بـالعداء للأمـريكان ونهـج الـتعاون معهـم عموما ؛ ولذا فمن الصعب أن تتحول تلـك المعارضـة إلى تحـالف شمـالى فجـأة والمعارضـة المصـرية تنقسـم إلى نوعـين المعارضـة الإسـلامية وخاصـة "الإخـوان المسـلمين" وهـؤلاء بداهة بحكم التجربة والوجـدان الشـعبى لا تستطيع أن تتحول إلى تحالف شمالى فجأة ، وهى لن تصل إلى هـذه الدرجـة وإلا فقـدت شـعبيتها وماتت بالسكتة القلبية ؛ لأنها هنا لا تعبر عـن طائفة أو عرق كما هى الحال في التحالف الشمالى في البلاد السابقة ، وبالتالى فـلا يمكـن أن تسـتمر إذا فقـدت مصـداقيتها الاستراتيجية . وهكذا فإنها يمكن أن ترسـل إشارات إلى الأمريكان تحمل تطمينات ، ولكنها لن تصل إلى درجة التعاون عـلى حساب الوطن والاستقلال وقضايا المصير مثل فلسطين وغيرها . والمعارضة غـير الإسـلامية ضعيفة وهى جزء من النظام في النهاية وهى غير قادرة على قلب خطابها السياسى فجأة ولا على تحمل تبعات هذا السلوك!!

وهكـذا لن يبقى لأمريكا من تحالف شمالى في مصر إلا بعض الاستثناءات أو

المراكز المدنية الممولة من الجهات المانحة أو بعض المتطرفين من الأقلية الأرثوذكسية؛ وهكذا فإن أمريكا تحاول جاهدة أن تصطنع تحالفا شماليا من هؤلاء . ولكن المسألة لها تعقداتها الكبيرة ، فإذا كان شخصا مثل فرج فودة الذي تم اغتياله كان جريئا لدرجة الدعوة إلى التدخل الأمريكي ، فإنه كان يعبر عن نفسه فقط وقطاع صغير ومحدود وبلا قيمة ، أما المتطرفون من الأقلية الأرثوذكسية الذين يطلق عليهم أقباط المهجر فهؤلاء أيضا دعوا دائما إلى التدخل الأجنبى في مصر ، بل ودعوا إلى إقامة دولة أرثوذكسية في جنوب مصر ووصل الحال بهم إلى التعاون مع منظمات صهيونية وأمريكية أصولية يمينية ، بل كلهم مجرد أداة في يد هؤلاء ، وهؤلاء مرفوضون من القاعدة الشعبية للأقليات ذاتها في مصر "يبلغ عدد النصارى في مصر حوالى ٦,٥ % معظمهم من الأرثوذكسى" ، بل والكنيسة المرقسية المصرية "الأرثوذكسية" عبرت مرارا وتكرارا عن رفضها لهؤلاء ، ولكن الغريب أنها لم تصدر لهم قرار حرمان كان كفيلا بالقضاء عليهم في المهد ، ويبدو أن قيادة الكنيسة المصرية تريد أن تلعب لعبة التوازن مع هؤلاء ومع السلطة ومع المجتمع المصرى وهى لعبة خطرة بالطبع ، ولكن القطاع الأرثوذكسى الأكبر ـ رغم موقف الكنيسة المصرية - يعتبر نفسه جزء من الثقافة والحضارة العربية الإسلامية ، وهناك الكثير من الرموز والأفراد والقوى المنتمية للأقلية تعكس هذ الموقف أمثال جمال أسعد الذي ترشح ذات يوم لمجلس الشعب المصرى على قوائم التحالف الإسلامى عام ١٩٨٧ ، ولا يزال الرجل يعبر عن هذا الموقف ، وكذ الأستاذ الدكتور رفيق حبيب وهو ابن قس كبير راحل . وهؤلاء امتداد للمقولة الشهيرة للسياسى المصرى مكرم عبيد الذي قال: أنا مسيحى دينا مسلم وطنا ؛

وفـى الحقيقة فإن هؤلاء هم التعبير الأصدق عن تراث الأرثوذكسية في مصر التى تعرضـت للاضطهاد دائما على يد الرومان والذي يعد أهم رموزها هم من قتلهم هـؤلاء الـرومان قـبل الإسـلام ، وأن الـذي حررهم من الاضطهاد الرومانى كان دخـول الإسـلام مصـر ، والمهـم أنـه تكون تراث الاستقلال عن الأجنبى في تلك الكنيسـة ، ومـن ثم الانخراط في المشروع العربى الإسلامى ، وهو موقف تكرر في الحـروب الصـليبية ثـم مـرحلة الاستعمار الأوروبى بدءا من الحملة الفرنسية عام ١٧٩٨ ، وحـتى رحـيل الاسـتعمار الإنجلـيزى عن مصر عام ١٩٥٤ حيث كانت القـوى الاسـتعمارية أو الصليبيين تضطهد الأرثوذكس المصريين وقتلهم أو تحاول التبشـير بيـنهم للدخـول في المذاهـب النصـرانية الغربية وترك مذهبهم الأصلى مما دفـع قطـاع كـبير منهم للانخراط في الحركة الوطنية المصرية التى كانت إسلامية في جوهرها بالطبع .

ملاحظات حول مشكلة دارفور :

كشـف الصراع في دارفور - غربى السودان - والتى تشكل ٢٠% من مساحة السـودان عمومـا ، أى مـايوازى مسـاحة بلد مثل فرنسا ، والتى يبلغ عدد سكانها حـوالى ٦ ملـيون نسـمة ، كشـف هـذا الصـراع عـن كثير من الحقائق والأكاذيب والممارسات الدولية والإقليمية والمحلية .

وممـا لاشـك فيه أن هناك مشكلة في إقليم دارفور ليس بين العرب والأفارقة ، كمـا زعمـت المـيديا الإعلامـية الغربـية ، فالاختلاط بين قبائل دارفور كبير جدا ، بحيـث لا يمكـن التمـيز مباشرة بين ما هو إفريقى وما هو عربى ، بل إن جميع هذه القـبائل مسـلمة تتمسـك بالإسـلام ، وتعايشت مع بعضها البعض لمئات السنين ،

وأن ما يحدث في دارفور هو جزء مما يحدث في السودان عموما ، حيث غابت التنمية والتطور طويلا بسبب تعاقب حكومات عسكرية ، ثم ديمقراطية ، ثم عسكرية وهكذا على حكم الخرطوم ، وبسبب المساحة الكبيرة للسودان وعدم إمكانية بسط السيطرة الكاملة على جميع أرجاء هذا البلد المترامى الأطراف . . وبالتالى نشأت المشاكل وتراكمت ، وإذا كانت المشكلة في دارفور تتمثل في الصراع على الموارد بين الرعاة والمزارعين وخاصة عندما تقل الأمطار ، أو بسبب ظهور عصابات للنهب والسرقة ، فهذا يحدث في معظم أنحاء السودان ، بل إفريقيا ، وهذا لا يبرر استمرار المشكلة وعدم تصدى الحكومة لحلها ، ولكن يجب عدم إخراج المسألة عن إطارها الحقيقى .

دأبت الميديا الغربية ، بل وتورطت منظمات حكومية وجماعات مدنية غربية في المبالغة فيما يحدث في السودان عموما ودارفور خصوصا ، ووصل الأمر إلى حد اختراع قضايا وأحداث غير حقيقية حول الزعم بما يسمى الإبادة الجماعية ، و التطهير العرقى أو اغتصاب النساء . . إلخ . وكان هناك أجندة مصنوعة سلفا تستهدف إثارة نعرات وقضايا حقيقية بهدف الضغط على حكومة السودان ، و استهداف التدخل الأجنبى فيه أو تفكيكه أو صوملته . ولا شك أن استجلاء الحقيقة بهذا الصدد ضرورة أخلاقية واستراتيجية معا ، ويمكننا هنا أن نرصد شهادات لمنظمات لم تتورط في العمل وفق أجندة مسبقة مثل منظمة أطباء بلا حدود الفرنسية يقول إنه "تيرى الأغور دوفارجييه" رئيس إدارة الطوارئ بتلك المنظمة: "إنه بعد دراسة الأوضاع في دارفور وتحليلها فإن المنظمة تعارض استخدام تعبير إبادة جماعية على ما يحدث في دارفور ، وتعتبر ما يجرى هو مأساة

إنسانية" ، معتبرا أنه أصبح من الأمور المعتادة استخدام تعبيرات ليست في محلها في إطـار حملات دعائية ، وأن ذلك سيلحق الضرر بعمليات الإغاثة ، في نفس الإطار جـاءت شـهادة أعضاء لجنة الإغاثة الإنسانية التابعة لنقابة الأطباء في مصر ، والتى زارت دارفـور وقضـت هناك عدة أسابيع وعرفت الحقائق كما هى على الأرض ، يقـول الدكتور منصور حسن رئيس البعثة: "إن ما يقال عن وجود أوبئة واغتصاب غـير صـحيح لم نسـمع به أو نشاهده طوال فترة تواجدنا والأمر لا يزيد عن كونه إشاعات" ويضيف الدكتور منصور حسن: "إن بعض الجهات الغربية تقوم بتصوير المقابـر العاديـة ويقومـون بـإعداد تقارير ورسائل ملفقة على أن هناك عملية إبادة جماعية تستدعى التدخل العاجل" .

ويقـول الدكـتور طارق بلتاجى عضو البعثة: "إن ما يحدث في دارفور لا يعدو مجـرد كونـه خلافـات بـين الأهـالى مـن الرعاة والمزارعين بسبب قلة مياه الأمطار وبالـتالى قلـة المـراعى" . وقـد شهد أعضاء البعثة المصرية تمنع النازحين من العودة لمـناطقهم ، فعـندما طلبـت الحكومـة مـن النازحين العودة إلى قراهم وجهزت لهم سـيارات للـنقل وسـبقتهم قـوات الشرطة للتأمين فرح الأهالى بذلك إلا أن لجان الإغاثة هددتهم في حالة العودة بمنع الإعانات الغذائية والطبية .

نحـن إذن أمام أكاذيب وإشاعات وتلفيقات ، ونحن أمام تورط منظمات أهلية غربـية في العمـل ضمن تلك الخطة المريبة ، وهذا للأسف مصداقية تلك المنظمات الأهلـية الحقوقـية أو الإغاثـة ، ليس هذا مؤشر على أنه يراد بالسودان شيئا ما إنه التفكيك والصوملة ومد النفوذ الأمريكي والغربى .

إن تسلسـل الأحـداث يذكـرنا بالسيناريو العراقى ، بل المسـألة أكثر خطورة ؛

لأن معارضة بعض الدول الأوروبية وبعض الدول الأخرى في حالة العراق غير موجودة في حالة السودان ، وكذلك فإن قرار الكونجرس الأمريكي بإدانة السودان وإعطاء الضوء الأخضر للإدارة الأمريكية باتخاذ ما تراه مناسبا "عقوبات أو تدخل عسكرى" تم بإجماع أعضاء الحزبين الجمهورى والديمقراطى على حد سواء ، وهو أمر لا يتكرر كثيرا في الولايات المتحدة الأمريكية ، وكذلك عندما اتفقت الحكومة السودانية مع كوفى عنان الأمين العام للأمم المتحدة على إجراءات معينة تتم في ثلاثة أشهر ، استبقت الحكومة الأمريكية ذلك بقرار من مجلس الأمن استنادا إلى الفصل السابع أى المتوقع عقوبات أو تدخل عسكرى ، والعجيب أن الجزائر الدولة العربية الوحيدة في مجلس الأمن وافقت على القرار ، وامتنعت الصين وباكستان عن التصويت ، والقرار يتضح برغبة إفشال الحكومة السودانية .

فمدة الشهر الممنوحة للسودان يمكن تجديدها ، أى يمكن تجديد الموعد الملائم للتحرك الأمريكي بعد شهر أو اثنان أو خمسة أو عشرة ، وبديهى أن أى حكومة لا تستطيع أن تقضى على عصابات أو مشاكل في بلاد تضاريسها صعبة ، ويمكن افتعال أى مشكلة في أى وقت عن طريق دفع الأموال أو شراء الذمم من الطرفين معا ، القبائل الإفريقية أو حتى العربية ، وبديهى أن هناك أفراد مستعدون للعمل مقابل المال دون أى تحفظ ، وهكذا فنحن أمام سيناريو حقيقى وإعداد مسرح للتدخل بعد شهور أو بعد أعوام حسب الظروف ، والمتوقع طبعا فرض عقوبات مثل حظر بحرى وجوى وحصار اقتصادى كلى أو جزئى .

إن هناك استنتاج في الشارع السودانى ، وفى الحكومة السودانية وأوسط

عربية حكومية وشعبية يقول: إن المسرح يتم إعداده لاحتلال السودان وتفكيكه عاجلا أم آجلا . . وهناك حديث عن ضرورة تكرار سيناريو المقاومة العراقية في السودان وتستعد قوى وأحزاب وجماعات لهذا الأمر الذي يرونه حتميا .

وأن المخطط في غرب السودان هو مخطط شامل لتفكيك السودان ، ويرى وزير الخارجية السودانية مصطفى عثمان إسماعيل أن هناك محاولات لفتح جبهة جديدة للقتال بشرق السودان وتكرار سيناريو دارفور هناك .

إن تزامن تصاعد مشكلة دارفور ارتبط بالمفاوضات التى أجرتها الحكومة السودانية مع حركة تحرير جنوب السودان ، ومن هنا يمكن أن نلمس الدعم والتشجيع اللذين حظيت بهم أطراف التمرد في دارفور من جون جارانج والجنوبيين ، وخاصة حركة جيش تحرير دارفور ، وذلك من أجل إضعاف الحكومة ، السودانية في المفاوضات مع الجنوبيين وانتزاع هؤلاء أكبر قدر من التنازلات من الحكومة تحت ضغط العامل الدولى من ناحية وأحداث دارفور من ناحية أخرى ، وكذلك ظهور عامل آخر هو خلافات الترابى - البشير ، فبعد خروج الترابى من السلطة عمل على إضعاف الحكومة بدوره ولىّ ذراعها بهدف إسقاطها بأى ثمن ، ووصل إلى اتفاق مع جون جارانج اعترف له فيه بالشرعية ، وأسقط التهم التاريخية التى لصقت به وبحركته من العمالة لإسرائيل وللكنائس الغربية ، وقد كان هذا الاتفاق - من وجهة نظرى - أحد أهم العوامل التى دفعت الحكومة إلى الهرولة للتفاوض مع جون جارانج حتى لا تتحالف عليها كل القوى بما فيها حزب المؤتمر الشعبى "الترابى" فتتسبب في سقوطها ، وكان الرابح طبعا هو جون جارانج ، وقد كرر الترابى نفسه الأمر ، حيث قامت عناصر تابعة

لــه في دارفـور بتشـكيل مـا يسـمى بحـركة "العـدل والمسـاواة" التى يقودها خليل إبراهـيم وكان خليل ابراهيم نفسه أحد وزراء حكومة الإنقاذ أثناء فترة الترابى في الحكـم حـتى عام ١٩٩٩ ، وبالطبع فإن الخطاب الإسلامى لخليل أحمد قد تغيرت لهجته بعد ذلك من أجل الحصول على الدعم الدولى .

إن المفاوضـات الـتى أجرتها الحكومة السودانية مع حركات التمرد في دارفور كانـت تفشـل في كـل مـرة بسـبب تعنـت حركـتى الـتمرد - حـركة جيش تحرير دارفـور ، وحـركة العدل والمساواة - وذلك باعتراف كل من قام بدور الوسيط في ذلك ، وكانت مطالب ممثلى التمرد عالية جدا لا يمكن لأى دولـة في العالم قبولها ، أى أن الهـدف كـان الإفشـال عن سبق إصرار ، وهذا يكشف أن هناك قوى دولية وإقليمـية وراء ذلـك عـلى أسـاس أن الهـدف لـيس حـل مشـكلة دارفـور بـل اسـتخدامها في تدويـل الموضـوع السـودانى ، واسـتغلالها كثغرة ينفذ منها التدخل الأمـريكي والـبريطانى والغـربى أولا - وقبل كل شىء - أو على الأقل استمرار خلـق المشـاكل لحكومة السودان لتنصاع إلى ما تطلبه منها القوى الدولية ، وكذلك للضـغط على مصر بتخويفها من مسألة تفكيك السودان الذي يضر مصر أكثر من السـودان ، وهى أمور تتعلق بالمعادلات الدولية ومعادلات الصراع في فلسطين بل والعراق كذلك والمنطقة عموما .

هـناك حديـث بالطـبع عـن ثـروات بترولية في دارفور ، ويورانيوم ، وكذا عن المحـيط الجغـرافى لدارفور من الدول الإفريقية ، ووجود البترول واليورانيوم فيها ، وهـذا بالطـبع مـبرر كبير للتدخل الدولى والأمريكى ولكن استثمار هذه الثروات كان يمكن عن طريق حكومة السودان الحالية التى فعلت كل شىء لإرضاء أمريكا

والغرب بدءا من تسليم كارلوس إلى فرنسا إلى تسليم وثائق ضخمة تتعلق بابن لادن والقاعدة إلى السلطات الأمريكية ، وهناك حديث عن الصراع على النفوذ في المنطقة بين فرنسا وأمريكا وكل هذا صحيح ، ولكن التفسير الأشمل هو أن الولايات المتحدة تسعى لبسط نفوذها الإمبراطورى حول العالم من ناحية ، وأن التحالف الصهيوني الأمريكي يريد صياغة المنطقة بطريقة معينة تقتضى إضعاف مصر ، وما يحدث من محاولات تفكيك السودان أو مد النفوذ الأمريكي إلى هناك موجه لإضعاف مصر أساسا . وفى هذا الإطار يتحدث البعض عن وجود خطة أمريكية إسرائيلية مفصلة للإطاحة بحكومة الخرطوم واحتلال السودان ، وإنشاء خط أنابيب من العراق إلى الخليج إلى البحر الأحمر إلى السودان ودارفور إلى الأطلنطى ، وهذا يحقق وصول البترول الخليجى والسودانى والإفريقى إلى أوروبا وأمريكا ، ويقضى عمليا على قناة السويس ، لإضعاف مصر وكذلك يتحدث البعض عن أن ضباط اتصال أمريكان وإسرائيليين قد لعبوا دورا كبيرا في تحقيق تعاون بين متمردى الجنوب ومتمردى دارفور ، وأن السلاح الأمريكي تدفق إلى متمردى دارفور عن طريق متمردى الجنوب وأن بعض عمليات متمردى دارفور ضد الجيش السودانى ساهم فيها إسرائيليون وأمريكيون مباشرة .

❊ ❊ ❊

هل يصل قطار العدوان الأمريكي إلى مصر عبر السودان

ما يجرى في دارفور ، وما يجرى حولها من ممارسات أمريكية ودولية وإقليمية ليس إلا الجزء الطافى من جبل الجليد ، ذلك أن المسألة السودانية كانت ولا تزال إحدى نقاط التماس الهامة والخطيرة في الصراع على المنطقة ومع المنطقة عموما ، ومصر خصوصا ، وهكذا يجب ألا تنسينا سخونة الأحداث في دارفور المعطيات الأخرى الاستراتيجية حول الصراع في السودان وعلى السودان وفى المنطقة عموما ، ومن هذه المعطيات:

أننا الآن بالفعل بصدد حملة صليبية تستهدف الحضارة الإسلامية ، وإذا كانت الحملات الصليبية الأولى كانت بدءا من ١٠٩٥ واستمرت قرنين ، وكانت هناك محطة أخرى بدأت عام ١٧٩٨ بالغزو الفرنسى لمصر وغطت رحلة الاستعمار ، فإننا إزاء الحملة الثالثة الكبرى باحتلال فلسطين ١٩٤٨ ، ثم العراق ، وهى الحملة الأخطر ؛ لأنها تأتى في وقت انهيار المعسكر السوفيتى ، وانفراد أمريكا بالهيمنة على العالم وامتلاكها لأسلحة فتاكة وتصاعد موجة المد الصليبى والصهيونى واليمين الأمريكي وروح الإمبراطورية والتوسع ، ولكن في مقابلها هناك المقاومة الإسلامية الشعبية والاستشهادية .

- إن السودان هو مفتاح إفريقيا وهو الرابط بين الشمال العربى المسلم وإفريقيا ، وبالتالى فإن القضاء على السودان هو نوع من التمهيد

لتنصير إفريقيا والسيطرة عليها والمزيد من نهبها وعزلها من الشمال العربى المسلم ومن ثم الانفراد بها ، وهكذا لم يكن من الغريب ولا العجيب أن تتعرض السودان لمحاولات مستمرة من المؤامرات الإنجليزية ثم الإسرائيلية الأمريكية .

- إن السودان هو المجال الحيوى لمصر ، والسيطرة الأمريكية أو الغربية على السودان أو تفكيكها هو بمثابة خنجر في خصر مصر ، وتحكم في مواردها المائية ، أى أنه من الناحية الحياتية والأمنية والاستراتيجية ، فإن المؤامرة على السودان تستهدف مصر قبل السودان ، وتستهدف الأمة العربية والإسلامية ، وتستهدف انفراد إسرائيل بالقوة في المنطقة بعد إضعاف مصر والعرب ، وتستهدف الإسلام والمسلمين ، ويعترف جون جارانج قائد التمرد في الجنوب بذلك قائلا: "السودان هو بوابة الإسلام والعروبة إلى إفريقيا فلتكن مهمتنا الاحتفاظ بمفتاح هذا الباب حتى لا تقوم للإسلام والعروبة قائمة في جنوب الصحراء الكبرى .

- إن الاتفاقات التى وقعتها حكومة الخرطوم مع جون جارانج لا تعنى بأى حال من الأحوال أن تغفل الدور الإسرائيلى مع جارانج ولا الدور الكنسى والغربى والأمريكى - وأن هذا الدور إذا توقف في الجنوب - مثلا وهو لن يتوقف - فإنه سيجد طريقة إلى الشرق والغرب في السودان .

- إنه إذا كانت المسألة في دارفور هى الأكثر سخونة الآن ، فإن هذا لا يعنى أنها آخر المشاكل أو المشكلة الوحيدة ، فهناك تمرد في الشرق منذ حوالى عشر سنوات . إن مشاكل السودان الذي تبلغ مساحته مساحة ما يعادل ثمانى دول

أوروبية هى "السويد والنرويج والدنمارك وبريطانيا وإيطاليا وأسبانيا وفرنسا والبرتغال - الدول الأوروبية كلها ١٣ دولة" تبلغ مساحة السودان مليون ميل مربع ، وتجاور السودان من الجنوب كل من أوغندا وزائير وكينيا ، ومن الشرق إثيوبيا وإرتيريا ، وغربا تشاد وإفريقيا الوسطى ، وشمالا مصر وليبيا ، وهكذا فإن السودان يمثل تجربة لتعايش عرقى ودينى متميز ، ينبغى أن يضرب من الغرب وينبغى أن يستغله الأمريكيون لمد نفوذهم في المنطقة عن طريق تحريك المشاكل .

- إنه وإن كانت السودان بأعراقه ومساحته يشكل معضلة لأى حكومة ، فإن ذلك لا يبرر خطأ الحكومة السودانية وخطأ حزب المؤتمر الشعبى والمؤتمر الحاكم ، بل وخطأ مصر والعرب والمسلمين في حق السودان ، الذي تم إهماله طويلا من العرب والمسلمين رغم أنه بوابتهم ، ومن مصر التى تركت السودان ينفصل عام ١٩٥٦ ، وبذلك ألقته في فم السبع وتركته يصارع وحده ، ثم أهملت مساعدته وتقويته رغم أنه مجال مصر الحيوى ومصدر حياتها المائى وعمقها الاستراتيجى ، أما حكومة السودان فقد هرولت إلى إرضاء أمريكا فاكتشفت في النهاية أن أمريكا لن ترضى أبدا حتى تتبع حكومة الخرطوم الملة الأمريكية شكلا ومضمونا ثقافة وحضارة وسياسة ﴿ **ولن ترضى عنك اليهود والنصارى حتى تتبع ملتهم** ﴾ . أما حزب المؤتمر الشعبى بقيادة الترابى فإنه في السلطة تحرش بمصر ، وأيا كان الرأي في الحكومة المصرية فإن تحسين العلاقات معها واجب دينى وقومى ووطنى ، ثم مارس قدرا هائلا من تورم الذات وضيق الأفق انتهى به إلى القطيعة مع الحكومة السودانية وخروجه منها ،

ثـم إنـه ضـرب الحكومـة في ظهـرها بالـتحالف مـع جـون جـارانج وتوقـيع اتفـاق معـه بعـد خـروجه مـن الحكومـة ، وبذلـك أعطـى مشـروعية لجـارانج وجماعـته ، وإذا كانـت أى حكومـة لهـا حسـاباتها في المفاوضـات باعتـبارها مسـؤولة عـن شـعب ودولـة ، فـإن ذلـك لايلـزم أى حـركة شـعبية ولا زعـيم شـعبى مـثل الدكـتور الترابـى ، وبالـتالى فـإن خطـأ الترابـى هـنا خطـأ مـبدئى وأخلاقـى وديـنى ، وهكـذا كـان لممارسـات الترابـى وذاتيـته المفـرطة ، ثـم هـزيلة الحكومـة السـودانية إلى إرضـاء أمـريكا لقـع الطـريق عـلى الترابـى وغـيره ، بـدلا مـن إعـلان المقاومـة والجهـاد والمواجهـة حكمهـا أسـباب أدت إلى تصـاعد المعارضـة والـتمرد ولا ننسـى أن قطـاع كـبير مـن المعارضـة في دارفور كانت من زعماء حزب المؤتمر الشعبى التابع للدكتور الترابى .

تراكم الأخطـاء والخطايـا مـن الحكومة ، والدكتور الترابى ، ومن مصر ومن العـرب والمسـلمين بحـق السـودان ، كـان لابـد أن يصل بالمسألة إلى هذه النتيجة ، وكانـت مظاهر الخلل تأخذ طريقها إلى دارفور التى يبلغ عدد سكانها ٦,٥ مليون نسـمة وهـم مسـلمون ، ولـلمفارقة فـإن مـا يشاع عن وجود تفرقة عرقية هو أمر خاطـئ مـن أساسـه ، فالقـبائل الـرعوية التى في صراع مع القبائل الزراعية تختلط فـيها الدمـاء العربـية والإفريقـية ، ويؤكـد الباحث السودانى المتخصص في شؤون دارفور الدكتور طاهر محمود ذلك بقولـه:

"إنـه لا توجد قبيلة سودانية تتميز بأى نقاء عرقى بعد أن امتزجت القبائل منذ آلاف السـنين ، ولا يمكـن بـل مـن المسـتحيل أن يجد المراقب قبيلة إفريقية خالصة أو عربـية خالصـة ، وأن هناك حالات تزاوج واختلاط دماء على نطاق واسع بين

قبائل الزغاوة والمسيرية واليرتى والمساليت والفور والزريقات ، كما أن أصول القبائل الزراعية ذاتها تعود إلى أصول عربية مؤسسية ، عرب نزحوا من تونس ، وهكذا فإن التفرقة القبلية والعرقية تأخذ أكثر من حجمها ويروج لها دعاة الفرقة بهدف التمهيد لتفكيك السودان .

- إن الحديث عن التطهير العرقى في دارفور أمر مبالغ فيه كثيرا ون مسؤولية الحكومة عنه أمر يفتقر إلى الجدية ، وهذا لا يعنى عدم حدوث حوادث متفرقة في إطار الصراع على الموارد بين الرعاة والمزارعين ، وهو كان يحدث منذ فجر التاريخ ، وبديهى أن إمكانيات الحكومة السودانية لا تسمح بحل هذه المشكلة من جذورها ، ويبقى أن أى عدوان في هذا الصدد ينبغى أن يتم محاسبة المسؤولة عنه ، وهو ما تحاول أن تفعله الحكومة السودانية على قدر الإمكان .

- إن الضغط الأمريكي والغربى في موضوع دارفور وحملة الافتراءات الإعلامية ومحاولة مد النفوذ بالتدخل في دارفور أصبحت أمرا معروفا وملحوظا لأى مراقب ، ويستهدف هذا الضغط ، ثم التدخل تحويل السودان إلى مجموعة دويلات تطلب كل منها الحماية الأمريكية والدعم الأمريكي ، وهذا يحقق نفوذا لأمريكا في حضر مصر ، وحصارا لمصر وتحكما أمريكيا في موارد المياه المصرية - وكذا يحقق للولايات المتحدة تحقيق نوع من النجاح بعد أن أصبح نجاحها في العراق مشكوكا فيه ، أو قل: إنه استمرار للحملة الصليبية الأمريكية التي اتجهت إلى السودان بعد العراق ، وهلم جرا ، وبالإضافة إلى ذلك هناك إمكانيات بترولية هامة في السودان - حوالى ١/٢ مليون برميل يوميا ، الآن يمكن أن تتضاعف في غضون عدة سنوات ، وكانت حكومة السودان قد تحدت اللوبى البترولى

الأمـريكي في هـذا الصدد واستعانت بخبرات صينية وماليزية وهندية ، وهو أمر لا يمكـن للمؤسسة الرأسمالية الحاكمة في أمريكا أن تتسامح فيه ، ثم هناك اليورانيوم الـذي تم اكتشافه بشكل تجارى في السودن ، وهناك الصمغ العربى الذي يدخل في الكثير من الصناعات كالأدوية والكوكاكولا وغيرها .

- مـن الملاحـظ أن الضـغط ارتفـع في الآونـة الأخـيرة متمـثلا في تهديـد تونـى بلـير رئـيس الـوزراء الـبريطانى بإرسـال ٥ آلاف جـندى بـريطانى إلى السـودان ، وهـو مـا رد علـيه السـودانيون بـأن ذلـك سـيفتح عـلى تلـك القـوات جـبهة جديـدة ومقاومـة شـعبية عـلى غـرار مـا حـدث في العـراق ، وهـناك جماعـات إسـلامية سـودانية وزعـت منشـورات في دارفـور ذاتهـا تدعـو المسـلمين "مـن رعـاة ومـزارعين" إلى مقاومـة الحملـة الأمريكـية الإنجلـيزية وإلى حفـر قـبور للصـليبيين القـادمين إلى السـودان ، وبديهـى أن حديـث بلـير عـن الـتطهير العـرقى والإبـادة في دارفـور حديـث مـنافق وهـو عـلى غـرار حديـثه عـن أسـلحة الدمـار الشـامل العراقـية الـتى ثبـت كذبهـا فـيما بعـد ، وعـن الحديـث الأمـريكي عـن علاقـة صـدام حسـين بالقـاعدة الـذي نسـفته تقاريـر الكونجـرس الأمـريكي ذاتـه ، ومـن الغريـب أن الكونجـرس الأمـريكي نفسـه اتخـذ قـرارا باعتـبار مـا يحـدث في دارفـور إبـادة جماعـية ودعـوة الحكومـة إلى الـتدخل العسـكرى في السـودان ، وهـو أمـر خطـير ولـه دلالاتـه ، وكذلـك الـتلويح بفـرض عقوبـات عـلى السـودان ، والأكـثر غـرابة أن الحديـث عـن الإبـادة الـتي قـال بهـا قـرار الكونجـرس الأمـريكي لم تـتطرق إلـيه أجهـزة الحكومـة الأمريكـية ولا مـنظمات حقـوق الإنسـان ، وهـو مـا يعـنى أن الأمـر

سياسى أكثر منه أخلاقى .

ومـن المفـروض أن تـتحرك مصر والعرب والمسلمين ، والزعامات والقيادات الدعويـة والسياسـية لـنزع فتـيل ، المظـالم في دارفـور ، ومن ثم تحقيق مصالحة مع حـركات الـتمرد هـناك خاصة أن بعضها من الزعامات الإسلامية التابعة للدكتور الترابـى ، وأنهـا لا تـتحدث فعـلا عـن الانفصال بل عن رفع المظالم ، ومهما كان موقفهـا متشـددا فـإن وسـاطة عربـية إسلامية يمكن أن تلين موقفها ، ولا يجب أن تـترك المفاوضـات والوسـاطات في إطـار غـربى أو إطـار الأمـم المتحدة الخاضعة عملـيا لأمـريكا ، أو لمجلـس الأمـن حـتى لا نفاجـئ بـتكرار السـيناريو العـراقى ونكتشف مع الألم الفظيع أن أجزاء وطننا تنتقص واحدا بعد الآخر ، وأن وجودنا نفسه أصبح مهددا ومشكوكا فيه ولا حول ولا قوة إلا بالله .

* * *

مستقبل المنطقة بعد الاحتلال الأمريكى للعراق

دخلت المنطقة العربية والإسلامية مرحلة جديدة ذات مدخلات ومخرجات مختلفة بعد الاحتلال الأمريكي للعراق . .

لقد أسقط هذا الاحتلال ورقة التوت الأخيرة عن حقائق لأهداف الأمريكية والغربية والصهيونية ، ومن ناحية أخرى قامت إسرائيل بحرق كل الأوراق والمعطيات حول السلام المزعوم ، وبالتالى أصبحنا على المحجة البيضاء ليلها كنهارها ، لم يعد هناك إمكانية للهروب من الواقع المرير أو التحديات الضخمة التي أصبحت فوق رؤوسنا ، لقد أصبحت أحذية العسكر الأمريكي فوق رؤوسنا في أفغانستان والعراق وفى فلسطين تمارس إسرائيل كل الأفعال الحقيرة والاستفزازية والإجرامية بلا هوادة وبصورة منقطعة النظير . . . والمتاح أمامنا ، إما النهاية والموت والخروج من التاريخ والخضوع للاستكبار الأمريكي الصهيوني وضياع الهوية والثقافة والدين والوطن والعرض ، وكذا الحق في مياه كريمة وإما المقاومة ، ولاشك أن المقاومة العربية والإسلامية قادرة على وقف هذا المسلسل العدوانى ، ولدينا تجربة المقاومة الإسلامية في لبنان ، والمقاومة الفلسطينية والمقاومة العراقية أثبتت أن بالإمكان وقف عجلة العدوان وإحداث خسائر جسيمة بالعدو ، وحتى لو لم تنجح المقاومة فإنه يكفى أن نموت واقفين وبكرامة على أن نموت خائفين بلا كرامة .

مرحلة ما بعد العدوان على العراق واحتلاله ، هى استمرار قطار العدوان

الأمـريكي ، فهـناك تهديـد سـوريا وقـانون محاسـبتها ، والضـغط عـلى مصـر والسـعودية ، والانـبطاح الليـبى أمام العاصفة اختيارا . . . ولولا المقاومة العراقية لاستمر قطار العدوان الأمريكي سائرا إلى سوريا أو إيران أو غيرهما .

إن صـعود الـيمين الأمـريكي ، ومفاهـيم الإمـبراطورية والـتحالف الأمريكي الصـهيوني المعلـن والمعروف والذي أصبح انطباقا كاملا ، وصعود أسوأ إفراز ت الإرهـاب الصهيوني ، كل هذا يجعلنا ندرك أننا أمام ذئاب لا تشبع ، وأن أساليب الذئـاب هـى الـتي سـوف تتـبع معـنا ، وليس أساليب الثعالب ، وإن كان كل من الثعالـب والذئـاب اسـوأ مـن بعضـهما إلا أن أسلوب العدوان المستمر والناعم ، والهيمـنة بالوسائل الناعمة بالإضافة إلى القوة ، هذا الأسلوب لم يعد موجودا ، بل الموجـود أمامنا أسلوب القوة والنهب والقهر والحماقة والغطرسة بلا هوادة ، فإما أن نكون أولا نكون .

* * *

المستنقع العراقى ونهاية أوهام الإمبراطورية

بعد أكثر من عام ونصف على الاحتلال الأمريكي للعراق تبدو المسألة وكأنما انغرست القوات الأمريكية في الوحل العراقى ، وأن السياسة الأمريكية قد أصبحت في مأزق حقيقى . هذا بالطبع بفضل المقاومة العراقية الباسلة التي غيرت المعادلات الدولية والإقليمية تغييرا استراتيجيا . هل كان الخطأ هو خطأ الحسابات الأمريكية على حد قول جون كيرى (ديمقراطى) الذي اعتبر أن الحرب على العراق كانت القرار الخطأ في الوقت الخطأ في المكان الخطأ ، أم أن ذلك يرجع إلى انطلاق المارد الشعبى الذي لم يحسب أحد حسابه لا المتشائمين ولا المتفائلين ، من الأمريكان أو الغرب أو حتى العرب والمسلمين . لم يكن أحد بالطبع يتوقع أن تندفع المقاومة العراقية بهذه السرعة وأن تتعاظم بهذه الكفاءة ولا حتى أبناء المقاومة نفسها . وهذا ينقلنا مباشرة إلى الاستنتاج الاستراتيجى الذي أكدته الحالة العراقية وهو أن إرادة الشعوب لا تقهر ، وأنه من الممكن هزيمة الجيوش والدول والمؤسسات أما الشعوب فلا وألف لا . بمعنى آخر ، هل يمكننا استنتاج أن القوة العسكرية الأمريكية الجبارة - وهى الأقوى في التاريخ كله - قادرة على هزيمة جيش أو دولة أو مؤسسة ، أما الحرب ضد المجتمعات فإنها حالة أخرى ، ستكون فيها المجتمعات ذات الإرادة هى المنتصرة في النهاية دائما وأبدا .

الكاتب الأمريكي ، باستربيوكانن قال في مقال نشره في مجلة "ذا أمريكان

كونسر فائف في عدد ٢٠٠٤/٩/١٣ تحت عنوان تراجع الإمبراطورية: " إن الأمريكان لا يملكون الإرادة أو التصميم من أجل الإمبراطورية" ويعتبر الكاتب أن تصاعد المقاومة في المثلث السنى ومدينة الصدر والنجف والمدن الأخرى بجنوب العراق تعتبر علامة فارقة في هزيمة الفكر ، الإمبراطورى الأمريكي' وأن "لحظة الانسحاب الأمريكي من الفلوجة العراقية هى لحظة بداية التراجع الكبير للإمبراطورية ، وأن هذا الانسحاب كان يعنى أن أمريكا أما غير مستعدة لتحمل الخسائر التي قد تترتب على سحق المقاومة ، أو أنها غير قادرة على تحمل نتائج الغضب الشعبى المترتب على ذلك" .

ماذا يعنى أن تصل الخسائر 'لأمريكية رسميا - إلى ١٩٠٠ قتيل و٧ آلاف جريح ، وغير الرسمية إلى ثلاثة أضعاف هذا الرقم تحت ضربات المقاومة ، وأن تستمر هذه المقاومة برغم كل العمليات العسكرية ضدها وبرغم سقوط عدد كبير - معظم - قادة النظام السابق بما فيهم صدام حسين شخصيا في القبضة الأمريكية - إلا أنها مقاومة شعبية عميقة الجذور في العقيدة والوجدان والمجتمع ، وهو أمر لا يمكن اجتثاثه بسهولة أو بصعوبة ، ما معنى أن تصل صحيفة الاندبندنت البريطانية إلى نتيجة هى 'كل الطرق تؤدى إلى الموت في العراق ، وأن يقول جون بيكى المحلل العسكرى في مؤسسى جلوبال سيكورتى البحثية: "لا يزال أمامنا مشوار طويل يتعين علينا خوضه في المستنقع العراقى ، وقد صرنا أقرب إلى بداية الحرب منه إلى نهايتها " . وهكذا فإن الحرب الحقيقية قد بدأت في العراق ، 'ى أن كل - المجهود الحربى الأمريكي كان سلبيا وأن ١٦٠ ألف جندى أمريكى - ناهيك عن قوات الحلفاء و٢٠٠ مليار دولار لم تسهم في تقريب نهاية الحرب في العراق .

أكثر من هذا فإن معدل القتلى في تزايد مستمر ، بالإضافة إلى نزيف عال جدا في صفوف قوات الحكومة العراقية الموالية للأمريكان من حرس وطنى وشرطة وهلم جرا . وكذلك اتساع رقعة المقاومة في كل مكان بالعراق تقريبا ووصولها حتى إلى الأماكن الشيعية ، وخروج قطاع لابأس به من الشيعة على الموقف الشيعى الداعى إلى مهادنة الاحتلال - التيار الصدرى - ومهما كانت محاولات الالتفاف على هذا التيار لتحريره ، فإن الظروف الموضوعية والدماء التي سالت ستدفع به رغم إرادة الجميع إلى صفوف المقاومة ، وهكذا فإن المقاومة أصبحت حالة عراقية شبه كاملة ، ومعنويات الأعداء في انحطاط مستمر ، وهو أمر له ما بعده ، لدرجة أن الموالين للأمريكان في الحكومة العراقية والقوى السياسية الأخرى التي ترى المهادنة أبدت خشيتها من أن تنسحب القوات الأمريكية فجأة من العراق ، على أساس أنها لم تعد تحتمل المزيد من الخسائر ، وفى هذه الحالة فإن هؤلاء سيكونون في موقف سيئ جدا ، حيث ستتم محاسبتهم كخونة ، كما حدث في تجربة فيتنام ، حيث تعلق حكام سايجون بذيل الطائرات الأمريكية المنسحبة ولا ننسى في هذا الصدد أن المقاومة استطاعت أن تمنع تصدير جزء من النفط العراقى بالنسف المستمر لخطوط الأنابيب ، وكذلك انكشاف كذب الادعاء الأمريكي حول إعمار العراق لدرجة وصلت إلى أن طلبت وزارى الدفاع الأمريكية تحويل مبالغ من المخصصة للإعمار في العراق إلى المجهود الحربى الأمريكي لمواجهة تزايد الأعباء العسكرية ، وهكذا فإن الفشل العسكرى تحول إلى فشل سياسى واقتصادى واجتماعى سوف يزيد من فشل الحكومة العراقية ويزيد من إحساس العراقيين بجدوى المراهنة على الاحتلال ويزيد من رقعة المقاومة .

من ناحيتها اعتبرت صحيفة الواشنطن بوست: " أن رقم القتلى يعد إشارة مخيفة إلى أنه تزداد وتيرة القتال بدلا من أن تخف وأن رقعة القتال قد اتسعت لتشمل معظم مناطق العراق وليس المثلث السنى فقط ، وهذا الاتساع في رقعة المقاومة تعكس قوة المقاومة من ناحية وتشكل من ناحية أخرى تحديا كبيرا لقادة القوات الأمريكية " . وتنقل الصحيفة عن ضابط الاحتياط الأمريكي "راسل بورجوس" العائد إلى الوطن بعد أداء الخدمة العسكرية بالعراق: " إن التجربة الأمريكية بالعراق أشبه بالتجربة الإسرائيلية في لبنان " .

بعد كل هذا الوقت من الاحتلال الأمريكي للعراق ، فإن هناك مدنا ومناطق تعد محررة ولا تستطيع القوات الأمريكية دخولها أو الاستقرار فيها خاصة في محافظة الأنبار وسامراء ، وأن المقاومة وصلت الآن إلى كل المدن والمحافظات العراقية ، وانخرط فيها قطاعات من الشيعة ، وما زال الحبل على الجرار ، وهذا يفسر عصبية القوات الأمريكية التى باتت تقصف المدنيين مباشرة وبصورة متعمدة ، وتحاصر المدن بلا مبرر وتتصرف كوحش أعمى فقد اتزانه بعد أن أثخنته المقاومة بالجراح .

❊ ❊ ❊

على حساب مصر

يجب أن ندرك في البداية أن الحدأة لا تلقى بالكتاكيت . . وإذا ألقت بكتكوت فهو بالضرورة كتكوت مسموم ، وأن ما يسمى "خطة فك الارتباط الأحادية الجانب" والتى قدمتها إسرائيل للعالم على أنها الحل الناجح للقضية الفلسطينية ، هى خطة مسمومة شكلا ومضمونا ، هذه الخطة قد تبنتها الإدارة الأمريكية بالكامل ، بل واعتبرت شارون فارسا شجاعا حين تقد بها .

وقدمت واشنطن رسالة ضمانات لإسرائيل تحسم قضايا مفاوضات الوضع النهائى قبل أن تبدأ لصالح إسرائيل . فالخطة الإسرائيلية التى تقضى بالانسحاب من غزة وتفكيك المستوطنات الإسرائيلية فيها تعنى أن أوسلو قادت في النهاية ، ليس إلى غزة وأريحا أولا بل إلى غزة وأريحا أولا وأخيرا ، بل غزة فقط أولا وأخيرا . وهذا في حد ذاته تراجع كبير ، وخطة فك الارتباط الأحادية الجانب أنهت عمليا التمثيل الفلسطينى ، فلم يعد التعامل مع الشعب الفلسطينى من خلال ممثلين حقيقيين أو نصف حقيقيين أو حتى مزيفين له ، بل من خلال التجاهل الكامل لوجود هذا الشعب ، وأصبح التفاوض مع مصر مثلا!! . ومصر لا ترضى بأن تكون بديلا عن الشعب الفلسطينى ، ولكنها الضغوط .

وفى إطار مصر فإن الدوائر الصهيونية حين تحدثت عن إخلاء غزة ، لوحت إلى مصر إلى أنهم من الممكن أن تتحول غزة إلى قاعدة معارضة إسلامية للحكومة المصرية ، وهى مخاطرة تعرف إسرائيل أن القاهرة تعمل لها حسابات ، ولكن الصحيح أن الحركات الإسلامية في فلسطين المحتلة من الوعى بحيث إنها لن تقبل أن ترقص على

الأنغـام الإسرائيلية في إيذاء مصر ، وكان على هذه الحركات أن تطمئن مصر سريعا إلى عـدم إمكانـية حـدوث ذلـك ، حتى لا تضطر مصر إلى الدخول في المستنقع أو المخطط الإسـرائيلى بدعـوى أنهـا لا يمكـنها أن تترك غزة فريسة للظروف أو عدم قدرة السلطة عـلى إدارتهـا أو عـدم قبول إسرائيل أصلا بدور للسلطة في هذا الإطار ، المهم أن مصر سـواء خوفـا من المجهول في غزة ، وهى عـى حدود مصر ومنطقة من أكثر مناطق العالم ازدحامـا بالسـكان وبالسياسـة والفدائيين أيضا ، أو تحت الضغط الأمريكى هرولت إلى الموضـوع ودخلـت في مفاوضـات مـع إسـرائيل ومـع السلطة الفلسطينية ومع الجانب الأمـريكي ، وأعلنـت اسـتعدادها لدخـول قوة مصرية من ٢٥٠ إلى ٣٠٠ ضابط وفنى ومدرب لتدريب قوة فلسطينية من ٣٠ ألف جندى في ثلاثة طواقم لحفظ الأمن والنظام في غـزة ، وأن دورهـا سيقتصر على الجانب التدريبى وتقديم المشورة فقط ، وهذا كلام مـن الناحية النظرية جميل ، ولكن الواقع على الأرض سيفرض مستجدات ، منها مثلا: الضغط الأمريكي الإسرائيلى لقيام مصر تحديدا بحصار المقاومة ومنع دخول السلاح لها خاصـة مـن الحـدود المصـرية ، أى تحمـيل مصـر عبء حماية الحدود لصالح إسرائيل ، ومـنها أن مصـر نفسـها كانـت قـد رفضت أصلا دخولها على الخط في الموضوع لا من خـلال التدريـب ولا غـيره واعتـبرت الخطـة الإسرائيلية خطة فضى الارتباط " أحادى الجانـب" نـوع مـن الالـتفاف عـلى خـريطة الطـريق ونـوع من التحايل لإلغاء السلطة الفلسـطينية ، ولكنها عادت فقبلت ما رفضته من قبل تحت الضغط الأمريكي طبعا وهو ضـغط يمكن أن يستمر ويتزايد باتجاه المزيد من المطالب لمصر في غزة ، خاصة أن الجانب الإسـرائيلى سـرب أكـثر من مرة أن هناك دورا مصريا أمنيا والتزامات معينة ستقوم بها مصر ، وهو ما أنكرته مصر حتى الآن ، ولكن من يضمن المستقبل .

المهم أن إسرائيل - في رأينا - نجحت بوسائل مختلفة في إدخال مصر داخل مستنقع غزة ، وهو المستنقع التي تريد إسرائيل الخروج منه بأى ثمن ، ليس حبا في السلام ، ولكن لأن تكاليف وجودها به باهظة أمنيا واقتصاديا وسياسيا وهذا الأمر تصاعد مع انتفاضة الأقصى منذ عام ٢٠٠٠ ، وكان معروفا من قبل إبان انتفاضة ١٩٨٧ ، لدرجة أن رابين - رئيس الوزراء الإسرائيلى الأسبق - عبر يومها عن رغبته في أن يلقى بهذا القطاع إلى البحر ، أو يستيقظ ذات يوم من نومه فلا يجد هذا القطاع موجودا على الأرض .

الأمر ليس فقط بهذه المثابة من الاعتبارات ، بل إن اعتبارات المؤامرة قائمة ، فما المانع أن يقوم عميل إسرائيلى من الفلسطينيين بارتداء زى حماس أو الجهاد الفلسطينى وتنفيذ عمليات ضد الوجود المصرى في غزة ، أو حتى العكس بمعنى أن يقوم جندى مصرى في غزة ، تم تجنيده لحساب الإسرائيليين باستفزاز المقاومة بطريقة أو بأخرى فيحدث صدام بين المقاومة ومصر ، وهو ما تحلم به إسرائيل ، وبدلك تصدر إسرائيل المشكلة إلى مصر وتقبع في مقاعد المتفرجين .

أمر توريط مصر في غزة ليس فقط في هذه الجوانب الأمنية بل هناك أمورا استراتيجية خطيرة يجب ألا نغفلها في الموضوع حتى ولو كانت مجرد أفكار ورؤى إسرائيلية يمكن لمصر أن تقول بملء الفم أنها ترفضها ؛ لأن الظروف تتغير وطرق الضغط تتنوع خاصة الضغط الأمريكي والأوروبى ومصر وقعت مؤخرا اتفاقا للشراكة مع أوروبا به بنود يمكن تفسيرها على نحو معين مثل فتح باب الاستيطان للفلسطينيين في غزة ، المهم أن هذه الرؤى والأفكار الإسرائيلية تدور حول إمكانية قيام مصر بمنح الفلسطينيين مساحة ٦٠٠ كم ، من سيناء وضمها إلى غزة ،

وبذلك ترتفع مساحة غزة إلى ثلاثة أضعاف ما هى عليه ، وتوطين الفسطينيين في تلك المنطقة ، على أن تتدفق معونات لمصر وللفلسطينيين في تلك المنطقة مقابل ذلك من أوروبا وأمريكا ، وبالتالى تحل مصر مشكلة الفلسطينيين وغزة في نفس الوقت . ويروج الإسرائيليون القائمين بهذا الأمر ، أن عدم حل مشكلة الفلسطينيين لا يرجع إلى هؤلاء الفلسطينيين ولا إلى إسرائيل بل إلى مصر ؛ لأن سيناء خالية يمكن الاستفادة منها ، خاصة أن من المستحيل عمليا - حسب رأى هؤلاء أن تستوعب فلسطين التاريخية ٢٠ مليون نسمة هم الفلسطينيون والإسرائيليون!! . وقد عبر أحد خبراء إسرائيل والمقرب من الجيش الإسرائيلى المؤرخ الصهيوني "إير أورون" عن ذلك بقوله: " إن على الولايات المتحدة أن تمارس ضغطا على مصر لاقتطاع جزء من أراضى سيناء وإلحاقه بقطاع غزة ؛ ليكون وطنا جديدا للفلسطينيين في مقابل منح الرئيس مبارك جائزة نوبل للسلام ومعونات اقتصادية لمصر ، كما روج للرؤية نفسها تقرير صادر عن مركز "أريئيل" للدراسات السياسية ولم تكتف الدوائر الإسرائيلية بمجرد طرح تلك الأفكار عن طريق مراكز الأبحاث أو الكتاب ، بل إن المسؤولين الإسرائيليين بدأوا الحديث مع الأمريكيين والأوروبيين في هذا الصدد ، وقد قام رئيس مجلس الأمن القومى الإسرائيلى "جيورا إيلاند" باطلاع كونداليزا رايس ، ووزير الخارجية الألمانى يوشقا فيشر ، وعدد من المسؤولين الأوروبيين بهذه الخطة والمقترحات التي أسماها الإسرائيليون: "الخطة الإسرائيلية للحل الشامل" . وهى خطة كما ترى تقوم على حساب مصر شكلا ومضمونا .

❊ ❊ ❊

العقلية الإسرائيلية
من خلال الحائط وخطة شارون

من المهم بالطبع فهم طريقة التفكير الإسرائيلية ، وفهم العقلية والوجدان الذي يحكم التصرفات الإسرائيلية ، وبديهى أن العقلية والوجدان الإسرائيلى يتأثران بعاملين مهمين هما العقلية والوجدان اليهودى والعقلية والوجدان الغربى ، على أساس أن إسرائيل مشروع غربى استعمارى يقوم على أكتاف اليهود .

وإذا كانت السمات الأساسية للعقلية والوجدان الغربى هى العنف والقهر والعدوان والعنصرية والعداء الصليبى للحضارة الإسلامية ، فإن ذلك سيجد امتداداته الواضحة في السياسة الإسرائيلية ، وإذا كانت العقلية والوجدان اليهودى في مجمله وفى خطوطة العريضة - هى العنصرية - شعب الله المختار - الغدر ، الخيانة ، الخديعة ، المكر ، وعقلية الجيتو ، الجبن من القتال . . إلخ . . فإن ذلك أيضا يجد امتداداته في السياسة الإسرائيلية .

وبداية فإنه من الضرورى هنا أن نتحرر من وهم اللحظة في الحكم على السمات العامة للعقلية والوجدان اليهوديين ، دون أن نغفل طبعا دراسة تلك اللحظة باعتبارها تكريسا للعقلية التاريخية اليهودية ، ونقصد هنا أن البعض عادة ما يتحدث عن العبقرية الصهيونية واليهودية والذكاء اليهودى . . إلخ . ، ولكننا نرى أنه مكر وليس ذكاء ، بمعنى أنه يجيد فن التكتيك والمراوغة والمساومة ، ولكنه

مصاب بالعمى الاستراتيجى والغباء لمستقبلى ، ولعل من المفيد هنا أن نقول: إن من المفهوم مثلا - وهو خطأ وخطيئة طبعا - أن ينكر إنسان وجود الله ، ومن المفهوم مثلا أن يؤمن إنسان بالله ثم يعصاه على أساس الضعف الإنسانى: «كل ابن آدم خطاء وخير الخطائين التوابين» ولكن من غير المفهوم أن يؤمن الإنسان بالله ويعرف حدود قدرته ثم يعانده ، وهذا هو بالتحديد السمة الرئيسية لليهود ، أليس هذا غباء استراتيجيا واضحا؟ إذن علينا أن نتحرر من وهم العبقرية اليهودية والذكاء اليهودى ، وأن نتعامل معهم على أساس أنهم مكارين ولكنهم أغبياء .

الجدار والنبوءة القرآنية :

إحدى سمات العقلية اليهودية ، هى عقلية الجيتو . ولعل الجدار الذي تقيمه إسرائيل هو تكريس لعقلية الجيتو ، والجدار هو في الحقيقة ثلاثة جدران ، الجدار الغربى وهو شديد التلوى والتعرج بهدف التوغل داخل الضفة الغربية لإحاطة كل المستعمرات الإسرائيلية الكبرى في إطاره ، والثانى هو جدار العمق الذي يتوغل داخل الضفة الغربية شرقا لإحاطة مستعمرات أخرى وربطها بطرق التفافية وجدران فاصلة ، أما الجدار الثالث فيقام على امتداد نهر الأردن بعمق ٢٠ كيلو متر غربا أى بعمق الضفة الغربية ، وهكذا فالجدار يستهدف إحاطة الكيان الصهيوني من كل جانب ، وفى هذا الإطار تأتى خطة شارون للانسحاب من بعض المستعمرات التي لا يمكن للحدار أن يحيطها سواء في غزة - الأكثر - أو الضفة الغربية - عدد أقل - لتؤكد حقيقة الجيتو وحقيقة الخوف والجبن الصهيوني والجدار يستهدف وضع الفلسطينين في معازل أشبه بأقفاص الدجاج ؛

ولـذا يطلـق عليـه الكـثيرين جـدار الفصـل العنصـري ، وهذا تكريس للعنصرية المستمدة من الأخلاق اليهودية والقيم الحضارية الغربية على حد سواء .

والجـدار يتكون من عدد من الاستحكامات أو النطاقات الأمنية ويبلغ عرضه من ٨٠ - ١٠٠ متر مكونة كالتالى:

أسـلاك شـائكة لولبـية ، خـندق بعـرض أربعـة أمـتار وعمق خمسة أمتار يأتى مباشـرة عقـب الأسـلاك ، شـارع يعلـوه سياج معدنى اليكترونى بارتفاع أكثر من ثلاثـة أمـتار مركبة عليه أجهزة إنذار إليكترونية وكاميرات أضواء كاشفة ، وتوجد هـذه المنشـآت نفسـها عـلى جانـبى الجـدار ، كمـا عمـد الإسـرائيليون إلى تثبيت رشاشـات بـالجدار ذات مـناظير عبارة عن كاميرات تليفزيونية يمكن التحكم فيها من مواقع للمراقبة عن بعد .

ولعل هذه الاستحقاقات تؤكد أولا الفشل الصهيوني في القضاء على المقاومة والانتفاضـة الفلسـطينية ، وهـو مـا كان قد وعد به شارون عقب انتخابه وضرب لذلـك موعدا هو ثلاثة أشهر ومرت أكثر من ثلاث سنوات دون أن يحقق شارون وعده ، وكذا فإن تلك الاستحكامات تؤكد عقلية الجبن والخوف والفزع اليهودى ومـن ثـم الإسرائيلى وبناء الجدار في حد ذاته يؤكد ويحقق نبوءة قرآنية ، يقول الله تعالى وهو أصدق القائلين:

بسـم الله الـرحمن الرحـيم ﴿ **لا يقـاتلونكم جمـيعا إلا في قرى محصنة أو من وراء جـدار** ﴾ (الحشـر) صدق الله العظيم . والقرى المحصنة هى مجموعة الجدر المكونة لـلحدار ، ولعلـنا هنا ننقل ملاحظة هامة عن الدكتور عبد العاطى محمد عبد الجليل

الـذي رصـد أن كـل الكـتاب والسياسـيين ووسـائل الإعلام . . إلخ . استخدموا كـلمة الجـدار لوصـف هـذا الجـدار الصـهيوني ، وكان يمكن مثلا استخدام كلمة السـور الواقـى ، أو الساتر أو الحائط أو غير من الأسماء ، ولعل ما يؤكد ذلك أن الـناس اسـتخدموا مثلا مصطلح سور الصين العظيم ، سور برلين ، خط ماجينو ، خـط سـيجفريد ، لوصـف جـدران عازلـة أو خطوط دفاعية والجدار فيه السمتان وهذا يؤكد النبوءة القرآنية . . والحمد لله رب العالمين .

الجـدار يشـتمل عـلى ثـلاث مـراحل ، المرحلة الأولى بطول ٣٦٠كم من قرية سـالم أقصى شمال الضفة الغربية حتى بلدة كفر قاسم جنوبا ، والمرحلة الثانية تمتد ١٥ كـم مـن قـرية سـالم حـتى بلـدة التياسير في غور الأردن ، والمرحلة الثالثة من مستوطنة "إلكنا" حتى منطقة البحر الميت هذا الجدار الملعون ، الذي يسميه البعض الجـدار الأمنى ، والبعض الآخر يسميه جدار الفصل العنصرى يستقطع ٤٥% من أراضـى الضـفة الغربـية وجـزء كـبير مـن أراضـى غـزة . وقـد بلغـت المساحات الفلسـطينية المصـادرة حـوالى ١٨٧ ألـف دونم معظمها في محافظات جنين وقلقلية والقـدس ، كمـا تم تدمـير آلاف المـبانى والمنشآت وتشريد آلاف الأسر واستقطاع جـزء كـبير مـن المـياه العذبة . . أى أنه فساد في الأرض وهو خلق يهودى ، وقيم حضـارية غربـية طـبعا . ﴿ **ويسـعون في الأرض فسـادا** ﴾ . وبديهـى أن الفسـاد الصـهيوني والغـربى لـه آلاف الملامـح والممارسات في فلسطين وخارجها وليس الجدار فقط .

ويجـب هـنا أن نلفـت الـنظر إلى أن هـذا الجـدار لـن يحمـى إسـرائيل في الـنهاية ؛ لأن إرادة الجهـاد لـدى الفلسـطينيين - بتوفـيق الله تعـالى - سـوف

تتغلب على كل العقبات كما تغلبت من قبل ، وسوف تستمر المقاومة إن شاء الله كما استمرت من قبل رغم أنف الجدار والاستحكامات ، وهذا يؤكد من جديد الغباء اليهودى الاستراتيجى ، ومن الملفت للنظر هنا أن بناء الجدار وخطة الفصل العنصرى تتعارض مع ماروج له الأمريكيون والإسرائيليون ودعاة السلام المزعوم والتطبيع من إمكانية دمج إسرائيل في المنطقة ، الشرق أوسطية - الشرق الأوسط الكبير ، وكل المشروعات المشابهة . . والجدار أيضا ينسف فكرة السلام وخارطة الطريق ، بل فكرة إمكانية قيام دولة فلسطينية في إطار حل الدولتين المزعوم ، وهذا يؤكد الخداع والغدر الغربى والإسرائيلى .

خطة شارون:

تقضى خطة شارون بالانسحاب من معظم غزة ، ومستعمراتها ، وإخلاء بعض المستعمرات من الضفة الغربية ، وهذه الخطة بالطبع تتعارض مع خارطة الطريق المزعومة ، وهى حل من طرف واحد . . ويتجلى فيها المكر الصهيوني - الذكاء التكتيكى - فالخطة تتخلص من غزة ، أى تتخلص من المركز الرئيسى للمقاومة ، والثقل السكانى والأعباء الأمنية الكبيرة ، وهو أمر إسرائيلى قديم وليس جديداً ، وقد قال رابين ذات يوم: أنه يحلم أن يصحو من النوم فيجد غزة قد غرقت في البحر ، ويستهدف شارون أيضا من تلك الخطة تكريس الاستيطان والاستيعاب للضفة الغربية والقدس ، ثم إمكانية بناء جدار عازل حول إسرائيل "خطة الجدار" ومن ضمن المكر الصهيوني هنا هو المحاولات المستميتة لتسليم مسؤولية غزة الأمنية إلى مصر ، أى توريط مصر في حماية أمن إسرائيل ، والعمل

كشرطى لديها ، وهو ما فشل فيه ياسر عرفات سابقا ، ولكن الحكومة المصرية رفضت ذلك ، ونرجو أن تستمر في هذا الرفض المبدئى ، تقول صحيفة معاريف الإسرائيلية: "يعكف شارون على تحقيق لف قطاع غزة في ورق هدايا ثمين ولا مانع أن يكون مزركشا ومغريا ليضعه تحت أقدام المصريين بعد سحب جميع قوات الجيش من هناك على أن تصبح مصر مسؤولة عن البركان النشط في غزة ، وبذلك ينتقل صراع غزة المزمن من مكتب شارون إلى دوائر الحكومة المصرية التي يصبح لزاما عليها بدلا من شارون تحمل أعباء مواجهة حفر الأنفاق وتهريب السلاح والصواريخ والمواد المتفجرة والمتطوعين ، وأن تدلف السلطات المصرية إلى غزة لتتعامل مع خطباء المساجد وصواريخ القسام ومدافع الهاون ، كل هؤلاء ستتخلص منهم إسرائيل دفعة واحدة وتلقيهم في حجر المصريين ، صفقة رابحة بلا شك!! خاصة أن إسرائيل ستتحصن في تلك الأثناء خلف الجدار العازل وتلقى على مصر تبعات كل قذيفة هاون بالاتفاق مع أمريكا " .

خطة شارون للانسحاب من مستعمرات غزة ، يحقق له الكثير من الأهداف التكتيكية ، التخلص من العبء الأمنى المكلف اقتصاديا جدا ، إحاطة الجدار بكل إسرائيل بعد التخلص مما هو خارجه ، وهنا فإن خطة شارون تؤكد أخلاق الجيتو ونفسية العزلة والعنصرية ، التخلص من الصراع الديموجرافى ، توريط مصر ، وغيرها من الأهداف ، ولكن في المقابل فإنه على المدى الاستراتيجى ، فإن هذا الانسحاب يؤكد أولا أن المقاومة نجحت في إجبار شارون على التفكير في الانسحاب وهو ما يذكر بحالة جنوب لبنان ، وبديهى أنه لولا المقاومة والصراع الأمنى في غزة لما

فكر شارون في ذلك ، وهذا يعنى أن الأمل لا زال مفتوحا أمام المزيد من المقاومة للمزيد من الانسحابات وأن المقاومة وحدها وليس المفاوضات هى اللغة الوحيدة التي تفهمها إسرائيل ، ويجب ألا نغفل عن هذه الحقيقة ونتصور أن شارون يفكر بمعزل عن تلك الحقيقة!! وأن خطة شارون والجدار على المستوى الاستراتيجى ، ينسف فكرة دمج إسرائيل في المنطقة وهذا يفيد لكشف زيف دعاة السلام والمطبعين وزيف وخداع مشروعات من أمثال الشرق أوسطية والشرق الأوسط الكبير والمتوسطية . . إلخ وأن الحقيقة هى أن إسرائيل كيان غريب وجيتو عنصرى في وسط عربى إسلامى لن يقبل بوجوده ، وسوف يلفظه بالمقاومة وليس بغيرها عاجلا أم آجلا!!

* * *

إلا الميـــاه

الماء هو شريان الحياة الأساسى والرئيسى . . وبالتالى فهو أهم شىء في هذا العالم وأغلى شىء بالضرورة ، ولا تقوم حياة أو نهضة أو تقدم إلا بالمياه ، ومنع المياه أو حرمان أحد منها ربما يعنى مباشرة الحرب ولا شىء آخر سوى الحرب ؛ لأنها مسألة حياة أو موت ﴿ وجعلنا من الماء كل شىء حى ﴾ .

من آن لآخر تثور مشاكل حول المياه ، في الوطن العربى عموما ، وفى موضوع النيل ومصر خصوصا ، وللأسف فإن الأرقام والأحوال في موضوع المياه بالنسبة للوطن العربى ليست وردية ، فالوطن العربى كله لا يملك سوى ١% من المياه الموجودة في العالم وأن نصيب الفرد في الوطن العربى من المياه الآن هو ٨٥٠% م٣ / سنويا ، وفى عام ٢٠٢٥ سيصبح ٦٠٠م٣/ سنويا في حين أن نصيب الفرد في العالم ٤٠٠٠م٣/ سنويا . أى أن الوطن العربى دخل في مرحلة الفقر المائى بالفعل والمسألة مرشحة للاتساع ، والأكثر خطورة أن هذه النسبة المحدودة من مصادر المياه في الوطن العربى يأتى ٨٥% منها من الأنهار ، ومنابع هذه الأنهار خارج الوطن العربى!! .

بخصوص مصر فإن المسألة ليست أفضل إلى حد بعيد ، خاصة أن هناك مشاكل تثور من وقت لآخر من بعض دول الحوض لإعادة النظر في اتفاقيات المياه والأنصبة الخاصة بتلك الدول ، ومن المعروف أيضا أن إسرائيل حاولت منذ وقت مبكر مد نفوذها إلى دول منابع النيل لحصار مصر من الجنوب والتحكم في مواردها المائية وذلك لإضعاف موقفها ، فإذا أضفنا إلى ذلك المحاولات الأمريكية

لفعـل الشيء نفسه لأدركنا أن مصر دورها ومستقبلها في خطر شديد ، وذات يوم هـدد الرئيس الـراحل أنور السادات بإعلان الحرب على إثيوبيا عندما علم بنيتها في حجـب مـياه النـيل أو بعضـها بالتعاون مع إسرائيل وهو أمر بديهى ، والشيء نفسـه هـدد بـه الدكـتور محمود أبوزيد وزير الموارد المائية المصرية إلا أنه أنكر هذا التهـيد فيما بعد ، ولعل هذا يجعلنا نقول: لو أن محمد على كان قد اهتم بمشروعه الإفـريقى ووجه طاقاته العسكرية إلى الجنوب بدلا من أن يوجهها شمالا وشرقا ، لكـن استطاع أن يحقق إمبراطورية إفريقية بقيادة مصر ، حيث إن أوروبا في ذلك الوقـت لم تكـن تـتقدم تكنولوجـيا بدرجـة تجعـلها تعـرقل هذا المشروع ، كما أن تفوقهـا لم يكن كبيرا وكانت مشغولة بالصراع في أوروبا ذاتها مع الخلافة العثمانية الـتي أضـعفتها حروب محمد على ، وأضعفته هو أيضا فسقط الجميع في النهاية في القبضـة الأوروبـية ، نقـول: لـو أن محمـد عـلى لم يصطدم بالخلافة ووجه جهوده جنـوبا لكـان قـد أمن منابع النيل وحقق امبراطورية إفريقية ، وبذلك كان سيحرم أوروبـا مـن الـثروات الإفريقـية والأرقـاء الأفارقة الذين قامت النهضة الأوروبية عـلى أكـتافهم وثـروات بلادهم المنهوبة ولكانت النهضة بالتالى من نصيب إفريقيا ولـيس أوروبا نقول ذلك بحسرة ، ونعلم أن لو تستفتح عمل الشيطان ، في الإطار ذاتـه يـأتى التصـرف المصـرى الأحمق عام ١٩٥٦ بالسماح بانفصال السودان عن مصـر ، وهـى جـريمة كـبرى ارتكبـتها الحكومـة المصرية في ذلك الوقت ، ودفعت الأجـيال التالـية ثمـنها قلقـا وخوفـا من العطش ، بل دفعت السودان نفسها ثمن ذلـك الانفصـال ، وبديهـى أن الـدول تـتوحد بالقوة ، وما دامت مصر والسودان دولــة واحـدة ، فالمسـألة بحكـم الـتاريخ والجغرافـيا كانـت محسومة ، وكانت كل

القوى السياسية المصرية والسودانية قبل ثورة ١٩٥٢ متفقة على رفض الاستقلال مقابل فصل السودان عن مصر وهو ما كانت تعرضه بريطانيا دائما، وهناك قول شهير للسياسى المصرى مصطفى النحاس باشا زعيم حزب الوفد: "تقطع يدى ولا تفصل السودان عن مصر".

لن نبكى على اللبن المسكوب ولكن نقول فقط إن مشاكل مصر والسودان الحالية والمستقبلة لن تحل إلا بشىء واحد هو إصلاح خطأ الانفصال والعودة إلى الوحدة.

الاستهلاك السنوى المصرى من المياه يصل الآن إلى ٧٦ مليار متر مكعب، يؤمن النيل منها ٧٧% أى حوالى ٥٥,٥ مليار متر٣ ومياه الصرف الزراعى نحو ١٠,٥% ومياه الصرف الصحى والصناعى ١٠,٥% والباقى أى ٢% فقط من مياه الأمطار والمياه الجوفية، ونلاحظ أن مياه الصرف الصحى والصناعى هى ذاتها استرجاع لمياه مستخدمة من مياه النيل أصلا، أى أن الموارد المائية المصرية خارج إطار النيل هى ٢% فقط. وبالتالى فالنيل هو شريان الحياة لمصر والتلاعب في هذا الشريان يمثل أكبر خطر على مصر، وتصيب الفرد في مصر حاليا يصل إلى ١٠٠٠م٣ من المياه سنويا أى أن مصر فقيرة مائيا بالمقارنة مع النصيب العالمي للفرد ٤٠٠٠م٣/ سنويا، وهكذا فإن مصر تحتاج إلى المزيد من الموارد المائية من النيل، وليس تقليص حصتها كما تطالب بذلك بعض الدول، وهناك عدد من الاتفاقيات الدولية التي نظمت علاقة دول حوض النيل كما يلى:

- بروتوكول روما ١٨٨١ بين بريطانيا وإيطاليا.

- اتفاقية أديس أبابا ١٩٠٢ بين بريطانيا وإثيوبيا .
- معاهدة لندن ١٩٠٦ بين بريطانيا وبلجيكا .
- اتفاقية عام ١٩٢٥ بين بريطانيا وإيطاليا .
- اتفاقية عام ١٩٢٩ .
- اتفاقية ١٩٣٢ بين مصر وبريطانيا وأوغندا وكينيا وتنجانيقا .
- الاتفاقية المصرية السودانية عم ١٩٥٩ .
- اتفاقية منظمة دول حوض النيل عام ١٩٨٣ بين مصر والسودان وأوغندا .
- اتفاقية ١٩٩٣ بين مصر وإثيوبيا .

حيث إن استراتيجية منظمة الوحدة الإفريقية كانت قد أقرت الاتفاقيات الموقعة إبان العهد الاستعماري واعتبرتها غير قابلة للتعديل حتى لا تحدث مشكل ضخمة لا يمكن حلها . ولكن هناك من يلعب في الفناء مثل إسرائيل وأمريكا ، الأمر الذي يعنى أن هنك مخاطر حقيقية على مصر خاصة أنها تعانى حاليا عجزا في الموارد المائية يبلغ ٨ مليار متر^{٣}/ سنويا ، وفى عام ٢٠٢٥ مثلا سيصبح عدد سكان مصر ١٠٠ مليون نسمة يحتاجون وفقا للمعدل المائى إلى ١٠٠ مليار متر^{٣} من المياه / سنويا أى أن العجز مرشح للزيادة .

يعتبر نهر النيل هو أطول أنهار العالم حيث يبلغ طوله ٦٦٧٠ كيلو متر ، وتقدر مساحة حوض النهر بنحو ٢١ ,٩ مليون كيلو متر أى مايعادل ١٠% من مساحة إفريقيا ، وتوجد منابع النيل في ٣ قطاعات هى: القطاع الجنوبى ويضم

بحيرة فيكتوريا وتشترك فيها كل من تنزانيا وأوغندا وكينيا ، كما يوجد نهر كاجيرا في رواندا وبورندى ، وبحيرة إدوارد وألبرت ونهر السمليكى وهى مشتركة بين أوغندا والكونغو ، أما القطاع الشرقى فيضم إثيوبيا ، ومنابع النيل الشرقية تعطى النيل ٨٥% من المياه التي تصل إلى مصر ، والباقى ١٥% من القطاع الجنوبى ، ومن المفارقات هنا أن الإيراد السنوى لبحيرة فيكتوريا ١١٤ مليار متر^3 وما يتم تخزينه منها فقط ٢١ مليار ، أى أن هناك فاقد سنوى يصل إلى ٩٣ مليار متر^3 ، في حين يبلغ الإيراد السنوى لبحيرة البرت ٣٤ مليار متر^3 سنويا ، وما يتم تخزينه منها ٢٦,٥ مليار متر^3 أى أن الفاقد هنا يصل إلى ٦,٧ مليار متر^3 ، ويؤكد الخبراء مجمل إيرادات النيل إلى حوالى ١٦٦٠ مليار متر^3 سنويا لايصل مصر والسودان منها سوى ٧٤ مليار متر^3 أى بنسبة ٤% ، وهكذا فإن تحريك موضوع إعادة النظر في نصيب مصر من المياه ليس بريئا ، ولا يعتمد على الحقائق الفنية في الموضوع ، بل الموضوع سياسى أصلا ؛ لأن مصر في حالة فقر مائى أولا ، ولأن ما يصلها من المياه لا يمثل إلا نسبة ضئيلة من المياه المتوفرة والتى تضيع لعدم القيام بمشروعات من أمثال مشروع قناة جونلى مثلا ، والأفضل طبعا هو قيام تنسيق وتعاون بين دول الحوض لزيادة استغلال المياه ، بل وزيادة حصة مصر منها وليس العكس ، وهذا ممكن جدا ، ومتاح جدا ، ولا يحتاج إلا إلى توفر الإرادة والإدارة وحسن القصد والنية .

* * *

هدم المسجد الأقصى

الحديث الإسرائيلي عن وجود مؤامرة يديرها متطرفون إسرائيليون "وكلهم متطرفين" لنسف المسجد الأقصى من الجو ، عن طريق طائرة بدون طيار أو عن طريق طائرة يقودها انتحارى إسرائيلى ، حديث يجب ألا يمر بهدوء ، ويجب أن يؤخذ بجدية ، ذلك أن التخطيط لهدم المسجد الأقصى ليس وليد هذه اللحظة ، بل هو عملية قديمة جديدة تتكرر وسوف تتكرر لأنها جزء لا يتجزأ من العقيدة الصهيونية وهى عقيدة لا تخص اليهود الصهاينة وحدهم ، بل تخص قطاعا كبيرا من المسيحية البروتستانتية "المسيحية الصهيونية" ، ذلك أن تلك العقيدة المزعومة يؤمن أتباعها أن من شروط عودة المسيح أن تقوم معركة هرمجدون للقضاء على الأشرار" المسلمون تحديدا واليهود أيضا " . وبداية ما يسمى بالألفية السعيدة ، أن من شروط ذلك هدم المسجد الأقصى وإقامة هيكل سليمان في مكانه ، حيث يعتقد هؤلاء أن هيكل سليمان يقع تحت المسجد الأقصى . وهكذا فنحن أمام قوى إسرائيلية ، ويهودية صهيونية ، ومسيحية بروتستانتية صهيونية ، والأخيرة لها أتباع كثيرون في الدول البروتستانتية وخاصة الولايات المتحدة الأمريكية وبريطانيا واستراليا ، وعلى سبيل المثال لا الحصر فإن هناك داخل الولايات المتحدة نفوذا قويا لتلك العقيدة ، وهناك كنائس تبشر بذلك وتدعو إليه وتجمع من رعاياها المال اللازم لتمويل عملية هدم المسجد الأقصى وبناء الهيكل ، ودعم إسرائيل سياسيا وإعلاميا كجزء من تحقيق شروط عودة المسيح المزعومة ، كما تتمتع هذه الجماعة بنفوذ قوى داخل الحزب الجمهورى في الولايات المتحدة ويتعاطف معها

بصورة ضخمة رموز اليمين الأمريكي المحافظ من ديك تشينى إلى رونالد رامسفيلد إلى الرئيس بوش ذاته وكان الرئيس الأمريكي الأسبق رونالد ريجان يؤمن مباشرة بتلك العقيدة المزعومة . كما تمتلك تلك الجماعة قنوات تليفزيوية وإذاعية وصحف ويتبعها عدد كبير من القساوسة أمثال بات روبرتسون والأب جراهام وغيرهما .

وهكذا فنحن أمام تهديد جدى - مهما كان غريبا ومتطرفا ، لهدم المسجد الأقصى ، الأمر الذي يستدعى تحركا شعبيا وحكوميا عربيا وإسلاميا .

محاولات هدم المسجد الأقصى بدآت منذ عام ١٩٦٩ أى بعد عامين فقط من الاحتلال الإسرائيلى لمدينة القدس ، مما يؤكد مدى تغلغل هذه الفكرة في العقل الصهيوني المسيحى واليهودى على حد سواء ، وقد كانت المحاولة الأولى لحرق المسجد الأقصى عن طريق البروتستانتى الأسترالى مايكل روهان في ١٩٦٩/٨/٢١ ، ونلاحظ هنا أن ذلك الشخص ليس يهوديا ولا إسرائيليا ، بل مسيحى بروتستانتى استرالى ، وقد تم القبض عليه واعترف بالموضوع ، إلا أن المحكمة الإسرائيلية أصدرت أمرا بإطلاق سراحه بدعوى أنه مصاب بنوع من الجنون المنقطع ، وأنه أثناء المحاولة كان واقعا تحت سطوة إحدى نوبات الجنون هذه . وقد تكررت المؤامرات لحرق أو هدم المسجد الأقصى بعد ذلك مرات كثيرة ، وعلى سبيل المثال لا الحصر تآمر عدد من أتباع "عصبة الدفاع اليهودية" عام ١٩٨٠ بقيادة مائير كاهانا ، وباروخ جزين وخططوا لنسف المسجد الأقصى ، وفى عام ١٩٨٢ خططت جماعة سرية صهيونية مكونة من ٢٧ شخصا بقيادة يهودا عتسيون لنسف المسجد الأقصى وعدد آخر من المساجد في القدس المحتلة ،

وقد ألقى القبض على هؤلاء وسرعان ما تم إطلاق سراحهم ، ولا يزال يهودا عتسيون حتى اليوم يحرض علنا على نسف المسجد الأقصى ، وفى عام ١٩٨٩ قامت مجموعة من جماعة "جوش أمونيم" باقتحام المسجد الأقصى ، وهذه المحاولات محاولات إقتحام المسجد الأقصى تتم سنويا وخاصة في "الذكرى السنوية هدم هيكل سليمان المزعوم ، كما قام في نفس الإطار أريل شارون قبل أن يصبح رئيسا للوزراء بدخول المسجد الأقصى عام ٢٠٠٠ وقد قامت الحكومة الإسرائيلية وقتها بحراسته بـ٣٠٠ جندى إسرائيلى ، وقد كانت هذه المحاولة سببا في اندلاع انتفاضة الأقصى الفلسطينية .

ونلاحظ هنا أن المؤسسة الرسمية الإسرائيلية والتى لم تطلق بعد إشارة البدء في هدم المسجد الأقصى على أساس أن الظروف لم يتم إعدادها بعد في إطار حسابات معينة ، إلا أن تلك المؤسسة تطرح حاليا فتح المسجد الأقصى لزيارة اليهود والصلاة فيه لليهود ، على غرار ما يحدث في الحرم الإبراهيمى بالخليل ، الذي فرض عليه التقسيم الوظيفى فتحول إلى جامع وكنيسة معا ، أى تتم فيه الصلاة للمسلمين ولليهود على حد سواء ، كما أن المؤسسة الرسمية الصهيونية تقوم من وقت لآخر بعمل حفريات وأنفاق ومشروعات مشبوهة حول المسجد الأقصى وتحته يهدف زعزعة أساساته تمهيدا لهدمه أو سقوطه من تلقاء نفسه ، كما أن تلك المؤسسة الرسمية قد قامت بضم القدس رسميا بكاملها إلى دولة إسرائيل عقب احتلالها مباشرة ، وكثفت عمليات الاستيطان الإسرائيلى فيها وحولها ، وإنشاء مستعمرات وهدم بيوت الفلسطينيين فيها ومضايقتهم ودفعهم إلى ترك القدس ، وتغيير الطبيعة السكانية للمدينة ، وطمس المعالم الإسلامية

والمسيحية فيها ، بهدف تحويلها إلى الطابع اليهودى ، وهذا كله في إطار هدم المسجد كمحصلة ونتيجة ثم بناء الهيكل!!

ويعترف الصهيوني "شاحر زليجر" أنه يوجد حاليا عدد من المنظمات الإسرائيلية متفقة فيما بينها على تدمير كل مساجد القدس في أثناء صلاة الجمعة بما فيها المسجد الأقصى وذلك بهدف تدمير المساجد وقتل أكبر عدد من المصلين في نفس الوقت .

وفى الإطار نفسه تأسست ما يسمى بجماعة أمناء الهيكل عام ١٩٨٨ وحصلت على ترخيص رسمى إسرائيلى بممارسة نشاطها تحت مسمى "مؤسسة العلوم والأبحاث وبناء الهكيل" وكان مؤسسها هو "يسرافيل أرييل" ، ويقوم أعضاء هذه الجماعة المشبوهة حاليا بجمع وإعداد المواد اللازمة الخاصة ببناء الهيكل ، وقد أعدت الجماعة رسما تخطيطيا للهيكل المزمع إقامته مكان المسجد الأقصى ، ويرى هؤلاء ضرورة هدم المسجد الأقصى عاجلا أم آجلا ؛ لأن هيكل سليمان حسب زعمهم يقع تحته مباشرة ، ويقول زعيم تلك الجماعة الحاخام "مناحم مكوبر": إنه في كل الأحوال وتحت أى ظروف سوف يتم بناء الهيكل ، وسوف يتم هدم المسجد الأقصى ، وأنه في الوقت الذي سنحصل فيه على الضوء الأخضر سيتم بناء الهيكل خلال بضعة أشهر فقط باستخدام أحدث الوسائل التكنولوجية ، وأن المساجد الموجود في تلك المنطقة بما فيها المسجد الأقصى وفيه الصخرة هى مجرد مجموعة من الأحجار يجب إزالتها " .

* * *

المراهنة على الحصان الخاسر

يخطئ من يتصور أن ذاكرة الشعب المصرى ضعيفة ، وأنه يمكن أن ينسى أو يتسامح تجاه أولئك الذين استغلوا لحظات ضعف تجاه أمريكا لفرض أمور معينة أو لى ذراع المجتمع ومؤسساته باتجاه معين .

ويخطئ أكثر من يتصور أن بالإمكان المراهنة على العامل الخارجى ؛ لأنه أولا عامل غير مضمون مهما كانت الظروف ؛ ولأنه ثانيا عامل غير دائم ، ولكن الدائم دائما هو الثقة والتفاهم بين أطراف مجتمع ما خاصة إذا كان هذا المجتمع يمتلك قواسم مشتركة تجمع أكثر مما تفرق .

هذا بالطبع بالإضافة إلى أن استغلال العامل الخارجى في ظرف معين هو نوع من الخيانة الوطنية والأخلاقية لايرضى بها دين أو عرف أو وطن!!

القصة في الحقيقة تكررت كثيرا في عشرات السنين الأخيرة وخاصة مع الصعود الأمريكي كقوة عظمى منفردة ، ومع حاجة مصر أو خوف حكومتها من الضغط الأمريكي . وحوادث الفتنة الطائفية الأخيرة ليست إلا الحلقة الأخيرة في هذا المسلسل الردىء!! وإذا كان الصدق والصراحة والمكاشفة مطلوبين دائما ، فإنهم في مثل تلك الحالة أكثر طلبا وجدوي وأهمية .

في كل مرة كانت تحدث فيها أحداث مؤسفة ، ثم تصدر بيانات أو مواقف كنا نحملها على أقباط المهجر مثلا وتقول: إن هؤلاء مجرد دمية في يد الصهيونية أو المخابرات الأمريكية أو غيرها وأنهم حين يطالبون بدخول شارون مصر مثلا

أو بالتدخل الأمريكي لما يسمى حماية الأقليات أو غيرها من المطالب الأخرى أو يرصدون مجموعة من الافتراءات هن أو هناك فإنهم لا يمثلون إلا أنفسهم وأن الجسم المصرى المسيحى بريء منهم - وهذا صحيح إلى حد كبير - ولكن في كل مرة لم نجد الكنيسة المصرية تقوم بإصدار قرار حرمان لهم وبالتالى تطهر المجتمع المصرى المسيحى منهم . . . . وهكذا فإن عدم قيام الكنيسة بإصدار قرار حرمان لهم جعلهم يتمادون في غيهم وهذا أمر خطير جدا .

الأحداث الأخيرة والتى تتلخص في أن فتاة "كاثوليكية وليست أرثوذكسية" تسمى كريمة بدر رشدى ارتبطت بحب مع شاب مسلم وأرادت الزواج منه وهربت معه بإرادتها ، وهذه حادثة تتكرر كثيرا ، وقامت قيامة الكنيسة الأرثوذكسية في أسيوط - ولا ندرى ما علاقة الكنيسة الأرثوذكسية بفتاة كاثوليكية - اللهم إن لم يكن مجرد فرض العضلات وتم التهديد بإبلاغ الأمريكان - وهذا كلام متكرر - والتصميم على عودة الفتاة إلى أهلها ، وإلا فالويل والثبور وعظائم الأمور ، وتم اتهام الجميع بالمؤامرة ، الحكومة ، الشرطة ، الحزب الوطنى الحاكم . . . إلخ ، وتم تحميل الموضوع أكثر ما يحتمل ، حيث الاتهامات بخطف الفتاة وإجبارها على الإسلام - وهذا لم يحدث - وأن وراء ذلك أمين الحزب الوطنى في أسيوط . . إلخ . وأن الأجهزة الحكومية تتواطأ - وهو اتهام غريب وغير حقيقى ، المهم تم حل المشكلة كما أرادت الكنيسة تماما ، وعادت الفتاة وأفادت أنها لم تختطف أصلا ، وأن أحدا لم يجبرها على دخول الإسلام ، وأن القصة كانت مجرد قصة حب عادية تحدث في أى مكان بالعالم وهدأت المسألة بعد أن حققت الكنيسة عددا من المطالب ببناء أو استكمال بناء كنائس أو الحصول

على أراض متنازع عليها مع الدولة أو غيرها .

الخطأ هنا هو أن الكنيسة الأرثوذكسية اعتبرت نفسها جهة مفاوضات مع الحكومة ، مع أن المسألة كان يمكن أن تحل عن طريق أهل الفتاة مع الأجهزة الحكومية أو الأحزاب السياسية ، ولكن تدخل الكنيسة في الموضوع يحول الكنيسة إلى حزب سياسى وهو أمر خطير ومرفوض وغير دستورى .

في نفس التوقيت تقريبا حيث كانت السيدة وفاء قسطنطين وهى زوجة أرثوذكسية للكاهن الأرثوذكسى يوسف معوض ، وهى تبلغ من العمر ٤٦ عاما ، أى أنها امرأة كبيرة وناضجة وحسب جريدة صوت الأمة الأسبوعية ، وهى بالمناسبة جريدة غير محسوبة تماما على التيار الإسلامى ولا حتى أى تعاطف دينى بل ربما معادية للتيار الإسلامى ، فإنها كانت قد أسلمت سرا منذ عامين تقريبا وأنها تحفظ ١٧ جزءا من القرآن الكريم ، وإنها كانت تصلى وتصوم سرا ، وأنها قررت يوم ٢٧ نوفمبر ٢٠٠٤ ترك منزلها والذهاب لتعيش مع إحدى الأسر المسلمة والأمر إلى هنا يدخل في باب الحرية الشخصية ، ولا يمكن اتهام السيدة بأنها تم التغرير بها ولا إغرائها ماديا أو معنويا ، وبدلا من قبول الأمر بهدوء إلا أن قيام الكنيسة الأرثوذكسية قد قامت وتحركت قوافل من المسيحيين الأرثوذكس للاعتصام في مقر الكاتدرائية في ميدان العباسية بالقاهرة ، وحاول هؤلاء المعتصمون التظاهر وألقوا الحجارة على رجال الشرطة ، وأعلن البابا شنودة اعتكافه بدير وادى النطرون ، وبديهى أن استمرار هؤلاء المعتصمين حوالى عشرة أيام داخل الكاتدرائية يعنى أن الكادرائية توافق ضمنا على ذلك وأنها انحازت بالكامل إن لم تكن هى المحرك لهؤلاء المعتصمون ، ونحن هنا لا نقبل ولا نرفض

تظاهـر أو اعتصام هؤلاء ، ولكن نرفض أن تكون الكنيسة طرفا في الموضوع ؛ لأن هـذا يحـول الكنيسـة إلى حـزب سياسـى وهو أمر مرفوض دستوريا ، وكذلك هو مخـالف لـتراث الكنيسـة المصـرية الأرثوذكسـية القائمة على ترك ما لقيصر لقيصر ومـا لله لله وعـدم الدخـول في الشـؤون الدنـيوية ، وأيا كانت طبيعة الموضوع فإن حلـه يكـون عـن طـريق الجهـات المدنـية إذا كانت السيدة مخطوفة حقا كما ادعى المعتصـمون ، وإذا كانـت قد أسلمت بمحض إرادتها فلا شأن لاحد بها ، واستمر الضـغط والـتلويح باسـتدعاء الأجانـب ، وصدرت هتافات من المعتصمين أقل ما يقـال فـيها أنهـا خيانة وطنية ، واضطرت الحكومة طبعا إلى تهدئة الأحوال بإعادة المرأة إلى الكنيسة .

وقد لوحظ أن السيدة لدى عودتها أو أحد من المسؤولين بالكنيسة لم يزعم أن السـيدة اختطفـت ، إذ لـو كانـت قـد اختطفـت حقا لتم إعلان ذلك بجلبة كبيرة ، ونحـن أمـام احـتمالين: أن السـيدة بالفعل أسلمت بإرادتها ولكن تم الاتفاق معها عـلى السـكوت وكتمان إسلامها تهدئة للأمور وهناك رواية صدرت في بيان لعدد مـن المـثقفين المصـريين تقـول ذلـك وتـتهم الحكومـة بالضعف ، وأن الأزهر أقنع السـيدة بإمكانـية كـتمان الإسـلام لمصـلحة المجتمع وتهدئة للأمور ، وأظن أن هذا قريـب مـن الحقـيقة ، وإمـا أن السـيدة كانـت عـلى خلافـات مع زوجها فتركت المنزل ، وأيا كان الأمر فما شأن المسلمين بذلك وما شأن الدولة ، وما الداعى إذن للحديث عن الإكراه للإسلام أو خطف السيدة أو الهتاف لشارون أو بوش!!

هـدأت العاصـفة إذن ، ولكـن الجـرح غير نظيف ، والإحساس بوجود ابتزاز كنسـى للمجـتمع والحكومة ، والإحساس كذلك بغياب منظمات حقوق الإنسان

التي سكتت على مناصرة المرأة في حرية اعتقادها ، وهو مايؤكد الاتهامات الموجهة لتلك المنظمات بازدواج المعايير ، وكذلك فإن ما حدث يترك مرارة في حلق المجتمع ، وفى كل الأحوال فإن الحقيقة - ولو وجه الله تعالى ، وبدون أى عقد أو ضغوط ، تقول: إن المسيحيين في مصر "حوالى ٦ , ٥% معظمهم أرثوذكس" هم أسعد أقلية في العالم ، بل إن التيار الوطنى بما فيه التيار الإسلامى لا يعتبرهم أقلية حيث إن لهم نفس ثقافة المجتمع ومعاييره الأخلاقية .

ويجب هنا التنبيه على عدد من الحقائق كالتالى:

- إن الكنيسة المصرية تاريخيا وقفت ضد كل محاولات التذويب وتمسكت باستقلالها ودفعت ثمنا باهظا من الشهداء خاصة إبان الحكم الرومانى حتى لا تخضع لكنيسة القيصرية ولآراء قيصر .

- إن عدم التدخل في الشؤون الدنيوية كان ومن المفروض أن يستمر سمة رئيسية للكنيسة المصرية .

- أن ما يحدث الآن خطير وجوهرى واستراتيجى وهو خروج للكنيسة عن تقاليدها ، وإذا كنا تقول ذلك فإننا لم نفقد الثقة في مجموع المجتمع المسيحى المصرى الذي سوف يصحح يوما تلك الأخطاء الفادحة ويعزل القطاع الانعزالى داخل الكنيسة المصرية ويعيد لها وجهها الوطنى الصحيح والتقليدى والثابت .

* * *

هل ننتظر حتى يقع العدوان على سوريا

المخطط الأمريكي الاستراتيجى ، أو بالأحرى الغربى في صورته الأخيرة الأمريكية هو مخطط تقليدى ومعروف ، والصراع مع الحضارة الأوروبية صراع طويل ممتد في الزمان والمكان ولم ينقطع منذ قرون طويلة ، وآخرها الصراع مع الاستعمار ثم الصهيونية باعتبارها أحد تجليات المشروع الغربى ، وهكذا فإن احتلال العراق والحديث عن ضرب سوريا ولبنان ثم مصر والسعودية وإيران . . . إلخ . أمر ليس مستغرب ، والجديد فيه فقط أنه أصبح خطة معروفة ومكشوفة بشر بها كتاب اليمين الأمريكي الأصولى "المحافظون الجدد" منذ عشر سنوات على الأقل وجاءت إدارة بوش الأولى ثم الثانية لتدشين هذا المخطط ومن هنا فإن الحديث عن إمكانية وقوع عدوان أمريكى على سوريا هو حديث عن خطة معروفة ومعتمدة ، ويبقى الطريقة والظرف والزمن هو المتغير ، فحسب الظروف الموضوعية إقليميا وعالميا تتحدد الخطة والزمن والطريقة ، وكانت الإدارة الأمريكية قد أعدت خطة سريعة وتحرشت بالفعل عن طريق إسرائيل وعن طريق متحدثيها الرسميين بسوريا ، إلا أن الفشل الأمريكي الذريع في العراق أجل المسألة ولكن لم يلغيها ، وبالتالى فإن للمقاومة العراقية فضل كبير على تأخير العدوان على دول مثل سوريا ولبنان وإيران بل ومصر والسعودية ، ومن الضرورى دعم تلك المقاومة ولو من باب حماية النفس .

على كل حال فإن المسألة يبدو أنها بدأت تأخذ طابعا خطيرا في اتجاه تجهيز

المسرح الإقليمى والدولى للعدوان الأمريكي على سوريا ، وهناك أخبار أن الخطة التي أعدها المحافظون الجدد في هذا الصدد موضوعة الآن على مكتب الرئيس الأمريكي جورج بوش الابن ، والخطة ذات مراحل متعددة ولكن ما يؤكد أنها بدأت بالفعل حتى لو كان تنفيذ مراحلها سوف يستغرق وقت أطول ، إن الاتصالات بدأت على قدم وساق مع ما يسمى الانعزاليون اللبنانيون ، وكذا المعارضة السورية - قطاع صغير وهاش منها ويمن أن :طلق على هؤلاء اسم التحالف الشمالى على غرار التحالف الشمالى في أفغانستـ ، والقوى العراقية التي تعاونت مع الغزو الأمريكي ، وهذا موقف خائن أيا كانت الأسباب والمبررات التي يمكن أن يكون بعضها صحيح ولكن المعارضة السياسية المشروعة شيء واستنكار أى تجاوزات بشأن حقوق الإنسان أو التعددية السياسية أو غير شيء آخر ، والتحالف مع أعداء الأمة شيء آخر تماما .

ما يؤكد أن الخطة بدأت في مراحل التنفيذ أن الولايات المتحدة استصدرت قرار دولى من مجلس الأمن وقد حصلت عليه بالفعل يطلب تحسين ملفها في شأن حقوق الإنسان ، والامتناع عن استضافة المنظمات الفلسطينية ، والسماح بتفكيك حزب الله ومحاكمة قادته ، والتوقف تماما عن إنتاج أسلحة دمار شامل والسماح لمفتشين أمريكيين أو دوليين بالتفتيش عليها داخل سوريا وهو ما يذكرنا بالسيناريو العراقى ، وبديهى أن تلك طلبات لا يمكن قبولها وإلا كان نوعا من التهاون الوطنى ، وعلى كل حال فإن الخبرة التاريخية تقول: إنه حتى ولو استجابت دولة لطلبات الأعداء فإن شهية الذئب الجائع ستنفتح للمزيد من الطلبات ، ومن ثم فإن الموقف الصحيح - العملى هو مواجهة المسألة بجدية على

أكثر من مستوى ، تسليح الشعب السورى والإعداد لمقاومة شعبية على غرار المقاومة العراقية ، السماح بالتعددية السياسية وإدماج المعارضة في مشروع مواجهة أمريكا وإسرائيل ، الإفراج عن المزيد من المعتقلين السياسيين ، وقد نفذت سوريا بالفعل أشياء من هذه الأمور ومطلوب المزيد ، وكذلك على العرب والمسلمين والقوى المناهضة للاستكبار في العالم أن تبنى جبهة مناهضة لأمريكا وأن تتحرك بطريقة تمنع بها العدوان على سوريا وليس انتظار وقوعه ثم استنكاره ، ولاشك أن على مصر والشعب المصرى دورا كبيرا في هذا الصدد ؛ لأن بعد سوريا مصر وحتى لا نقول: أكلت يوم أكل الثور الأحمر ؛ لأن الثور الأبيض أكل ثم ها هو الذئب يسعى لأكل الثور الأحمر ، ولن يفلت الأسود اللهم إلا إذا تحرك الجميع قبل فوات الأوان ، يجب أن تفهم أمريكا أن مصالحها مهددة وأن العدوان على دمشق لن يمر بسهولة ، خاصة أن لدمشق علاقات طيبة مع قوى استشهادية مثل حماس والجهاد وحزب الله وقادرة على تهديد مصالح أمريكا بالفعل .

من المطالب الأمريكية لسوريا هو الانخراط في العملية السلمية بين إسرائيل والعرب ، أى إنهاء أى مواجهة أو نضال ضد إسرائيل ، وهذا يعنى أن النفوذ الصهيوني سيلعب دوره لدفع إدارة بوش للعدوان على سوريا ، كما فعلت في حالة العراق ، وذلك من أجل مصلحة إسرائيل .

التحرش إذا بدأ بقرار مجلس الأمن المذكور ثم قانون محاسبة سوريا من الكونجرس الأمريكي ، ثم تسريب معلومات تتحدث عن دعم سوريا للمقاومة العراقية ، وسماحها بمرور المجاهدين العرب والمسلمين الراغبين في الذهاب إلى

العراق ، بل ووجود معسكرات تدريب داخل سوريا لهؤلاء ، وأن على سوريا أن تعمى حارسا لدى الإدارة الأمريكية على الحدود السورية العراقية وإلا فإنها ستتعرض للعدوان والعقوبات . . إلخ .

وفى الحقيقى فإن سوريا أبدت قدرا هائلا من المرونة ومع ذلك فإن كل ما فعلته لا ولن يرضى الأمريكيين: ﴿ **ولن ترضى عنك اليهود والنصارى حتى تتبع ملتهم** ﴾ (البقرة) صدق الله العظيم . . . ويبقى القبول بالمطالب حتى وإن جزئيا يعنى أن المطالب ستنهال من جديد ، أما المواجهة فهى نصر أو شهادة ، وقد يكون في المواجهة موت ولكن بعزة ، أما الاستسلام فهو موت أيضا ولكن بدون عزة ولا كرامة .

* * *

أبو مازن على رأس السلطة

هـل يختلف محمـود عـباس أبـو مـازن كرئيس للسلطة الفلسطينية عن محمود عباس أبو مازن قبل أن يصبح رئيسا؟!

ذلـك هـو السـؤال الجوهـرى الـذي سـوف تحـدد إجابـته العديـد من الأمور والقضايا والسيناريوهات في فلسطين المحتلة والمنطقة .

محمـود عـباس " أبـو مـازن" مهـندس أوسـلو ، والـذي وضع كل ثقله خلف مشـروع التسـوية بأى ثمن ، والذي كان يرفض اندلاع الانتفاضة أصلا ثم خفف موقفه هذا عن طريق القول برفض عسكرة الانتفاضة ، وهو مصطلح مراوغ ذلك أن الذي عسكر الانتفاضة هو القمع الإسرائيلى الهائل وانسداد أفق أى تسوية بها القليل من العدل!!

والانتفاضـة والعمـليات الفدائية ما هى إلا رد مشروع على حالة الظلم والقهر الـتي يعانـيها الشـعب الفلسطينى!! وهو أيضا من أب إيرانى جاء إلى فلسطين المحتلة في بدايـة القـرن الماضى ، ثم استوطن بها ، ثم شارك مع ياسر عرفات في بناء حركة فـتح ، ثم منظمة التحرير الفلسطينية ، ومنظمة فتح هى حركة وسطية يمكن أن تضم الاستشـهادى والانـتهازى الطاهـر والفاسـد عـلى حـد سـواء ، ولكنها أكبر حركة فلسطينية ، ولعل هذا ما يفسر فوز محمود عباس بالانتخابات .

الانـتخابات الفلسـطينية ، والتى حصل فيها محمود عباس أبو مازن على حوالى ٦٠ % مـن أصـوات الذيـن أدلـوا بأصواتهم ، وكان عدد الحضور حوالى ٦٠% أيضا ، أى

أنه بافتراض أن كل من انتخبه يعنى شخصه ومشروعه قد حصل على تفويض ناقص ؛ لأنه بحسبة بسيطة قد حصل على ٣٦% من مجموع الناخبين الفلسطينيين مع الأخذ في الاعتبار أن كل حركات المقاومة وخاصة حماس والجهاد ، وكذا كل الذين يرفضون بشكل مبدئى اتفاق أوسلوا قاطعوا الانتخابات ترشيحا وتصويتا ، ولكنهم لم يضغطوا باتجاه حشد الشعب الفلسطينى نحو المقاطعة ، وهذا أمر له أسبابه ودلالاته ، فهم كانوا يعرفون أن محمود عباس أبو مازن الرجل الثانى في منظمة التحرير وحركة فتح بعد عرفات كان سينجح حتما ؛ لأنه الرجل الثانى ، والمؤسسة في عالمنا العربى عادة ما تدفع رجالها بالترتيب التسلسلى للقيادة بصرف النظر عن الرأي فيه أو مشروعه ؛ ولأن أبو مازن كان الرجل الثانى فقد اندفع إلى الصدراة مباشرة بعد موت عرفات رغم أنه كان مستبعد ، وكان لا يحظى بتأييد رجال السلطة لدرجة أنهم هتفوا ضده أثناء رئاسته للوزراء بعد خلافه مع عرفات وقالوا عنه: إنه قرضاى فلسطين ، ولكن بمجرد موت عرفات عاد هؤلاء وأيدوه ، وهذه هى طبيعة السلطة في بلادنا ، وطبيعة ارتباط المنح والمنع بتأييد الرجل الأول ، وهكذا فإن انتخاب أبو مازن بـ٦٠% لايعنى تأييد مشروعه ، بل يعنى أن حركة فتح لا تزال هى المؤثرة الأولى في الواقع الفلسطينى خاصة مع غياب حماس والجهاد ، ولعل حصول أبو مازن على ٦٠% هى رسالة من الشعب الفلسطينى بتفويض ناقص لأبى مازن ، بالإضافة إلى ذلك فإن امتناع حماس والجهاد عن حشد الشعب الفلسطينى باتجاه مقاطعة الانتخابات كانت لأسباب ترجع إلى عدم استفزاز الرجل فيندفع بدوره إلى مشروع الحرب الأهلية وهو المشروع الذي رسمه له الإسرائيليون والأمريكيون وتحدثوا علنا عن ذلك ووضعوا شرطا لبدء المفاوضات قيام أبو مازن بتفكيك البنية التحتية لما أسموه جماعات العنف

ووقف التحريض ووقف الانتفاضة!! وكذلك لإثبات أنه حتى أبو مازن "الأكثر اعتدالا إزاء إسرائيل وأمريكا" لن يأخذ شيئا ؛ لأن إسرائيل وشارون تحديدا لن تعطى شيئا!! وبالتالى الانهيار الكامل لمشروع أوسلو ومشروع التسوية ؛ لأنه ليس بعد أبو مازن أحد!! . ثم إن من الصعب على أبو مازن القبول بما هو مطروح إسرائيليا اللهم إلا إذا كان قد جاء لتصفية القضية تماما ، وكذلك الصدام مع رجل لا يتمتع بشعبية حقيقية مثل أبو مازن وله تصريحات ضد الانتفاضة والمقاومة أسهل من الصدام مع رجل آخر يلوح بالتشدد ويمارس الاعتدال .

انتخاب محمود عباس بهذه النسبة لا يعنى قبول الشعب الفلسطينى لمشروعه السياسى ؛ لأن مروان البرغوثى مثلا عندما أعلن ترشيحه ، وهو من صقور فتح - ورغم وجوده بالسجن رشحته استطلاعات الرأي للفوز على أبى مازن ، وهو أمر له دلالته في فلسطين .

هل سيؤدى محمود عباس ما هو مطلوب منه أمريكيا وإسرائيليا ، وبالتالى يصطدم مع شعبه ويؤدى إلى تفجير حرب أهلية ، وهو الخيار الذي لم يقع فيه عرفات سابقا ولا غيره ، وبالتالى يدخل محمود عباس التاريخ كرمز للفتنة ، أم يتمسك حتى ببعض الثوابت الفلسطينية ، وإن تمسك بها فإن إسرائيل وأمريكا لا ترضيان بذلك ، وهكذا فالرجل في مأزق حقيقى ، خاصة وإن حجم الأوهام والأحلام المرتبطة به وبالذين أيدوه عاليا جدا باعتباره الرجل الذي ترضى أمريكا وإسرائيل عنه ، فإذا لم يأت بالسمن والعسل والحل المنشود أو بعضا منه ، فإن مبرر وجوده ينتفى وإسرائيل وأمريكا لن تعطيا شيئا ؛ لأن هؤلاء يحكمهم منطق عقائدى أصولى لن يفلح معه اعتدال أبى مازن .

المطلوب من أبى مازن أمريكيا وقف الانتفاضة وقص أجنحة الحركات المقاومة ثم التصدى للفساد الإدارى داخل السلطة ، وكلها بالتالى صعبة ، وبداية فإذا أوقف أبو مازن الانتفاضة وقص أجنحة حركات المقاومة ، ثم ذهب للمفاوضات فهل يحصل على شيء ، ولا يمكن التفاوض أصلا بعد حرق الأوراق الضاغطة ، أليس هذا مخالفة لأبسط قواعد علم السياسة والمفاوضات؟ ثم الأخطر من هذا إذا حاول محمود عباس تصفية شهداء الأقصى ، وهذا مطلب إسرائيلى أولى ، وهم تابعون لحركة فتح ، ويتلقون مرتباتهم من قيادة فتح أى من أبى مازن الأن ، وهؤلاء بدورهم قد قطعوا كل أحبالهم ، وحرقوا كل سفنهم ، وهم مطلوبون للقتل والاعتقال إسرائيليا ، أى أن مستقبلهم في مهب الريح ، فهل يقبل هؤلاء بذلك بسهولة أم يكون البديل هو اغتياله على يد صقور فتح هؤلاء وهو السيناريو الذي رجحه أكثر من مراقب فلسطينى وعربى ، تم بفرض أنه سيعطيهم مرتباتهم ولن يحل حركتهم ولكنه سيوجه بنادقهم تجاه حماس والجهاد ، فهل يقبل استشهاديو شهداء الأقصى بذلك الدور المشبوه ، بالتأكيد قطاع كبير منهم لن يقبل وبالتالى فالمأزق موجود .

الشيء الوحيد الإيجابى في الانتخابات الفلسطينية الأخيرة هى أنها أثبتت أن من الممكن في ظل ظروف صعبة جدا فما بالك بالسهلة إجراء انتخابات تعددية رئاسية ، وبالتالى فإن حجة الأنظمة الشمولية التي ترفض هذا عربيا لم تعد ذات موضوع ، وهو أمر محرج لتلك الأنظمة بكل تأكيد .

* * *

تغييرات استراتيجية في الكنيسة المصرية

ماذا حدث للكنيسة المصرية . . وهل هذا الذي حدث هو نوع من التغير التكتيكى أم أنه تغير استراتيجى يضرب عميقا في بنية وتركيب وتقاليد وتراث الكنيسة بل وعقائدها الدينية أيضا ، وهل الشأن الكنسى المصرى هو شأن مسيحى خالص ، أم أنه جزء من التاريخ الوطنى المصرى ومن ثم العربى ، بل والإسلامى ، بمعنى أن من حق المسلم أيضا على قدم المساواة مع المسيحى المصرى والعربى أن يهتم بشؤون الكنيسة ، باعتبارها كنيسته وباعتبارها جزء من التركيب الحضارى والثقافى والتاريخى والوطنى المصرى والعربي؟!

وفى الحقيقى فإن الاقتراب من هذه الأسئلة الجوهرية يقتضى في البدء فهم تقاليد الكنيسة المصرية وتاريخها وتراثها بل وعقائدها أيضا . دخلت المسيحية إلى مصر مبكرا جدا ، على يد القديس مرقص أحد حواريى المسيح عليه السلام ، وقد واجه المسيحيون في مصر موجة بعد موجة من الاضطهاد الرومانى في ذلك الوقت قبل أن تدخل الدولة الرومانية في المسيحية ، خصوصا في فترة حكم "ديسيوس" و"خاليريان" و"ديوكليتان" في القرن الثالث الميلادى وبداية القرن الرابع ، وحينما دخلت الإمبراطورية الرومانية في المسيحية على يد الإمبراطور "قسطنطين" فإن الاضطهاد قد توقف قليلا ليعود بعدها أشد قسوة تحت دعاوى أخرى ، ذلك أن الإمبراطورية حاولت السيطرة على الكنيسة المصرية وإخضاعها لأوامر الإمبراطور ، إلا أن الأب "اثناسيوس" رفض ذلك وتمسك بعقائد الكنيسة

المصرية التقليدية في عدم الخلط بين السلطة الزمنية والسلطة الروحية وكتب إلى الإمبراطور الروماني "قسطانطيوس" قائلا: " لا تقحم نفسك في المسائل الكنسية ولا تصدر إلينا أمرا بشأن هذه الكنائس ، لقد أعطاك الله المملكة وعهد إلينا بأمور الكنيسة وليس مسموحا لنا أن نمارس حكما أرضيا وليس لك سلطان أن تقوم بعمل كنسي" .

وكانت النتيجة أن تعرض الأب "أثناسيوس" للمطاردة من قبل سلطات الدولة الرومانية التي وضعت جائزة لمن يأتي برأس "أثناسيوس" ، واستمر البطريرك أثناسيوس مطاردا لمدة عشرين عاما كاملة من خلالها الرهبان والفلاحون ، وفى عام ٤٥١ أكدت الكنيسة المصرية استقلالها العقائدى حيث رفض الأنبا "ديوسكورس" مقررات مجمع كالدونيا حول طبيعة المسيح ووقف الشعب المسيحى المصرى معه ، وقام الرومان بخلع "ديوسكورس" وفرضوا بطريرك جديد - مصنوع في روما - إلا أن الشعب المصرى المسيحى رفض ذلك ، ومنع الناس البطريرك الجديد من دخول الكنيسة المصرية - وهتفوا ضده: ارجع يا محروم - وقام جنود الإمبراطورية بإدخاله بالقوة وأحدثوا مذبحة هائلة للناس على أبواب الكنيسة ، وشهدت تلك الفترة أسوأ فترات الاضطهاد الرومانى ضد المسيحيين المصريين ، وسقط الكثير من الشهداء ، وعرف هذا العصر بعصر الشهداء - وهو من أهم عصور ورموز الكنيسة المصرية حتى الآن - وعاش الرهبان الأرثوذكس المصريين في سراديب تحت الأرض واستمروا في معارضة الاندماج في الكنيسة الرومانية رغم الاضطهاد والمطاردة .

وفى عهد الإمبراطور الرومانى "هرقل" حاول هذا الإمبراطور أن يستثمر

النفوذ الذي حصل عليه من حملاته العسكرية الناجحة ضد الفرس وأن يفرض بالقوة توحيد الكنيسة المصرية والكنيسة البيزنطية إلا أن المحاولة فشلت رغم دمويتها ووحشيتها .

وهكذا دشنت الكنيسة المصرية بالدم والدموع استقلالها العقائدى عن الكنيسة الرومانية ، واستقلالها العقائدى عموما ، كما دشنت رفضها المطلق للخلط بين السلطتين الدينية والزمنية .

وفى عهد البطريرك القبطى بنيامين جاء الفتح الإسلامى إلى مصر ورحب به المسيحيون للخلاص من الاضطهاد الرومانى وللثقة في عدل وسماحة الإسلام ، وأعطى الفاتحون المسلمون عهدا بالسلامة والأمان للبطريرك بنيامين الذي كان مختفيا من الاضطهاد الرومانى ، واستقبل عمرو بن العاص البطريرك بنيامين وأكرمه وقال له: "جمع بيعك ورجالك اضبطهم ودبر أحوالهم" وظلت العلاقة ودية بين المسلمين والمسيحيين في عمومها على قاعدة عدم التدخل في الشؤون الكنسية من ناحية الحكام المسلمين ، وعدم تدخل الكنيسة في السياسة من ناحية البطاركة وهو ما يتفق مع العقائد والتقاليد الكنسية المصرية .

وعندما ظهر الصليبيون في المنطقة منذ عام ١٠٩٥م ، فإن المسيحيين المصريين لم يظهروا أى قدر من التعاطف معهم ، وأصدر القادة الصليبيون قرارا بمنع المسيحيين الأرثوذكس المصريين من الحج إلى بيت المقدس بدعوى أنهم ملحدون - وليم سليمان قلادة الإسلام والمسيحية على أرض مصر .

وعندما احتل الصليبيون دمياط قاموا بخطف ٥٠٠ طفل أرثوذكسى مصرى

سـنة ١٢١٩م أثناء الحملة الصليبية الخامسة وتم تعميدهم وفقا للعقائد الكاثوليكية - نفـس المـربع السـابق - وقـام الملـك لويس التاسع ملك فرنسا بفرض بطريرك كاثولـيكى عـلى مديـنة دمـياط عـندما احتـلها جنوده ، ولم تتوقف محاولات تغيير عقـائد الكنيسـة المصـرية وتقاليدها ، ولم تتوقف عملية التمسك بتلك العقائد التي أصبحت علما على الكنيسة المصرية أيضا .

ففـى عـام ١٧٦٩ بعـث بابا روما مندوبا عنه إلى مصر يحمل رسالة يدعو فيها الـبطريرك المصـرى "يؤانـس الثامن عشر" يدعوه فيها إلى الاتحاد بين الكنيستين إلا أن الـبطريرك "يؤانـس" رفـض تلـك الدعـوة وكلـف أحـد كبار اللاهوتيين بالرد علـيها ، وجـاء الـرد مشـتملا عـلى أقصى أنواع العنف والسخرية - كامل صالح نخلـة - سلسـلة تاريخ الباباوات ، ومع ظهور الاستعمار لم تتوقف تلك المحاولات عـن طريق حملات التبشير التي استهدفت تغيير مذهب المسيحيين المصريين قبل أن تسـتهدف تنصير المسلمين ، وتصدت الكنيسة المصرية لتلك الحملات ، كما شارك المسـيحيون المصـريون إخوانهـم المسـلمين في التصـدى للتغريـب والنضـال ضـد الاسـتعمار ، د . ولـيم سـليمان قـلادة - الكنيسـة القبطـية تواجـه الاسـتعمار والصهيونية .

وعـندما ظهـر مـا يسـمى بمجلـس الكنائس العالمي ، رفضت الكنيسة المصرية الانضـمام إلـيه معتبرة إياه جزء من المخطط الأمريكي ، إلا أن ذلك تغير فيما بعد على يد البابا شنودة .

نلاحظ خلال ذلك السرد التاريخى أن:

- الكنيسة المصرية ترفض الخلط بين السلطة الزمنية والسلطة الروحية .

- إن عقائد الكنيسة المصرية مختلفة عن عقائد الكنائس الغربية .

- إن المسيحيين المصريين تعرضوا لاضطهاد شديد ثم محاولات للتذويب ولكنهم تمسكوا بتقاليدهم .

- بديهى أن هناك خط هائش في المسيحيين المصريين - تعاون مع الأجانب ولكن ذلك كان مرفوضا من الكنيسة - وهو على كل حال موجود أيضا لدى المسلمين وبالتالى فليس له دلالة .

تغييرات إستراتيجية:

في الثلاثين عاما الأخيرة ، حدثت تغييرات استراتيجية خطيرة في بنية وتركيب الكنيسة المصرية . ويمكننا أن ندخل العديد من العوامل في أسباب هذا الأمر منها صعود نجم الولايات المتحدة وإسرائيل ومحاولة الولايات المتحدة استخدام ورقة الأقليات كنوع من التحالف الشمالى في مصر ، ومنها زيادة نفوذ المسيحيين المصريين المهاجرين "أقباط المهجر" واختراقهم من قبل أجهزة استخبارات غربية ، انسداد أفق التعبير الديمقراطى في مصر ، ولكن السبب الرئيسى في رأينا يرجع إلى محاولة البابا شنودة تحديدا الاضطلاع بدور سياسى - حكم محكمة القضاء الإدارى في الدعوى رقم (٩٣٤) لسنة ٣٦ قضائية ، وهو أمر خطير على مستوى التخلى عن التقاليد الكنسية المصرية وعلى مستوى توتير العلاقة مع المسلمين ، والمراهنة على العامل الخارجى لتحقيق بعض المطالب ، ونحن طبعا لا نرفض أن يطالب المسيحيون المصريون بما يشاؤون ، ولكن ليس باستخدام الكنيسة

وقـيادتها ، ولكـن عـن طـريق المجتمع المدنى - المجالس المحلية مثلا - لأن معنى أن يصـبح الـبطريرك قـائدا سياسـيا وهـو مطاع دينيا بالطبع وممخالفته نوع من الإثم عـلى عكـس شيخ الأزهر مثلا الذي يمكن لأى مسلم مخالفته دون أن يكون ذلك وقوعـا في الإثـم ، معنى ذلك أن ينقسم المجتمع إلى حزبين كبيرين: حزب مسيحى بقـيادة البطريرك ، وحزب إسلامى بقيادة رئيس الجمهورية ، وفى الحقيقة فإن هذا السـلوك الـذي ظهـر في أكـثر مـن حادثـة مـنذ حادثـة الخانكة الأولى عام ١٩٧٢ وانـتهاء بالحوادث الأخيرة ، وكانت محكمة القضاء الإدارى في مصر ، وتقرير هيئة مفوضـى الدولـة قـد أشـارت إلى هـذا السلوك في حكمها الصادر في القضية رقم (٩٧٤) لسـنة ٣٦ قضـائية ، هـذا السلوك يكرس الطائفية ويكرس الاستقطاب في المجتمع ، ولا يعـنى هـذا أن الطائفـية والاسـتقطاب لا تسـتند إلى أسباب أخرى ، ولكـن دور قـيادة الكنيسـة هـنا دور محـورى ، فكـان مـن الممكـن مثلا أن تصدر الكنيسـة المصـرية قـرار حرمان بحق ما يسمون بأقباط المهجر ، وهذا كان سيقضى عـلى فتـنة هـؤلاء في مهدهـا ، وأن تظـل مقتصـرة عـلى الأمـور الروحـية وتترك المطالـب الفـئوية والسياسية والمهنية وبناء الكنائس . . إلخ لمؤسسات المجتمع الذي كالأحزاب والجمعيات والصحافة والمؤسسات التشريعية وغيرها .

عــلى كــل حــال فــإن هــذا الســلوك في رأى عــدد مــن الــرموز المسـيحية المصـرية كالأسـتاذ جمـال أسـعد والدكـتور رفـيق حبيـب وغيرهمـا فـيه خـروج عــلى التقالـيد الكنسـية ، وفـيه خطـورة عــلى مصــالح المسـيحيين المصـريين ؛ لأن المراهـنة هـنا عـلى العـامل الخـارجى أمـر غـير مضـمون كمـا أنـه غير مبرر أخلاقيا .

ولأن ما يحدث الآن . وما حدث في الثلاثين عاما الأخيرة أمرا استراتيجيا يمس بنية الكنيسة المصرية والعقيدة الأرثوذكسية المصرية ، ويمس سلامة العلاقة بين أطراف المجتمع ويمس الأمن القومى المصرى والعربى ، فإن الأمر يستدعى قدرا هائلا من الاضطلاع بالمسؤولية والصراحة والمكاشفة ويستدعى حوارا واسعا ليس بين المسلمين والمسيحيين ، أو الدولة والكنيسة ، ولكن داخل إطار الجماعة المسيحية ذاتها ؛ لأن التاريخ يقول: إن من يراهن على العامل الخارجى هو أول من يدفع الثمن وآخر من يستفيد .

* * *

الانسحاب الســورى من لبنــان يحل المشكلة أم يعقدها

دخلـت القـوات السـورية إلى لبـنان بناء على قرار من جامعة الدول العربية ، وكـان هـذا جـزء مـن حـل مشكلة الحرب الأهلية أو تحجيمها ، وبديهى أنه لولا دخـول القوات السورية إلى لبنان فى ذلك الوقت لكان قد تم القضاء الكامل على القـوى الانعزالـية فـى لبـنان الـتى كانـت متمـثلة فـى حـزبى الكتائب والأحرار "المارونـيين" مـع قوى مارونية أخرى صغيرة ، حيث إن التحالف العروبى التقدمى فـى ذلك الوقت كان يضم أحزاب السنة والدروز وأحزاب أو قوى شيعية كامنة ، والمقاومـة الفلسـطينية الـتى كانـت موجـودة فـى لبـنان فـى ذلـك . . وهكذا فإن القـوات السـورية كانـت بمـثابة سـور حمايـة بطـريقة أو بأخـرى للقوى المارونية ، وبديهـى أن سوريا فى ذلك الوقت لم تقصد ذلك ولكن ذلك كان جزءا من تحقيق الأمـن وتهدئة الأوضاع وبديهى أن أمرا كهذا وجد ترحيبا أمريكيا وفرنسيا ؛ لأنه لا القـوات الأمريكـية ولا الفرنسـية - بسـبب أوضـاع كثيرة - كانت قادرة على حمايـة القوي الانعزالية فى ذلك الوقت . . ثم اجتاحت إسرائيل لبنان عام ١٩٨٢ ، وتـنكرت القـوى المارونـية الانعزالـية لفضـل سـوريا - خاصـة فـى تل الزعتر - وانحـازت بالكـامل للمشـروع الصـهيوني وحاربـت معه ، ثم نظمت مع إسرائيل صـابرا وشـاتيلا وهـى مذبحـة مـروعة نفذهـا شـارون وحلفائـه مـن الانعزالـيين اللبنانيين .

وتم توقـيع اتفـاق ١٨ أيـار وتحـالف النظام الماروني مع إسرائيل ووصل بشير

الجميل ثم أمين الجميل إلى الرئاسة ، ولكن القوى الوطنية واللبنانية ما لبثت أن انتزعت زمام المبادرة رغم خروج القوات الفلسطينية من لبنان ، ثم ما لبث حزب الله والمقاومة اللبنانية عموما أن اندلعت وتعاظمت ، وتغيرت المعادلة تماما لصالح القوى الوطنية اللبنانية ، ولولا الوجود السورى أيضا لتم سحق نهائى للقوى الانعزالية .

نحن طبعا مع وحدة سوريا ولبنان ، بل مع الوحدة العربية بالكامل والوحدة الإسلامية إن أمكن - ولكن هذا موضوع آخر وهذه المسألة الوحدوية لا تبرر طبعا أى ممارسات تغضب الشعب اللبانى من الوجود السورى فى لبنان ، ولكن هناك فرق بين رفض ذلك واستغلاله من قبل قوى لبنانية انعزالية بتحريض من الأجانب .

المهم أن إسرائيل انسحبت فى النهاية من جنوب لبنان ، ثم جاء مشروع الهيمنة الأمريكى على المنطقة واحتلال العراق ، ومن ثم استهداف سوريا ولبنان ، وبدأ تشكيل تحالف شمالى فى لبنان يضم القوى الانعزالية عموما ، وهناك أحزاب مارونية وقوى مارونية ومسيحية رفضت الانخراط فى ذلك المخطط ، المهم أنه تم رفع شعارات حول السيادة ، وهو حق يراد به باطل ، وشعارات حول التجاوزات السورية ضد اللبنانيين ، وهو حق أيضا يراد به باطل ، وأخطأت القيادة السورية حين جددت لإميل لحود وهو رجل يستحق الاحترام ، ولكن كان من الممكن إيجاد شخصية مارونية موالية للمشروع العروبى وهم موجودون بكثرة ، هذا الخطأ التكتيكى استغلته قوى المعارضة الانعزالية والقوى الدولية المتربصة بالعرب وتم استصدار قرار دولى (١٥٥٩) ينص علي

انسحاب القوات السورية من لبنان ، وتفكيك حزب الله ، وضمنا توطين الفلسطينيين اللاجئين فى لبنان ، وبديهى أن أى قوة وطنية كانت سترفض ذلك ولكن تم استدراج الدروز - وليد جنبلاط - وإلى حد ما تيار الرئيس رفيق الحريرى ، ربما على قاعدة أن الزمن هو الزمن الأمريكى فى المنطقة أو نوع من القلق تجاه زيادة التدخل السورى فى الشأن اللبنانى بلا مبرر أو خلافات شخصية مع إميل لحود . . وتم بالفعل استقطاب قطاع من الشارع اللبنانى تحت شعارات السيادة والتحرر ، وزاد ذلك الاستقطاب بعد عملية اغتيال الحريرى - وهى عملية غير مبررة أيا كان فاعلها أو من يقف وراءها .

المهم تحت الضغط جاء القرار السورى - الصحيح - للانسحاب من لبنان . . ولكن هل هذا يحل المشكلة . . من المفروض أن الانسحاب السورى من لبنان يسحب حجج المعارضة ، ويهدئ الشارع الغاضب من بعض الممارسات السورية ، ولكن أمريكا لن ترضى بذلك وستطلب تفكيك حزب الله ونزع سلاحه . . وهنا تكون على المحك الحقيقى لإثبات وطنية المنخرطين فى المعارضة من السنة والدروز .

فالانسحاب السورى قد تحقق ، والسيادة تحققت ، إذا ما الداعى للاستمرار فى المخطط الأمريكى الصهيونى ، بديهى أن تنسحب هذه الأطراف من المعارضة . وإلا انعزلت عن جماهيرها وألا يبقى فى المعارضة إلا فرقاء "قرنة شهوان" وهؤلاء إما أن ينصاعوا للإرادة اللبنانية العامة فى التحالف مع سوريا والانخراط فى المشروع العربى واحترام المقاومة وسلاحها وعدم التحالف مع أمريكا وإسرائيل وفرنسا ، وإما أنهم سيصطدمون بالمقاومة ، وبديهى أن ميزان

القوى العسكرية هو لصالح المقاومة وحلفائها وجمهورها ، وأن القوى الوطنية اللبنانية عموما والمقاومة على رأسها خصوصا قادرة على سحق (فرقاء قرنة شهوان) في أقل من يوم واحد ، وأن الوجود السورى هو الذى كان يلجم تلك القوى ، وبعد الغياب السوري المسلح ، فإن (فرقاء قرنة شهوان) إما أن يتخلوا عن القرار ١٥٥٩ أو يستدعون القوات الأمريكية أو الإسرائيلية لحمايتهم ؛ ولعل هذا ما جعل قيادة الكنيسة المارونية تحذر من مغبة الانسحاب السوري رغم أنها كانت على رأس المطالبين به . . . وهكذا فإننا أمام سيناريو جديد مماثل للسيناريو العراقى ، وربما تنغمس أمريكا أكثر فى المنطقة ، وتتعاظم المقاومة بالتالى ، ولعل ما يحدث الآن درس لحزب الله الذى كان يتمتع بزخم عربى وإسلامى كبير ، لولا موقف الشيعة في العراق ، ولولا الموقف الوسطى لحزب الله من المقاومة العراقية ، وهكذا لابد أن ينحاز حزب الله بسرعة إلى مشروع المقاومة العراقية - حتى لو كانت سنية أو سلفية ومهما كانت أخطاؤها ، ومن ثم يستعيد بعض ما فقده من مصداقية ، وإلا فإن أمريكا تلعب على الجميع وبالجميع ، فهى تدعم الشيعة فى العراق على حساب السنة وتدعم الموارنة فى لبنان على حساب الشيعة ، وإذا لم يحدث مثل هذا التحالف السريع من حزب الله مع المقاومة العراقية فإن الخاسر الأكبر سيكون حزب الله الذى سيتم التضحية به على مذبح المساومات وإغلاق الملفات!!

مرة أخرى لقد فضح الانسحاب السورى عمالة العملاء ، ولم يصبح لأحد حجة بعد الآن فى رفض ١٥٥٩ ، ورفض التدخل الأمريكى الصهيونى فى شؤون لبنان وغير لبنان ، وسوف يندم فرقاء "قرنة شهوان" أشد الندم على

مطالبتهم بذلك الانسحاب ، وقد راهنوا على أن سوريا ستتصلب ولن تنسحب ، ومن ثم يتم استقطاب الشارع السنى والدرزى فى لبنان وحصار حزب الله تمهيدا لذبحه ، ولكـن الخطـوة السـورية بالانسـحاب - وهـى خطـوة صحيحة أطاحت بـالمخطط بكامله - وأعـادت المسـائل إلى طبيعـتها الجوهـرية حيـث إن الصـراع الحقـيقى لـيس بـين سـوريا ولبنان ، ولا السنة والشيعة ولكن بين الأمة كلها بكل شـعوبها وأعـراقها وطوائفهـا وبـين المشروع الأمريكى الصهيونى ، وإما أن تكون مـع الأمة بالكامل أو تكون مع أمريكا وليس هناك حلول وسط ، ولا عزاء للذين لا يزالون يراهنون على تكتيكات السيستانى والجعفرى والحكيم .



دلالات اغتيال
رجل المخابرات الإيطالى فى العراق

بداية نحن مع المقاومة العراقية قلبا وقالبا . . ونرى أنها أنبل ظاهرة عربية وإسلامية فى عشرات السنين الأخيرة ، دون أن نغمط طبعا المقاومة الفلسطينية أو اللبنانية حقهما ، المقاومة العراقية جاءت فى وقت حرج جدا ، كان الحديث والمستهدف حينها إنهاء وجود الحضارة الإسلامية ، واحتلال الدول العربية واحدة بعد الأخرى ، فى إطار المشروع الأمريكى الصهيونى للهيمنة على المنطقة ثم العالم ، وكان عدم اندلاع هذه المقاومة سوف يلقى بظلال من الشك على امكانية مواجهة أمريكا ومن ثم الاستسلام لها ، ويلقى بظلال من الشك حول المستقبل العربى والإسلامى أيضا ناهيك عن تداعيات أخرى سلبية كانت ستكون نتيجة مباشرة لعدم وجود مقاومة فى العراق . . وهكذا فإن المقاومة العراقية فتحت باب الأمل أمام الشعوب ليس العربية والإسلامية فقط ، بل لكل شعوب العالم للتمسك بحقها ومواجهة مشروع الهيمنة الأمريكى .

ولكن هذا لا يعنى أن المقاومة وهى ظاهرة معقدة بلا أخطاء ، أو أن أجنحة منها ترتكب بعض الممارسات المرفوضة أو غير المبررة ، ومهما كانت هذه الأخطاء فنحن مع المقاومة فى كل الأحوال : من هذه الأخطاء المنسوبة خطأ أو صواب للمقاومة أنها تختطف بعض الشخصيات الأجنبية المنتمية إلى تيارات سياسية مناهضة لأمريكا أولها رأي إيجابى فى المقاومة مثل الصحفية الإيطالية وقبلها الصحفية الفرنسية ، أو تختطف شخصيات منتمية إلى جمعيات إنسانية

جاءت لمساعدة الشعب العراقى . . ونحن هنا لا نتحدث عن الذين يعملون – أيا كانت الوظيفة فى إطار المجهود الحربى الأمريكى فى النقل أو الترجمة أو الخدمات أو غيرها فهؤلاء لهم تكييف آخر .

من الأخطاء – المنسوبة خطأ أو صواب للمقاومة قيامها بمهاجمة المناسبات الشيعية ، أو المساجد والحسينيات الشيعية وبصرف النظر عن الرأى فى الشيعة ، وبصرف النظر عن الرأى فى شيعة العراق تحديدا ، وخاصة المواقف المريبة للبعض مثل المرجعية والمجلس الأعلى وحزب الدعوة . . إلخ ، فإن من الخطأ ارتكاب مثل هذه الأفعال ؛ لأن المقاومة يجب أن يكون لها خطاب مفهوم حول قضية موالاة الاحتلال فالأعمال توجه إلى الوالين للاحتلال ، وللاحتلال نفسه وليس عشوائيا مهما كان الرأى فى المناسبات الشيعية والعقائد الشيعية والمواقف الشيعية ، والمفروض أن ندعو الشيعة والأكراد والجميع إلى مناهضة الاحتلال ؛ لأنه فى وطن يضم هؤلاء بالفعل وليسوا أجانب ونحن لا نعمل فى الفراغ طبعا . بل نكاد ونقول: إن الشرف العظيم الذى حازته السنة فى العراق بمواجهتها للاحتلال لن يكتمل الا بالارتفاع على المواقف والممارسات الطائفية ، ونقول أيضا: إن الاحتلال الأمريكى بعد أن فشل فى القضاء على المقاومة يريد أن يدخل المنطقة برمتها فى فتنة طائفية ، فهو يدعم الشيعة فى العراق ، ويقف ضد الشيعة فى لبنان ، ويسمح بدور كبير لإيران فى العراق ويسعى لاستئصال المقاومة السنية فى العراق وفلسطين . . إلخ .

وإذا كانت البلاد بلادنا – السنة أكثر من ٩٠% من المسلمين والأمة أمتنا ، فإن الفتنة الطائفية التى تضر الأمة ندفع نحن كسنة ثمنها فى النهاية من مصالح

الأمة ومستقبل الأمة .

نحن إذا لا نقر بعض أعمال الخطف كما بينا ، ولا نقر بعض الأعمال الموجهة للشيعة كشيعة وليس كمتعاونين مع الاحتلال دون أن نتوقف عن الاحترام الكامل للمقاومة ، ولكن هل حقا المقاومة تفعل ذلك ، سنفترض أنها تفعل ونقول: هذا خطأ يجب تصحيحه . بل يجب أن يصدر رموز المقاومة وبخاصة أبى مصعب الزرقاوى بيانا واضحا يدين فيه مثل هذه الأعمال حتى لا تنسب إلى القوى السلفية مباشرة وبالتالى يتحملها من يرتكبها .

ولكن فى الحقيقة فإن عملية اغتيال رجل المخابرات الإيطالى فى العراق " نيقولا كاليبارى" أثناء مصاحبته للصحفية الإيطالية "جوليانو سيجرينا " بعد أن تم إطلاق سراحها من الخطف فى طريقها إلى المطار للمغادرة إلى روما .

هذه العملية تمت وفق رواية المصادر الإيطالية نفسها عن سبق إصرار وترصد أمريكيين واضحين ، فالمخابرات الإيطالية كانت قد أخبرت المسؤولين الأمريكيين بخط سير السيارة التى تقل الصحفية ورجل المخابرات ، ومع ذلك تم إطلاق ٤٠٠ دفعة من الرصاص علي السيارة من الجنود الأمريكيين مما أدى إلى مصرع رجل المخابرات الإيطالى "نيقولا كاليبارى" وإصابة الصحفية جوليانو سيجرينا ورجل مخابرات آخر كان معهما بالسيارة ، وحسب أقوال الصحفية الإيطالية "سيجرينا" نفسها فإن السيارة التى كانت تقلها مع عناصر المخابرات الإيطالية كانت تسير بسرعة عادية ولم تكن مسرعة ولم يكن هناك مبرراً لإطلاق النار ، وأن السيارة قد مرت أمام ثلاث نقاط تفتيش أمريكية قبل أن تتعرض لوابل من الرصاص من إحدى السيارات المصفحة الأمريكية ، وأن سائق السيارة أجرى

اتصالين هاتفيين عن طريق تليفونه المحمول بكل من السفارة الإيطالية ببغداد ورئسة مجلس الوزراء بروما لإبلاغهما بعملية الإفراج وتوجههم إلى المطار تمهيدا لرحلة العودة إلى إيطاليا ، وأن السلطات الإيطالية فى بغداد وروما أبلغت الأمريكان بدورها بذلك وبوجهة السيارة وخط سيرها ، وتضيف سيجرينا أن إطلاق الرصاص تم بدون أى إشارات تحذيرية سواء باليد أو بالأضواء وهكذا فنحن أمام جريمة مقصودة . . الهدف منها كان اغتيال كل من رجال المخابرات والصحفية الإيطالية بهدف منع تسرب معلومات أو حقائق عن عملية الخطف وتصوراتها وأسرارها ، والمتوقع طبعا أن السلطات الأمريكية فى العراق متورطة فى عمليات خطف وعمليات إرهابية معينة تستهدف الإساءة إلى سمعة المقاومة أو لوقيعة بين أبناء الشعب العراقى ، وهذا الأمر ليس جديدا على المخابرات الأمريكية ، ويتم بيدها مباشرة ، أو بيد عملاء لها ، أو اصطناع منظمات معينة تابعة لها ، ولا مانع أن تحمل أى اسم ، وكل هذا للإساءة للمقاومة ، تفسير سيجرينا للمسألة أن السلطات الأمريكية لم تكن تريد إطلاق سراحها أصلا حتى لا تكون شاهد عيان على أن للمقاومة برنامج وموقف وليس مجرد إرهابيين أو تكشف عن حقيقة الممارسات الأمريكية فى العراق ، وهو تفسير لا بأس به ، ولكننى أميل إلى أن عمليات الخطف غير المبررة أخلاقيا ، وكذا العمليات العشوائية ضد الشيعة كلها من تدبير أمريكى بطريقة أو بأخرى .

* * *

المبررات الأمريكية للحرب على العراق ماذا بقى منها؟!

بعد مرور كل هذا الوقت على الاحتلال الأمريكى للعراق وسقوط بغداد فى ٩ أبريل ٢٠٠٣ ، ومن ثم السيطرة الأمريكية الكاملة على الأراضى العراقية ، بعد الاحتلال الأمريكى للعراق ، واندلاع المقاومة وتشكيل مجالس وحكومات غير منتخبة أو منتخبة ، وأحداث سجن أبى غريب ، والكثير الكثير من الأحداث فى العراق وحولها يثور سؤال بديهى عن المبررات الأمريكية للحرب على العراق ماذا بقى منها؟! وبصيغة أخرى ، هل كانت المبررات الأمريكية للحرب على العراق حقيقية ، أم مزيفة ، أم أنها كانت مجرد ذرائع تخفى تحتها أهدافا أخرى غير معلنة وما هى تلك الأهداف الحقيقية غير المعلنة . . . .؟

بداية فإن المبررات الأمريكية للعدوان على العراق ومن ثم احتلاله كانت تتمثل فى وجود أسلحة دمار شامل عراقية تشكل خطرا على الشعب الأمريكى ثم على الشعوب المجاورة للعراق ، وبديهى أنه لا شأن لأمريكا بالشعوب المجاورة ، فهذه مجرد دموع تماسيح ، أما خطر تلك الأسلحة على الشعب الأمريكى ، فهو خطر مبالغ فيه جدا ؛ لأنه بفرص وجود تلك الأسلحة المزعومة فإنها تحتاج إلى صواريخ عابرة للقارات لحملها إلى الولايات المتحدة ، أو طائرات بعيدة المدى أو تنطلق من حاملات طائرات فى المحيط الهادى أو الأطلنطى ، وبديهى أن العراق لم يكن يمتلك مثل هكذا صواريخ أو طائرات أو حاملات طائرات ، يبقى فقط فى هذا الصدد إمكانية حصول إحدى المنظمات الإرهابية

على ذلك السلاح من العراق ، ومن هنا كان الحديث الأمريكى الموجه للشعب الأمريكى عن وجود علاقات بين الحكومة العراقية السابقة وتنظيم القاعدة ، وهى علاقات مزعومة ثبت عدم صحتها فيما بعد ، وعرف الجميع أن ذلك لم يكن إلا نوعا من الكذب على الشعب الأمريكى لتبرير ذهاب الجيش الأمريكى إلى لعراق وموت الجنود الأمريكيين هناك لدرء خطر محتمل ثبت أنه غير موجود أصلا . الأكثر دلالة هنا أنه بعد مرور سنوات وشهور وأيام ، وبعد أن فتش الأمريكيون الأرض وتحت الأرض والماء وما تحت الماء فى العراق ، وبعد أن بسطوا هيمنتهم على كل الأراضى العراقية لم يجدوا شيئا من هذه الأسلحة المزعومة . وفى تقرير صدر يوم ٣١ مارس ٢٠٠٥ عن لجنة التحقيق الرئاسية الخصة بتقويم عمل أجهزة المخابرات الأمريكية ، والتى شكلها الرئيس جورج بوش الابن بنفسه قبل ذلك ثبت أن أجهزة المخابرات الأمريكية تجاهلت الآراء المعارضة لوجود برنامج أسلحة دمار شامل فى العراق إبان حكم صدام حسين ، وأنه تم إغفال أو تحريف تلك الآراء المعارضة خاصة فيما يتعلق بتقرير صادر فى أكتوبر ٢٠٠٢ حول وجود أدلة دامغة على سعى العراق للحصول على اليورانيوم من النيجر ، وهذا التقرير تحديدا كان قد تم نقده من قبل وتحدث المنتقدون عن وجود خلل واضح - متعمد - فى الترجمة ، وفى صحة أسماء رئيس النيجر فى ذلك الوقت ، بحيث إن أى جهد استخباراتى كان يمكنه اكتشاف عدم صحة هذا التقرير ، وأن أجهزة مخابرات أخرى نبهت الأمريكيين والبريطانيين إلى هذا الخلل دون جدوى . بل إن موضوع هذه الصفقة بين العراق والنيجر كان قد تم تكليف السفير "جوزيف ويلسون" سفير الولايات المتحدة

السابق لدى الجابون بالتحرى عن هذا الموضوع ، وعاد الرجل من مهمته وقال: إن الأمر لم يستغرق وقتا طويلا لاستنتاج أن حدوث أى من تلك الصفقات هو محل شك كبير ، وتقدم الرجل بنتائج تحقيقاته إلى المخابرات الأمريكية ووزارة الخارجية الأمريكية ، وتم تجاهل ذلك ، بل إن الرئيس الأمريكى - رغم ذلك - عاد وتحدث عن تلك الصفقة تحديدا واتهم العراق فى خطاب حالة الاتحاد ، ويعلق السفير "جوزيف ويلسون" على ذلك بقوله: "لقد دخلنا الحرب بموجب حجج كاذبة" ، وكانت الوكالة الدولية للطاقة الذرية قد أكدت قبل أسابيع من الحرب على العراق أن تقرير صفقة اليورانيوم العراقية مع النيجر ملفق ، وكان هانز بليكس كبير مفتشى الأسلحة السابق للأمم المتحدة قد اتهم الولايات المتحدة وبريطانيا والدانمارك بإساءة تفسير التقارير ، وأن كولين باول كان يكذب ، وأن الأمريكيين كانوا يتلاعبون بصور الأقمار الصناعية ، على كل حال فإنه بعد مرور شهور على الاحتلال فقط كان الأمريكيون والبريطانيون قد توقفوا عن الزعم بامتلاك العراق لأسلحة دمار شامل ، وتم التحقيق فى الموضوع لدى لجان عدة فى بريطانيا وأمريكا وثبت تهافت هذا الموضوع خاصة أن اللجنة الأمريكية للبحث عن تلك الأسلحة ، وهى لجنة عسكرية عالية المستوى تابعة للجيش الامريكى فى العراق كانت قد أعلنت وقف عملها بعد أن ثبت لها عدم وجود شىء من تلك الأسلحة ، ما يعنينا هنا ليس فقط سقوط هذا المبرر ، بل إن المسألة تعنى أن مؤامرة غزو العراق تم إعدادها مسبقا ، وتم بالتالى اختلاق ذرائع كاذبة والترويج لها ، وهذا يثبت صحة نظرية المؤامرة حول هذا الموضوع تحديدا ، إن لم يكن فى كل مجال فى إطار علاقاتنا مع الغرب وأمريكا ، وقد كشف

الصحفى الأمريكى "بودب دور" فى كتابه بعنوان: "خطة الحرب" على العراق وضعت فى ٢٠٠١ ، وأن الرئيس الأمريكى ووزير الدفاع وكل المسؤولين تقريبا كانوا يعرفون عدم امتلاك العراق أسلحة دمار شامل ، وبالتالى فإن خطة الحرب وضعت أولا ثم تم البحث عن ذرائع لتبريرها .

الذريعة الثانية التى استخدمتها الولايات المتحدة وبريطانيا لتبرير غزو العراق واحتلاله كانت مسألة التخلص من نظام ديكتاتورى ، وأن الجنود الأمريكيين والبريطانيين جاؤوا يحملون أعلام الحرية والرخاء والديمقراطية ، وبديهى أن السجل الأمريكى القديم والجديد والآتى يكذب ذلك الادعاء تماما بدءا من إبادة الهنود الحمر واسترقاق السود ومرورا بكل المؤامرات التى حاكتها الولايات المتحدة ضد شعوب العالم "راجع فى هذا الصدد كتابنا "جرائم الأمريكان فى هذا الزمان الصادر عام ١٩٩٩" .

وانتهاء بما حدث من انتهاك وحشى وتعذيب وممارسات بشعة فى سجن أبى غريب ، وفى سجون جوانتا مامو ، وفى قتل الأسرى فى قلعة جانجى بأفغانستان ، وكلها أمور باتت حقيقة معروفة أدانتها منظمات حقوق الإنسان العالمية واعترف بها الأمريكيون والبريطانيون أنفسهم ، فضلا عن أن الولايات المتحدة تدعم ديكتاتوريات أخرى "باكستان وبرويز مشرف نموذجا" ، وبديهى أن أحدا لا يصدق الأمريكان بالذات فى مسألة تحرير الشعوب الأخرى من الاستبداد ، بل إن كل الحكام المستبدين فى المنطقة والعالم ، كانوا فى الحقيقة أمام صنائع أمريكا أصلا ، أو أنهم تلقوا دعما منها طالما ينفذون ما هو مطلوب!!

هذان التبريران السابقان - الساقطان - هما كل ما تبرر به أمريكا غزوها

للعراق ، ولكن هناك تفسيرات أخرى جزئية يقول بها بعض المحللين ، مثل محاولة الولايات المتحدة نهب ثروات الشعب العراقى والشعوب عموما ، وهذا صحيح ولكنه لا يفسر الموضوع تماما ، فالولايات المتحدة أنفقت فى العامين الأولين لاحتلال العراق حوالى ٢٥٠ مليار دولار - غير ما صرفته باقى دول التحالف - وخسرت من الجنود حسب اعترافها ١٥٠٠ و٧٠٠٠ جريح - والصحيح أضعاف هذا العدد - وبديهى أن نهب الثروات وحده لا يصلح هنا إلا تفسيرا جزئيا ، فالمسألة بالحساب الاقتصادى خاسرة ، ومن التفسيرات أيضا تأمين تدفق البترول حيث إن العراق يمتلك من ١١٠ إلى ٢٥٠ مليار برميل احتياطى حسب اختلاف التقديرات ، وأن الولايات المتحدة ستحتاج باستمرار إلى تأمين تدفق البترول لازدياد استهلاكها وتناقص إنتاجها ، وللسيطرة على سوق النفط للتحكم فى الدول الأخرى خاصة ألمانيا واليابان ، وهذا أيضا صحيح جزئيا ؛ لأنه كان من الممكن تأمين كل هذه الأمور بدون غزو ، وصدام حسين شخصيا لم يكن يمانع فى إعطاء البترول للأمريكان ولا غيره بالطبع ، وكذلك فإن المقاومة العراقية الباسلة تعطل حتى الآن التدفق الآمن لذلك البترول . وهكذا فإن تلك التفسيرات جزئية وليست شاملة ولا يمكنها تفسير كل شىء .

إذن لنبحث عن الأسباب الحقيقية لهذا الغزو ، ولنضع فى اعتبارنا هنا عدد من الحقائق - منها أن الإدارة الأمريكية التى شنت الحرب تابعة لليمين الأصولى الأمريكى أو ما يسمى جماعة أمريكا القرن الجديد ، وهى جماعة نشأت رسميا عام ١٩٩٧ ، ولكن أفكارها كانت موجودة من قبل بالطبع ، وخططت ووضعت أبحاث بهدف السيطرة على العالم وبناء إمبراطورية أمريكية حول العالم ، وأن خطة

غـزو العـراق ذاتهـا تمت فى أروقة الجماعة عام ١٩٩٧ وتبناها الرئيس الأمريكى جـورج بـوش عـام ٢٠٠١ ، بل إن تلك الخطة ذاتها كانت قد أرسلت إلى الرئيس بـيل كلينـتون ولم تـنفذ ، وهكـذا فـإن السـبب الأول الحقـيقى للغـزو هـو الخطة الأمريكـية لبناء إمبراطورية أمريكية حول العالم وغزو العراق ، ومن ثم ما بعدها ، جـزء مـن الموضـوع ، كذلـك تـرى هـذه الجماعـة - الحاكمة فى أمريكا بدءا من ٢٠٠١ - أن إقامـة إسـرائيل الكـبرى جـزء مـن الواجـب الديـنى المسـيحى - الأصـولية الإنجيلـية - تمهـيدا لمعـركة هرمجدون وعودة المسيح فيما يسمى بالألفية السعيدة - وهى خرافات وتحريفات ليس هنا مجال تفنيدها .

إذن فالحـرب على العراق هى جزء من تأمين إسرائيل وإنهاء وجود قوة عربية يمكن أن تشكل خطرا على إسرائيل ، ثم الامتداد لتغيير أنظمة الحكم والتوجهات والسـيطرة عـلى سـوريا ولبـنان ومصـر والسـعودية . . إلخ فى إطار تأمين انفراد إسرائيل بالهيمنة على المنطقة وتحقيق إسرائيل الكبرى .

السـبب الثالـث الحقـيقى - الـذى هـو التفسير الصحيح والمكافئ والعملى لكل مـا حـدث ويحـدث فى المنطقة من مئات السنين ، هو أن الصراع الحضارى الممتد فى الـتاريخ والجغرافـيا بـين الحضارة الإسلامية بما تمثله من حق وعدل وحرية والحضارة الغربـية بمـا تمـثله مـن قهر وعنف ووثنية لم يتوقف قط ، وأنه أخذ أشكالا متعددة منذ البعـثة المحمديـة ومرورا بحرب الألف عام فى المغرب والأندلس ، والحروب الصليبية فـى المشرق العربى ١٠٩٥م - ١٢٩٦م - ثم الصراع على الخلافة العثمانية الباسلة - ثـم مـرحلة الاسـتعمار والصهيونية منذ ١٧٩٨ وحتى الآن ، وأن العدوان الأمريكى عـلى العـراق هـو آخـر مظاهـر ومـراحل الحـرب الصـليبية مـن الغـرب على العالم

الإسلامى ، ولعل هذا يفسر سر تشبث الغرب وأمريكا بالبقاء فى العراق رغم الخسائر الاقتصادية والبشرية الهائلة ، وهكذا فإن المقاومة العراقية الباسلة هى دفاع عن الأمة كلها - تاريخها وحاضرها ومستقبلها - ولعل ما قاله جورج بوش بنفسه عن أنها حرب صليبية ليس إلا زلة لسان عبرت عن الحقيقة دون أن يدرى وهو ذاته معروف بميوله الصليبية وتحويل البيت الأبيض إلى كنيسة وسيطرة القسس المتطرفون والداعون علنا إلى الحرب على الإسلام من أمثال جيرى فالويل على القرار الأمريكى ، وعلى كل حال فإن صحيفة دير شبيجل الألمانية ذاتها قالت: " إنها حرب جورج بوش الصليبية ، وأن بوش يرى المسيح كجنرال بخمسة نجوم .

ويقول البروفيسور "اليوت كوهين": " إن أمريكا تعتبر نفسها تخوض الحرب العالمية الرابعة ضد العالم الإسلامى تحت اسم مواجهة الإرهاب الإسلامى ، على أساس أن الحرب العالمية الثالثة كانت هى الحرب الباردة ضد الشيوعية ، وأن أمريكا والغرب قد حققا فيها انتصاران ساحقان" .

ويقول هنرى كيسنجر - أحد حكماء الغرب والمعبرين عن حقيقة أهدافه وطريقة تفكيره: "إن هزيمة أمريكا فى العراق معناه خسارة الغرب لكل ماحققه فى خمسة قرون " .

ويقول تونى بلير رئيس وزراء بريطانيا: "إن هزيمة أمريكا فى العراق هزيمة للغرب كله" .

* * *

تقرير التنمية البشرية
رصد وملاحظات

التقرير الثالث للتنمية الإنسانية العربية والذى صدر مؤخرا بعد أن تعثرت ولادته فترة من الزمن لأسباب معينة ، صدر أخيرا عن البرنامج الإنمائى الذى تشرف عليه الأمم المتحدة ، والذى شارك فى إعداده عدد كبير من الخبراء والمتخصصين والباحثين لرسم وتحديد الخلل فى الواقع العربى ، ومن ثم البحث عن طريق للإصلاح .

هذا التقرير هو الثالث من نوعه ، وقد سبقه تقريران صادران عن نفس الجهة لعلاج نفس نواحى الخلل ، ولكن هذا التقرير حظي باهتمام بالغ ، لأنه أولا جاء فى وقت تصاعدت فيه حدة التدافع حول قضايا الإصلاح العربى خارجيا وداخليا ؛ ولأنه ثانيا تعرض لمحاولة المنع أو التعديل من قبل جهات خارجية مثل الولايات المتحدة الأمريكية ، وداخلية مثل عدد من الدول العربية ، والولايات المتحدة أرادت منع صدوره أو تعديله ؛ لأن التقرير رصد انتهاكات وتجاوزات إسرائيلية وأمريكية فى الواقع العربى وهو ما لم يرق للولايات المتحدة والدول العربية ؛ لأن التقرير رصد الأوضاع المتردية سياسيا واجتماعيا داخل تلك الدول وحمل الحكومات المسؤولية عن ذلك ، وبعد أخذ ورد وتعديل غير جوهري حسب قول المشرفين على التقرير صدر التقرير أخيرا .

التقرير وضع الأصابع فى الجروح سواء على مستوى أوضاع الإنسان العربى

تحت الاحتلال فى فلسطين والعراق ، أو على مستوى أوضاع ذلك الإنسان فى باقى الدول العربية ، والملاحظة الجديرة بالتسجيل هنا: أن الدوائر الأمريكية استخدمت أجزاء من التقرير المذكور ، وكانت قد استخدمت أجزاء من التقريرين السابقين فى تبرير ضغطها على الحكومات العربية من أجل الإصلاح ، بصرف النظر عن النية هل هى نية الإصلاح أم وسيلة للضغط لتحقيق بعض المكاسب السياسية والمزيد من الانبطاح .

أمام السياسة الأمريكية من قبل تلك الحكومات ، وقد قال المتحدث بسم الخارجية الأمريكية ريتشارد باوتشر معلقا على التقرير: "إن الولايات المتحدة تتفق مع ما ورد من انتقادات فى التقرير حول غياب الإصلاح والديمقراطية فى العالم العربى ، ولكنها ترفض الاتهامات لها بالمسؤولية عن العنف فى العراق والانحياز لإسرائيل" وقد علق د . نادر فرجانى رئيس الفريق البحثى للتقرير على ذلك بقوله: "إن أمريكا تفعل مثل الشيطان عندما يرتل أجزاء من الكتاب المقدس" .

بخصوص أوضاع الإنسان العربى تحت الاحتلال الإسرائيلى فى فلسطين والأمريكى فى العراق قال التقرير:

- إن إسرائيل صعدت من انتهاكها للحقوق والحريات العامة والشخصية فى فلسطين حيث قامت باغتيال عدد كبير من الزعماء والأفراد الفلسطينيين ، وأنه حتى يونيو ٢٠٠٤ كان عدد المعتقلين الفلسطينيين فى سجون الاحتلال ٧٤٠٠ فلسطينى بينهم ٤٧٠ طفل ، وأن عدد نقاط التفتيش التى تمزق الأراضى الفلسطينية وتحولها إلى معازل ٧٣٤ نقطة تفتيش ، وأن إسرائيل دمرت ١٢ ألف مسكن وشردت حتى سبتمبر ٢٠٠٤ ، ٢٤ ألف فلسطينى فى قطاع غزة وجعلتهم

بلا مأوى ، وأن الأطفال الفلسطينيين يعانون من فقر الدم بنسبة ٤٠% ، وأن نسبة الفقر والبطالة ارتفعت إلى ٥٨ . ١% .

وخلص التقرير فى هذا الصدد إلى أن الوضع الإنسانى الفلسطينى تحت الاحتلال أصبح وضعا حرجا ، وأن الاحتلال يخنق الحرية ويعوق التنمية الإنسانية .

وبخصوص الوضع الإنسانى فى العراق تحت الاحتلال قال التقرير إن أمن المواطن العراقى قد تدهور ، وأن عدد القتلى من العراقيين نتيجة الأسباب المختلفة المترتبة على الاحتلال وصل إلى ١٠٠ ألف إنسان ، وأن النساء تتعرض للخطف من قبل قوات الاحتلال ، وأن هناك الآلاف من العراقيين قد تم اعتقالهم وتعذيبهم على يد قوات الاحتلال ، وأن الانتهاكات ضد الأسرى والمعتقلين العراقيين فى سجون سلطة الاحتلال الأمريكى لم تكن تصرفات أو حوادث فردية ولكنها كانت نمطا مستقرا ، وأن الاحتلال تسبب فى تدمير بنية الدولة العراقية .

الشق المتعلق بالأوضاع الداخلية فى الدول العربية كان شديد التشاؤم حيث وصف التقرير تلك الحالة بما أسماه دولة الثقب الأسود يقول التقرير: إن الحكومات العربية فى معظمها نظم فردية شمولية مطلقة السلطات ، وأنها تفتقد إلى الشرعية ، وترفض المسائلة وتعلو على المحاسبة وتحتقر الشفافية وتصادر المشاركة ، وأنها تستخدم القمع والطوارئ والقوانين المقيدة للحريات لمنع حركة الناس ومشاركتهم والاستئثار بالتالى بالسلطة والثروة ، وأن أهل الحكم يحتكرون المجالات الاقتصادية المهمة ، وأن ذلك أدى بالضرورة إلى الرشوة والمحسوبية والفساد ، ويرى التقرير أن الأمة العربية تعيش حالة ترقب ومخاض بين نظامين الأول يعانى من أزمة حادة والثانى لم يولد بعد ، ويحذر التقرير من أن النتيجة

الطبيعية لاستمرار تلك الأوضاع هو ظهور حالات عنف وهو مرشح للاتساع ، ولن يفلح معه وصف مرتكبيه بالإرهاب أو تشديد القبضة الأمنية ، وأن النتيجة ستكون كارثية ، ويدعو التقرير إلى ما أسماه بالازدهار الإنسانى وهو عملية تاريخية تتبناها جميع الشرائح المناصرة للإصلاح بهدف تعزيز الحريات والحقوق والتمهيد لتحقيق تداول سلمى للسلطة ، وإعادة توزيع السلطة والثروة لوصولهما إلى السواد الأعظم من الناس ، وإقامة نسق حكم صالح يشكل أساسا متينا لنهضة إنسانية .

لا شك أن التقرير امتلك مقومات الجدية والرصانة ، وأن القائمين عليه قد بذلوا جهدا مشكورا فى تحليل حالات الخلل ، وأنهم صمدوا أمام الضغوطات الأمريكية والعربية الحكومية لتغيير جوهر التقرير وكل هذا جيد ، ولكن غاب عن التقرير فى إطار وضع الحلول اللازمة تبنى مشروع للمقاومة . . مقاومة الاحتلال الأمريكى والإسرائيلى ، وربما كان هذا فوق طاقة تقرير علمى جاء فى ظروف معينة ، ولم يشر التقرير إلى أن المقاومة العراقية والفلسطينية هى الرد الصحيح والمكافئ ، ليس هذا فحسب بل إنها رافعة الإصلاح الحقيقية على مستوى إشاعة الأمل والإيجابية لدى الانسان العربى ، وبالتالى هى شرط رئيسى فى التنمية الإنسانية ، وكذلك فإن وضع خطوات محددة للإصلاح هو أمر جيد ، ولكننا لا نعمل فى الفراغ ، فهذه أمنيات لن تقبل بها الحكومة المحلية ولا الاستعمار الخارجي ، ومن ثم فإن الإصلاح الحقيقى ينبغى أن يستند على مشروع واسع للمقاومة بكل الوسائل ، المقاومة ضد الاحتلال الخارجى والاستبداد الداخلى والفساد . .

* * *

مستقبل النظام السياسى فى مصر

الحديث لا ينقطع هذه الأيام عن تطورات حتمية فى تركيبة النظام السياسى فى مصر ، وكذا فى تركيبة السلطة ، وعلاقات القوى السياسية بعضها ببعض ، العديد من العوامل تتفاعل فى هذه الاتجاه فمن الصعب معها إمكانية بقاء الأوضاع على حالها ، هذه العوامل بعضها داخلى وبعضها خارجى بالطبع . . وبديهى أن محصلة كل هذه العوامل سوف تسفر عن تطور ما فى اتجاه ما ، قد يكون كبيرا أو صغيرا نوعيا أو كميا . من هذه العوامل .

- إن الأوضاع السياسية فى مصر تكاد تكون متجمدة فى مصر ، ورغم أن هناك حوالى ١٩ حزبا سياسيا فى مصر ، إلا أن نشاط تلك الأحزاب شبه مجمد ، إما بالتجميد الرسمى كحزب العمل ، وحزب الوفاق ، وحزب العدالة لأسباب مختلفة طبعا ، منها ما له علاقة بتردى الأوضاع أو قضايا جنائية أو خلافات داخل الحزب نفسه ، أو بقرار حكومى نتيجة ارتفاع سقف المعارضة "مثل حزب العمل" وهو حزب اتجه إلى الحالة الإسلامية بقوة فى العشر سنين الأخيرة من عمره ، وفجر قضايا خطيرة مثل قضايا الفساد والطوارئ وتصدى لوزيرين من وزراء الداخلية ، ثم وزير الزراعة ودخل أمينه العام "مجدى حسين" السجن ومعه عدد من الصحفيين فى قضية يوسف والى الذى اتهمته جريدة الحزب باستيراد مواد وبذور مسرطنة وعلاقات مع إسرائيل . . إلخ . أما باقى الأحزاب فهى محصورة داخل جدرانها بسبب قانون الطوارئ .

- استمرار قانون الطوارئ الذى يمنع تفاعل حقيقى فى الشارع بدون

تكاليف باهظة .

- حرمان القوى والجماعات السياسية ذات الطابع الإسلامى من حق الحصول على حزب علنى وقانونى ، وبديهى أن تلك القوى تملك رصيدا هو الأكبر فى الشارع المصرى وبالتالى فإن حجبها عن الشرعية يساهم فى عدم تطور الحياة السياسية المصرية .

- وجود حوالى ٢٠ ألف معتقل إسلامى فى السجون المصرية ، وهو أمر له دلالاته وخطورته .

- تدهور الأوضاع الاقتصادية فى مصر فهناك أكثر من ٥٠٪ من المصريين تحت خط الفقر ، وهناك تدهور حاد فى الأجور وارتفاع حاد فى الأسعار مع تدنى الخدمات الحكومية خاصة فى قطاعى التعليم والعلاج ، الأمر الذى يجعل الشارع المصرى قابل للانفجار فى أى لحظة .

- تفشى حالة من الفساد الاجتماعى داخل المجتمع والحكومة من رشوة ومحسوبية وانسداد أفق المستقبل أمام الشباب العاطل الذى تتزايد أعداده باستمرار .

- التدخل الخارجى وخاصة الضغط الأمريكى على الحكومة المصرية بهدف إحداث نوع من الإصلاح ، وهو أمر له أثره الكبيرة على الحكومة المصرية ، بالطبع فهى لا ترغب فى إغضاب أمريكا ، ولكن من ناحية أخرى فإن هذا الضغط مرفوض شعبيا ويشعر المصريون تجاهه بالتحفظ ، وهو ما يفيد الحكومة بطريقة أو بأخرى ويجعل الشعب ينصرف عن دعوات معينة للإصلاح لارتباطها

- أو اتهامها بذلك - بالأجنبى ، وفى هذا الصدد ينبغى أن نأخذ فى اعتبارنا أن وزيرة الخارجية الأمريكية قد صرحت مؤخرا بأنها لا تمانع فى وصول الإسلاميين - تحديدا الإخوان - إلى السلطة فى مصر وهو ما وضع الحكومة فى مأزق ؛ لأن خطابها فى بطء الإصلاح أمام الأمريكان استند إلى التخويف من وصول الإسلاميين إلى السلطة ، ولكن ذلك من ناحية أخرى أضر بسمعة الإخوان .

- وجود حالة من الاستنفار الوطنى والقومى والدينى بسبب ما حدث فى أفغانستان والعراق وفلسطين وما يحدث فى لبنان .

هذه العوامل وغيرها تتفاعل بقوة على مستوى السلطة والحزب الحاكم فى مصر ، وعلى مستوى القوى السياسية الشرعية والمحجوبة عن الشرعية على حد سوء ، وبالنسبة للحكومة فإن الرئيس مبارك غيّر الدستور باتجاه إجراء انتخابات رئاسية مباشرة ، ووعدت الحكومة بتعليق قانون الطوارئ أثناء الانتخابات ، كما أعلن نجل الرئيس مبارك عدم نيته فى ترشيح نفسه كخليفة لوالده . وعلى مستوى المعارضة هناك الآن فى الشارع أربعة قوى ، أولها حركة كفاية وهى خليط من قوميين وإسلاميين ويساريين ، وقد بدأت تلك الحركة مبكرا وطالبت بعدم التجديد للرئيس مبارك ، وعدم توريث الحكم ، وتغيير الدستور بحيث لا يمكن لرئيس أن يظل حاكما إلى الأبد بل لمرتين متتالين فقط ، كما طالبت تلك الحركة من خلال المظاهرات أمام مجلس الشعب أو دار القضاء العالى ، أو من خلال توقيع العرائض بإلغاء قانون الطوارئ والقوانين المقيدة للحريات .

وهناك على يسار تلك الحركة مجموعة حزب العمل المجمد بقيادة

مجدى أحمد حسين وهى تقوم بنشاط متميز مع تلك الحركة أو متفردة عن طريق التظاهرات والعرائض ، ويلاحظ أنها أكثر حدة فى هذا الصدد ، كما أنها لا تغفل أبعاد الصراع مع إسرائيل ودعم المقاومة العراقية ، وتنطلق عادة من توجهات إسلامية وهناك حركة حزب الغد التى يقودها أيمن نور ، وكان هذا الحزب قد حصل على مشروعيته بقرار حكومى وليس عن طريق القضاء ، ثم رفع سقف مطالبه مما أدى إلى قيام الأجهزة الحكومية باصطياد رئيسه "أيمن نور" فى قضية تزوير توكيلات الحزب ، وهى قضية حققت فيها النيابة ثم أحالتها إلى القضاء ، وتقول النيابة: إنها قضية جنائية ولا علاقة لها بالسياسة ، ويقول ممثلو حزب الغد بأنها قضية سياسية تم تلفيقها لحجب ومنع أيمن نور من الترشيح للرئاسة ، وكانت الدوائر الأوروبية والأمريكية قد ضغطت بقوة على الحكومة المصرية للإفراج عن أيمن نور رئيس الحزب المتهم فى القضية ، وتحدثت عنه كونداليزا رايس بنفسها أمام وزير الخارجية المصرى ، ويقول معارضو الحزب: إن هناك ٢٠ ألف معتقل إسلامى فى السجون لم تتحدث عنهم كونداليزا رايس ، فى حين أنها تحدثت عن أيمن نور ، ولكن أيمن نور يرى أنه لا يفيده أن تتعاطف دوائر أمريكية أو أوروبية معه ؛ لأنه لم يطلب ذلك ، وأن هذا التعاطف لا يعبر عن أى علاقة مع الأمريكان أو غيرهم ، فهو لا يراهن إلا على الشارع المصرى ، ومن المفيد هنا أن نرصد أن أنصار أيمن نور يتخذون من اللون البرتقالى رمزا لهم ويقولون: إنهم سبقوا فى ذلك الأوكرانيون ، واللبنانيون . إلا أن هناك نوع من عدم

الارتياح الشعبى المصرى لهذا اللون الذى يذكر بدور أمريكى ما ، وعلى كل حال فلسنا بصدد الحكم على حزب الغد إن كان حقا مصريا وطنيا خالصا أم على علاقته بالأمريكان والأوربيين .

ومن المفروض أن يعلن هذا الحزب ورئيسه موقفا واضحا يؤكد فيه عدم شرعية دولة إسرائيل بكاملها ، ولا يكتفى بالتنديد بممارسات شارون مثلا - وهو حتى لم يفعل ذلك حتى الآن ، وكذا يعلن معارضته للاحتلال الأمريكى للعراق وأفغانستان ، ويؤيد الكفاح المسلح والمقاومة العراقية والأفغانية والفلسطينية ، وإذا فعل ذلك فإنه يقطع الطريق أمام اتهامه بالعمالة لأمريكا أو لغيرها ، أما إذا لم يفعل فإن ظلالا من الشك ستظل تحوم حوله .

القوة الأخيرة والأهم هى جماعة الإخوان المسلمين ، وهى محظورة قانونا ولكنها موجودة بقوة فى الشارع السياسى وفى النقابات ، ولها تنظيم شبه علنى يضم مئات الألوف وقادرة على حشد عشرات الألوف فى لحظات ، ولكنها امتنعت حتى وقت قريب عن المشاركة فى المطالبة بالمطالب التى رفعتها القوة الأخرى مثل عدم التمديد والتوريث وتعديل الدستور وإلغاء الطوارئ . . إلخ . . ولكنها بدأت تنظم مظاهرات وترفع شعارات فى هذا الاتجاه فى الآونة الأخيرة . ويرى منتقدو الحركة أنها كانت تميل إلى تأييد الرئيس مبارك أو ابنه بشرط الحصول على مكاسب ، وأنها أعلنت ذلك أكثر من مرة ، كما أنها تأخرت كثيرا عن حركة الشارع ، وأنها جاءت إلى الطريق أخيرا بعد أن أعلنت وزير الخارجية الأمريكية عن عدم ممانعة أمريكا فى وصول الإخوان إلى السلطة ،

وبالتالى فإن الحركة فى الشارع هو نوع من الرسائل إلى الأمريكان والنظام المصرى على حد سواء للحصول على أكبر قدر من المنفعة البراجماتية ، بينما يرى ممثلو الجماعة أنها لا علاقة لها بكل تلك المعادلات ، وأن حركتها تنبع من داخلها وهى لا توجه رسائل إلى أحد ، ولكنها تفعل ما تراه ملائما فى اللحظة الملائمة .

هل حقا يتم تغيير النظام برمته ، أم يتم انتخاب الرئيس مبارك لفترة خامسة ، أم يتم انتخاب نجله بعد ترشيحه من الحزب الوطنى ، وهل تنجح تلك الحركات المعارضة كل منها منفردة أو مع التنسيق بينها على اختيار مرشح قادر على هز السلطة بشكل جدى ، أم تقوم أحزاب معارضة بترشيح رؤسائها كنوع من الديكور التجميلى للانتخابات ، أم أن هناك نية داخل المؤسسة الحاكمة لتجديد الدماء لقطع الطريق على كل تلك السيناريوهات بترشيح اللواء عمر سليمان الذى بدأ نجمه يصعد منذ سنوات قليلة . . الله تعالى أعلم .

* * *

الإسلاميون والمشاركة فى السلطة

بداية فإن فكرة المشاركة فى السلطة من قبل أى جماعة سياسية أو اجتماعية أومن أى لون وطيف هى فكرة عادية وطبيعية ومشروعة ، وكذا فإن هدف الوصول إلى السلطة فى حد ذاته ليس هدفا مجرما بل هو مشروع ومقبول والحرص عليه ليس عيبا على الإطلاق .

وبالتالى فإن وصول الإسلاميين إلى السلطة أو مشاركتهم فيها هو أمر طبيعى بل أكثر من طبيعى ، واستهدافهم لذلك لا يعيبهم بل إن حرمانهم من الوصول إلى لسلطة بوسائل متعددة منذ نشأة تلك الحركات كان جريمة ضد الشرعية وضد رغبة الناس وضد مبادئ القانون - أى قانون .

وبالنسبة لى ، فإننى أعتبر التيار الإسلامى هو الأكثر تعبيرا عن وجدان الناس ومن مصالحهم ، دون أن يكون له الحق فى أن يحتكر الإسلام طبعا أو قصره على نفسه ، ومن هنا فإن وصوله إلى السلطة هو هدف نبيل .

وأعتقد أن الحركات الإسلامية هى الامتداد الطبيعى لحركة التحرر الوطنى ضد الاستعمار ، والتى كانت إسلامية الجوهر والسلوك تماما منذ عمر مكرم والأفغانى والنديم ومصطفى كامل ومحمد فريد وعبد الكريم الخطابي وعبد القادر الجزائري وعمر المختار وعز الدين القسام . . إلخ ، ومن ثم فهى استجابة طبيعية على حالة الاستعمار - التخلف - الاستبداد وطريقا للإقلاع السياسى والاقتصادى والاجتماعي وتجاور

حالة التخلف وتحقيق الحرية والتحرر والعدل الاجتماعى . وهى بحكم تكوينها وبحكم وجدان الناس صاحبة البرنامج الأكثر قبولا والأكثر قدرة بالتالى على مواجهة التحديات .

ولكن فكرة المشاركة فى السلطة أو الوصول إلى السلطة ليست غاية فى حد ذاتها ، بل هى إحدى آليات تحقيق برنامج النهوض الشعبى الإسلامى المنشود ، وبالتالى فهى مرتبطة بمجموعة العوامل الداخلية والإقليمية والدولية فى زمن معين ، وهكذا فإن طرح هذه المسألة فى الوقت الراهن تقتضى بالضرورة تحليل مجموعة هذه العوامل المرتبطة بالموضوع .

على المستوى الداخلى فإن الحكومات والنظم العربية مثلا وصلت إلى حالة من الأزمة السياسية والاجتماعية والاقتصادية الطاحنة ، وتجارب ومحاولات النهضة ومشروعات التحرر كلها تقريبا وصلت إلى طريق مسدود ، وفشلت فشلا ذريعا فى تحقيق أهدافها ، وتحولت بدورها إلى عبء كبير على كاهل الناس والأمة ، وعلى مستوى التحديات الخارجية المحيطة "الاستعمار - الصهيونية - التبعية" كان الفشل ذاته هو سيد الموقف . وإذا كانت الليبرالية قد سقطت منذ عام ١٩٤٨ ، والاشتراكية عام ١٩٦٧ ، والحكم العسكرى عموما سقط ولا يزال ، وكذا تجارب العلاقات مع أمريكا وقبلها الاتحاد السوفيتى . . إلخ ، فإن هذا يبرر بحث الناس عن الطريق الإسلامى كحل لم يعد هناك بديل عنه . وهذا يرجح ويزكى فكرة مشاركة الإسلاميين فى السلطة أو حتى الحكم منفردين .

لكن الأمر ليس بهذه البساطة ، فالسماح للإسلاميين بالمشاركة فى السطة أو الوصول إليها ، وهو الأمر الذى تم الحيلولة دونه من قبل القوى الدوية والإقليمية والمحلية النافذة بكل الوسائل بما فيها القهر والقمع والمنع والتعذيب والسجون والدعاية السوداء . . . إلخ . . هذا السماح ليس برىء المقصد ولا هو حبا فى حل المشكلة ولا إيمانا مفاجئا بحق كل القوى السيسية فى الوصول إلى السلطة ، إنه فى رأيى مجرد فخ على أساس أن مشاركة الإسلاميين فى السلطة مع وضع ضمانات معينة تجعلهم غير قادرين على تنفيذ برامجهم الحقيقية هو نوع من التوريط لهم وإضعاف موقفهم الجماهيرى ، ومن ثم تحويلهم إلى شىء آخر غير إسلامى "يمين محافظ أو غير محافظ مثلا فى إطار علمانى" وفى نفس الوقت فإنهم وحدهم القادرون على تهدئة الشارع العربى والإسلامى المنفلت والذى تزيده حالات الاستفزاز الدينى والقومى والوطنى الذى تقوم به الولايات المتحدة وإسرائيل فى المنطقة ، ومن ثم يمكنه التحول نوع من المقاومة غير المؤطرة ، وهى خطر شديد على التحالف الصهيونى الأمريكى ، وهكذا فالهدف من السماح للإسلاميين بالوصول إلى السلطة فى ذلك الوقت هو نزع فتيل هذا الخطر وبالتالى فالقبول بتلك المهمة هو أمر خطأ وخطر ولا يمكننا بالطبع أن نعمى مانعة صواعق لصالح الأمريكان .

النقطة الهامة التى ينبغى أن نأخذها فى اعتبارنا هنا: هى أن العالم أصبح شديد التداخل ، وهناك عولمة اقتصادية متوحشة لا تسمح بسهولة بتحقيق أى نوع من التنمية المستقلة وبالتالى عدم القدرة على تحقيق

برنامج اقتصادى حقيقى لصالح عموم الناس ، وهناك انفراد أمريكى بالقوة فى العالم ، ومن ثم فإن أى حكومة وطنية مهما كان برنامجها ، ومهما كانت كفاءة رجالها وعناصرها غير قادرة على المناورة ، وسوف تخضع فى المحصلة لهذا العامل الصعب "العولمة - هيمنة أمريكا على العالم" ، ومع الآخذ فى الاعتبار أننا أمة فى حالة هزيمة تكنولوجية ، وأن الفجوة التكنولوجية لا يمكن سدها لا بسهولة ولا بصعوبة بوسائل تقليدية أو بوسائل مستمدة من نفس طريقة التفكير الغربية فى التنمية ، لأدركنا على الفور أن المشاركة فى السلطة لن يحقق أى نتائج مرجوة للناس ، وفى نفس الوقت يحدث نوع من الانصراف الجماهيرى عن المشروع الإسلامى وإحداث نوع من الشوشرة على منطلقاته النظرية .

والأفضل طبعا أن تتحول الحركات الإسلامية إلى نوع من حركات التحرر الوطنى - فى المعارضة - تكون رأس حربة ضد المشروع الأمريكى الصهيونى ، وتفرز وسائل لتحقيق هذه المقاومة ضد الاحتلال الأمريكى والصهيونى ، وأن تشارك بقوة فى عملية مقاومة العولمة ، وأن تقدم الإسلام كأيديولوجية للفقراء والمستضعفين ، وكجزء ثقافى لمشروع الثورة العالمية ضد المشروع الإمبراطورى الأمريكى الصهيونى الرأسمالى الإمبريالى ، وأن تتحول الحركات الإسلامية بالتالى إلى طليعة لهذه الحركة العالمية وأحد أهم قواها الثورية . وهذا بالطبع يقتضى إعادة هيكلة الحركات وإعادة بناء مستوياتها النظرية والفكرية .

هذا من حيث العموم ، ومن حيث الخصوص ، فإن الحركة الإسلامية

فى مصر لا يمكنها بالطبع - مثل باقى دول المواجهة مع إسرائيل - تجاهل هذه النقطة أو السكوت عنها ، وإلا فقدت مصداقيتها التاريخية ، وبديهى أن السماح بمشاركة الإسلاميين فى السلطة فى تلك الدول لن يكون مقبولا ومسموحا به أمريكيا ما لم يكن هناك ضمان علنى أو سرى لقبول تلك الحركات بمشروعية إسرائيل حتى ولو فى إطار قرار (٢٤٢) مثلا ، مع السماح لها طبعا بمهاجمة القمع الإسرائيلى أو المطالبة بالانسحاب إلى أراضى ١٩٦٧ . . . إلخ وهو أمر غير أخلاقى طبعا ؛ لأن عدم الاعتراف بمشروعية دولة إسرائيل هو أحد أهم أسس قيام وانتشار الحركة الإسلامية فى مصر والدول المحيطة بالكيان الصهيونى عموما ، ولعل هذا فارق نوعى خطير عن الإسلاميين فى تركيا أو المغرب العربى مثلا ، ورغم أن تجربة الإسلاميين فى تركيا فيها القصور وفيها نوع من التنازل عن ثوابت إسلامية ، إلا أن المسألة بالنسبة لهم أقل حدة ، وهكذا لا يبغى القياس على تجربتهم .

* * *

تغيير الدستور في مصر
الأسباب - التداعيات
سيناريوهات المستقبل

جاءت الخطوة - غير المفاجئة من وجهة نظرنا - بتغيير المادة (٧٦) من الدستور المصرى والتى كانت تنص على اختيار رئيس الجمهورية فى مصر عن طريق الاستفتاء بعد ترشيح شخصية معينة من قبل مجلس الشعب المصرى عادة تكون من الرئيس الموجود فعلا ، أو نائبه إذا غاب بالموت مثل اختيار الرئيس حسنى مبارك عقب اغتيال السادات عام ١٩٨١ كانت إحدى سمات النظام المصرى منذ ثورة ١٩٥٢ ، تغيير هذه الطريقة إلى أسلوب الانتخاب المباشر بين أكثر من مرشح هو لا شك خطوة إلى الأمام. ولكنها لم تكن مجرد صحوة إصلاح أصابت النظام المصرى حيث إن الأوساط الرئاسية والحزبية الحاكمة فى مصر طالما أكدت قبل التفكير فى التغيير أن تعديل الدستور خط أحمر غير وارد على الإطلاق ، ولكنها كانت نوع من الاستجابة الحتمية - وليست الجبرية - لمجموعة من العوامل الداخلية والخارجية اقتصت ذلك ولم تكن تحتمل التأجيل العوامل الخارجية منها معروفة . وهى الضغط الأمريكى المستمر لتحقيق نوع من الإصلاح فى المنطقة عموما وفى مصر خصوصا على أساس أن الأجندة الأمريكية المطروحة تستخدم شعار الإصلاح والديمقراطية مستهدفة مغازلة الشعوب من ناحية ، والضغط على الحكومات من ناحية أخرى . مع الأخذ فى الاعتبار هنا أن

ذلك الشعار الأمريكى عن الحرية والديمقراطية شعار منافق ؛ لأن كل أنظمة الحكم الشمولى فى المنطقة تلقت دعما مباشرا من الولايات المتحدة طالما كانت غير معادية - عمليا - للسياسة الأمريكية ؛ ولأن تاريخ الولايات المتحدة منذ إبادة الهنود الحمر واسترقاق السود ، ومرورا بعشرات المؤامرات على زعماء وشعوب وحكومات منتخبة ديمقراطيا - سلفادور الليندى فى تشيلى نموذجا فى الماضى ، وبرويز مشرف فى باكستان حاليا . وممارساتها فى أفغانستان والعراق "جوانتامو - أبو غريب - قلعة جانجى" كلها تقطع بالنفاق . ولكن لأن دوائر الأبحاث الأمريكية رأت أن العنف والإرهاب والتطرف الإسلامى لا يمكن القضاء عليه إلا بتجفيف منابعه التى تراها تلك المراكز فى انسداد أفق الديمقراطية وانتشار الفساد فى الحكومات العربية والإسلامية ؛ ولأن هناك أجندة أمريكية حول دور إمبراطورى أمريكى يقتضى إلباسه ثوبا براقا وغيرها من العوامل أدت إلى تبنى الولايات المتحدة الدعوة إلى الإصلاح والديمقراطية . وبديهى أن دول المنطقة وخاصة مصر غير قادرة على طول الخط الظهور بمظهر الرفض لتلك المطالب الأمريكية ، وهكذا كان لابد من التفكير فى نوع من التغيير بهدف امتصاص الضغط الخارجي ، ثم الالتفاف أو عدم الالتفاف على هذا التغيير حسب الظروف .

العوامل الداخلية بدورها كانت موجودة بقوة ، وهى عوامل كثيرة ومتنوعة ومتداخلة وبعضها ذات تقاطع مع البعد الخارجى كالتالى:

- إمكانية استخدام الولايات المتحدة لنوع من التحالف الشمالى فى مصر من بعض ممثلى الأقليات وبعض العناصر المرتبطة بالمشروع الأمريكى وبعض جماعات المجتمع المدنى التى تحصل على تمويل غربى هو بالضرورة يحمل أجندة معينة .

- تدهـور هـائل فـى مسـتوى المعيشة - ٥٠% على الأقل تحت خط الفقر - ٣٠ مليار دولار ديـون خارجـية ، أكثر من ٥٠٠ مليار جنيه ديون داخلية ، تفشى ظاهـرة الـبطالة وانسـداد أفـق المسـتقبل لـدى قطاعات كبيرة من الشباب المصرى المـتخرج مـن كلـيات عادية ومرموقة ، أو مؤهلات متوسطة بحيث إن ذلك يمكن أن يكـون مـع حـالات الفسـاد والرشـوة والمحسـوبية واحـتكار السـلطة ورموزها ورجالهـا لكـل الـثروة تقريـبا يمكـن أن يكـون ذلك كله مدعاة لحالات من التوتر والقلق والاضطرابات يمكن أن تصل إلى حالات عنف عشوائى غير منظم - وهو أخطـر حيث إنه سيكون خارج السيطرة الأمنية معلوماتيا وعمليا - "عملية العنف فى الأزهر التى حدثت مؤخرا نموذجا عى ذلك" .

- انسـداد أفـق التغـيير السياسـى ، فـرغم وجـود ١٩ حـزبا سياسيا إلا أنها محاصـرة أولا داخـل جدرانهـا ، ومـن يخـرج مـن السـياق يتم تجميده مثل حزب العمـل ، أو أنها أصلا لا تحظى بجماهيرية ووجودها شكلى ، وغياب الشرعية من الاتجـاه الإسـلامى وخاصة "الإخوان المسلمين" وهو اتجاه ذو ثقل كبير فى الشارع المصـرى ، وهـذا يجعل حالة الاحتقان السياسى تصل إلى حد الأزمة الشاملة ، مع وجـود ٢٠ ألف معتقل إسلامى داخل السجون ، واستمرار حالة الطوارىء وهى أمور غير قابلة للاستمرار بدون تنفيس من وقت لآخر .

- وجـود عـامل ضـغط خطـير ، داخل الشارع المصرى والعربى والإسلامى وهـو الشـعور بالمهانـة القومـية والوطنـية والدينـية بسـبب الممارسات غير المحتملة شكلا وموضوعا فى فلسطين والعراق .

هـذه وغيرها من العوامل الداخلية والخارجية قادت بالضرورة إلى التفكير فى نـوع مـن التغـيير ، وهذا التغيير يمكن أن يتحول إلى تغيير حقيقى بمعنى أنه خطوة

على الطريق ، أو يتم إجهاضه وذلك حسب عوامل كثيرة على كل حال فإن العديد من التفاعلات الداخلية حدثت أيضا كنوع من التعبير عن ذلك التوتر وعدم القدرة على احتماله واستمراره منها حالات من التظاهر الشعبى أمام مجلس الشعب المصرى أو دار القضاء العالى - بالمئات - من رموز ثقافية وفنية وسياسية - وكانت حركة "كفاية "هى النموذج الأوضح على ذلك ، وهى تتكون من مجموعة من النشطاء من قوميين وإسلاميين وليبراليين ، ومنها صعود نجم حزب الغد الذى يقوده أيمن نور ، وإن كانت الحكومة المصرية تتهمه بطريقة غير مباشرة عن طريق حملة صحفية تقودها صحف مستقلة بأن له علاقات معينة بأمريكا ، وأوساط الحزب ترفض ذلك وانتهى الأمر باعتقال أيمن نور وإصدار النيابة لقرار إتهام ضده بتهمة التزوير ، ولكن الملاحظ هنا أن حركة كفاية مثلا تفتقر إلى الجذور الشعبية وهى حركة مثقفين فى النهاية ولها أثر كبير بالطبع ولكن فى هذا الإطار ، أما حزب الغد ورئيسه أيمن نور فإن عدم صدور مواقف واضحة منه تجاه إسرائيل وأمريكا يجعل امتداده فى الشارع المصرى صعبا ، ويجعل تهمة التنسيق مع أمريكا قابلة للتصديق .

يبقى الاتجاه الإسلامى ، وقد خرجت منه الجماعة الإسلامية عمليا بمبادرة وقف العنف وتأييد الحكومة بداع وبدون داع ، وخرجت منه جماعة الجهاد بالضعف الشديد الذى أصابها ، وغياب استراتيجية نضالية سلمية - بعد أن ثبت عمليا فشل وسائل العنف - والإخوان المسلمون يراوحون مكانهم فتارة يؤيدون الرئيس مبارك ، وتارة يرفضون تأييده ، بحيث إن موقفا محددا لهم أصبح غير معروف وقد نظموا مظاهرة بالآلاف للمطالبة بعدم التمديد للرئيس وإلغاء قانون الطوارئ والتصدى للفساد ، وكلها أمور مطلوبة شعبيا ، ولكن يرى البعض أن

ذلك مجرد رسالة إلى الأمريكان يلفتون ظرهم إلى أنهم يصلحون كبديل ، ورسالة إلى النظام المصرى لتحقيق بعض المكاسب وهناك مفاوضات تدور حول إمكانية التهدئة مقابل الحصول على حزب سياسى ، والإفراج عن المسجونين من الجماعة وإعطاء الحكومة لهم ضوء أخضر فى لنقابات والعمل الخيرى وغيرها ، وأعتقد أن الإخوان مقبلون على نوع من التشدد تحت الضغط الشعبى من ناحية وتحت ظرف عدم قدرة الحكومة على تلبية مطالبهم .

الأكثر دلالة هنا هو أن السيدة كونداليزارايس وزير الخارجية الأمريكية قد صرحت مؤخرا بأنه لا مانع لدى الأمريكان فى وصول الإخوان للسلطة فى مصر ، وهو أمر أزعج الحكومة المصرية كثيرا ولكنه أضر بسمعة الإخوان شعبيا ايضا ، وتقول الدوائر الأمريكية: إن الخارجية الأمريكية تحاول إقناع الإدارة الأمريكية بإمكانية السماح للإخوان وغيرهم من الإسلاميين بالوصول إلى السلطة - على غرار تركيا ، لأن ذلك هو الحل الوحيد المتاح ؛ لأنهم وحدهم القادرون على ضبط الشارع ، ومن ثم تحقيق التنازلات المطلوبة ، وهذا التفكير على كل حال ليس جديدا على الدوائر الأمريكية .

وكانت مادلين أولبرايت - وزير الخارجية السابقة - قد صرحت بذلك فى حوارها مع عدد من المثقفين المصريين أثناء زيارتها للقاهرة فى العام الماضى ، ولكن المسألة ليست بهذه السهولة ، فإذا كن من الممكن السماح بوصول إسلاميين إلى السلطة فى تركيا - فى ظل وجود جيش علمانى وفى ظل ظروف معينة - وكذا الحوار مع أحزاب إسلامية فى المملكة المغربية . فهذا لعدم وجود الإلحاح الحاد حول الموضوع الفلسطينى فى تلك الأطراف ، ولكن من الصعب جدا على الإسلاميين

فى مصر والإخوان المسلمين بالذات تجاهل الموضوع الفلسطينى أو الاعتراف بمشروعية دولة إسرائيل وهى مطالب أمريكية لا يمكن للإدارة الأمريكية التنازل عنها ، وإذا فعل الإخوان ذلك فقدوا جماهيريتهم رأسا ؛ لأن الشيء الإيجابى الوحيد فى تاريخهم هو الموضوع الفلسطينى ، والرافعة الحقيقية لصبر الناس على ممارساتهم كانت نضالات حركة حماس مثلا ، وإذا فقد الإخوان ذلك لم يعد هنا مبررا لوجودهم وسوف ينتهون بالقصور الذاتى مهما كانت قوة تنظيمهم .

ويطرح عدد من الإسلاميين ضرورة عدم تورط الاتجاه الإسلامى فى مصر وغيرها فى المشاركة فى السلطة أو حتى الانفراد بها ؛ لأن العالم مترابط وبالتالى فلا يمكن تنفيذ أجندة إسلامية وطنية حقيقية على مستوى قضايا الاحتلال الخارجي والإصلاح الداخلى ؛ لأنه طالما كانت كفة القوى فى صالح أمريكا ، فإنه مهما كان شكل نظام الحكم فإن هذا النظام لا يمتلك هامشا للمناورة ، وبالتالى ينفذ سياسات معينة فى إطار معين لا يخرج عنه ، يمكن أن يميل يسارا أو يمينا ولكن داخل الإطار ، ويضيف هؤلاء أن من الأفضل للإسلاميين أن يتحولوا إلى نوع من حركة التحرر الوطنى المعادية للعولمة والمناهضة لأمريكا وإسرائيل ، وممارسة النضال من خارج أسوار الحكم بحيث لا يكونون تحت ضغط معادلات وحسابات الحكومات التقليدية ، ولكن تحت معادلات الحركات الشعبية المعارضة .

على حسب تصرف تلك القوى السابقة أو مزيج منها وهى حركة كفاية - حزب الغد - الإخوان المسلمون فإن شكل مستقبل النظام المصرى سوف يتحدد .

* * *

الإخــــوان وأمريكـــا
حــوار أم فــخ

الحوار فى حد ذاته . . . أمر مطلوب ومشروع ، بل إن الحضارة الإسلامية هى حضارة الحوار بامتياز ، والله سبحانه وتعالى حاور إبليس وسمح له بمناقشته ، بل وسجل له ما قاله من حجج - تافهة - ومن ثم رد الله عليها فى القرآن الكريم ليعلمنا مشروعية الحوار مع الآخر مهما كان ، وليس هناك أسوأ من إبليس طبعا .

هذا من حيث العموم ، ولكن لكى حالة حوار ظروفها الموضوعية والذاتية ، وكثير من القضايا تستخدم طبعا فى عكس المطلوب منها أو للالتفاف على هذا المطلوب .

ومن هنا فالحوار بين الأخوان والأمريكان ليس مجرماً من حيث المبدأ ، ولكن علينا أن نتأمل فى الظروف الموضوعية - داخليا وإقليميا ودوليا لنحكم على هذا الحوار سلبا أم إيجابا .

بداية فإن هناك تاريخ - موجود بالفعل وإن كان فيه الكثير أيضا من الادعاءات والافتراءات أو تحميل المسائل أكثر مما تحتمل من الحوار بين الأخوان والأمريكان ، وقبلهم الحوار مع الإنجليز وخاصة عقب ثورة ١٩٥٢ ، وقد دفع الأخوان المسلمون فى ذلك الوقت وبعده ثمنا باهظا لذلك الحوار ، ورغم أن نية الإخوان فى ذلك الوقت كانت طيبة إلا أن الطريق إلى جهنم مملوء بالنوايا

الطيبة ، وكذا فإن ذلك لا يعنى أن رجال ثورة ١٩٥٢ فى هذا الموضوع كانوا على حق - فهم أنفسهم اتصلوا قبل ذلك وبعده بالإنجليز والأمريكان والإسرائيليين أيضا ، وفى عموم الأمر فإن تلك الحادثة لا تبرر بالطبع كل تجاوزات ثورة ١٩٥٢ فى حق الإخوان المسلمين والشعب المصرى عموما .

المهم إن الإخوان المسلمين دفعوا ثمنا باهظا وخاصة من سمعتهم ومصداقيتهم بسبب تلك الخطوة غير الضرورية وغير المبررة ، ولا يجب بالطبع تكرار نفس الخطأ ، فلا يلدغ المؤمن من جحر مرتين .

الحوار الإخوانى الأمريكانى ليس جديدا إذا . . . والكثير من الروايات حول هذا الحوار أو الرسائل التى يحاول الأخوان إرسالها إلى الأمريكان بأكثر من طريقة بدعوة ضرورة أن نطمئن الآخرين وندعهم يفهموننا ولا يسيئون الظن بنا أو الخوف منا - هذه الرسائل تم الحديث عنها وكشفها أكثر من مرة . ولكننا لا نميل إلى السير وراء الادعاءات حقيقية أو مفتراة . . . وفى الواقع العملى فإن الإخوان المسلمين أصلاً فى العراق شاركوا فى سلطة الحكم الانتقالي ، وهذه رسالة واضحة لأمريكا ، وحركة حماس وهى الأكثر راديكالية فى إطار حركة الإخوان المسلمين وافقت على المشاركة فى الانتخابات التشريعية الفلسطينية تحت سقف أوسلو ، وهو نوع من الرضا الصامت عن أوسلو أى إنها رسالة بإمكانية القول بأشكال من التهدئة والقبول بمشروعات أمريكية ، وهو أمر له دلالاته ، وبديهي أن هناك فرق بين إفهام وتفهيم الآخرين لمواقفنا ومبادئنا وطبيعتنا وأهدافنا عن طريق الرسائل الإعلامية المتاحة للجميع وبين المواقف العملية أو المفاوضات بين مسؤولين من الطرفين .

تصاعد الحديث عن إمكانية تفاهم أمريكى إخوانى جعل المسألة تقفز إلى الصدارة ، خاصة منذ أن صرحت السيدة كونداليزا رايس وزيرة الخارجية الأمريكية بأن الإدارة الأمريكية لا تمانع فى وصول الإسلاميين المعتدلين وخاصة الإخوان المسلمين إلى السلطة فى مصر أو مشاركتهم فيها ، وكانت سيدة أخرى هى مادلين أولبرايت وزيرة الخارجية الأمريكية السابقة قد صرحت بشيء مث هذا فى إحدى اجتماعاتها - بالقاهرة - مع عدد من المثقفين المصريين ، ولما قالوا لها إن الديمقراطية تعنى وصول الإسلاميين إلى السلطة ، ردت عليهم أن أمريكا لا تمانع فى ذلك ، وكانت دوائر الحكومة المصرية عادة تلقى بهذه المقولة لتخويف الأمريكان من الديمقراطية فى مصر أو كنوع من الهروب من الضغط الأمريكى فى هذا الصدد ، وفى الحقيقة فإن مسألة تفهم أمريكا لإمكانية مشاركة الإسلاميين فى السلطة جاء كنوع من الاستجابة لدراسات مراكز أبحاث أمريكية تابعة للخارجية والبنتاجون والمخابرات تقول بأن التيار الأكثر قبولا فى الشارع المصرى والعربى والإسلامى هو التيار الإسلامى ، وأنه لا يمكن ضبط هذا الشارع إلا عن طريق الإسلاميين ، ومن ثم يجب تشجيع هؤلاء الإسلاميين على التخلى عن شيء من الثوابت - على غرار التجربة التركية للسماح لهم بالمشاركة فى السلطة ، وقد لوحت الإدارة الأمريكية بذلك لتحقيق أكثر من هدف ، منها الضغط على الحكومات بالتخويف من إخراج المارد من القمقم ، ومن ثم فعلى هذه الحكومات أن تنبطح أكثر وتنفذ أسرع ما يطلب منها ، ومنها أن تلك الإدارة باتت تدرك أن استمرار الديكتاتورية والفساد وانسداد أفق التغيير الديمقراطى سيؤدى إلى المزيد من تصاعد الإرهاب الإسلامى ضد أمريكا وإسرائيل ،

وبالطبع هذا تفسير جزئي ، فالذى يؤدى إلى تصاعد هذا الإرهاب هو ممارسات أمريكا وإسرائيل قبل أى شيء آخر - ومن ثم حسب رؤية الأوساط الأمريكية فإن من الضروري إحداث نوع من الإصلاح فى تلك الدول وتجديد شباب الطبقة الحاكمة ، وتبحث أمريكا عن بدائل ليبرالية أو قومية أو حتى يسارية ولكنها تكتشف فى كل مرة أن تلك القوى بلا جمهور حقيقى ، وأنها لن تنجح فى أداء المهمة .

وهكذا فليس أمامها إلا شرب العلقم والمطلوب تخفيف هذا العلقم أو إلغاء مرارته أو إنهاء وجوده إن أمكن عن طريق مشاركته فى السلطة .

تخفيف العلقم يتطلب استدراج تلك القوى إلى القبول بالعولمة والرأسمالية ، والقبول بوجود إسرائيل!! وهذه شروط لا يمكن أن تتخلى عنها أمريكا ، وبديهى أن حالة تركيا هنا لا يمكنها أن تكون قياسا ناجحاً ، فصحيح أن الإسلاميين الأتراك قد تخلوا عن ثوابت شرعية بحجة الضرورات تبيح المحظورات ، ولكن الموضوع الإسرائيلى ليس حرجا ومحوريا بالنسبة إلى الشارع التركى وهو بالنسبة إلى الحركات الإسلامية فى دول المواجهة موضوع محوري ، فإذا قبلت تلك الحركات بشرعية وجود إسرائيل فقدت كل مصداقيتها فورا ، وانتهت إلى نوع من اليمين الإسلامى المحافظ سوف يتآكل مع الوقت وينتهي إلى لا شيء وهذا ما تريده أمريكا بالضبط مع العلم أن حركة مثل حركة الإخوان المسلمين ثبتت مصداقيتها ولا يزال الناس يثقون بها رغم أخطائها وخطاياها بسبب جهادها فى فلسطين عام ١٩٤٨ ، ومواقفها بالنسبة للقضية ، وبسبب الجهد الهائل والرائع الذى بذلته حركة حماس الخارجة من رحم الإخوان المسلمين فى كفاحها ضد

الكيان الصهيونى ، ولو فقد الإخوان المسلمون هذا الموضوع أو اكتفوا مثلاً بالمطالبة بقرار ٢٤٢ أو إقامة دولة فلسطينية على الضفة وغزة أو فرطوا فى حق العودة ، أو شيء من التنازل فى موضوع القدس لفقدوا مصداقيتهم فوراً ، ولا ينفعهم هنا أن يهاجموا شارون أو يطالبون بالشرعية الدولية . . . . إلخ لأن هذا كله تطالب به حركات وقوى سياسية أخرى إذن فلا تميز للإخوان فى هذه الحالة إذا فعلوا ذلك .

حسنا ، لنفرض أن الإخوان المسلمين قد وصلوا إلى نوع من الاتفاق مع الأمريكان وبما أنهم قطاع كبير وهام ولهم تنظيم هائل فى الشارع المصرى هو الأول من حيث العدد والقوة بلا منازع ، ووصلوا إلى السلطة فليس أمامهم بسبب أن العالم قرية صغيرة ، وبحكم أن الهيمنة فى العالم للأمريكان ، وبحكم سيطرة الغرب وأمريكا وإسرائيل على القوة والاقتصاد أو الأعلام فليس أمامهم إلا محاولة الالتفاف على ذلك وهذا أصبح صعباً بل مستحيلاً ؛ لأنه لا توجد هوامش للمناورة بسبب وجود استقطاب دولى مثلاً كما كان حالة وجود الاتحاد السوفيتي السابق ، أو أن يقتربوا من الأجندة الأمريكية ، فيقولون كلاما غير محدود بخصوص إسرائيل ، ويفتحون الأسواق على مصراعيها أمام الأمريكان وبالتالى تزداد حالة الفقر والتبعية الاقتصادية ، ولا يشعر الناس بالقوة والكرامة الوطنية حيث لم يعد موجوداً نوع من المقاومة للمشروع الأمريكى الصهيونى ، وهذا عمليا يؤدى إلى تعامل الناس مع الإخوان كما لو كانوا حكومة عملية للأمريكان ، وتظهر نفس المظاهر فى المجتمعات المعادية لأمريكا وإسرائيل ، فيكتشف الأمريكان أن الإخوان لم يؤدوا ما هو مطلوب فيتم تغييرهم ، وبذلك

يخسر الإخوان الدنيا والآخرة أو أن يقوم الإخوان - فى الحكومة - بمواجهة أمريكا وإسرائيل وهو غير متوقع منهم أصلا بحكم تركيبتهم ومصالحم وتاريخهم ، وحتى ولو تجاهلوا ذلك لقامت أمريكا بضربهم وضرب البلدان ذاتها على غرار أفغانستان والعراق . وهكذا فإن من الأفضل للإخوان طبعا أن يظلوا فى المعارضة ، وأن يتحولوا إلى حركة تحرر وطنى معادية لأمريكا وإسرائيل ولعولمة والرأس مالية فلا يعرضوا أنفسهم للضياع وسوء السمعة إلى أن تظهر استقطابات دولية تسمح بهامش من المناورة أو يقضى الله أمراً كان مفعولا . نحنُ إذن أمام فخ أمريكي واضح لاستدراج الإخوان ، فإما أن يؤدوا المهمة الأمريكية بنجاح ويفقدوا شعبيتهم ومصداقيتهم وهذا متوقع جداً ، وأما فالمصير هو مصير العراق وأفغانستان ، والأمريكان بحاجة شديدة إلى الإخوان فى هذا الصدد لأن الأمريكان لهم الأن أجندة إمبراطورية واضحة تقتضى الهيمنة على العالم والسيطرة على المناطق الاستراتيجية وتأمين وجود إسرائيل ، وهذا كله لن يتحقق بسهولة طالما كانت هناك مقاومة إسلامية ثبتت فعاليتها وقدرتها على إنهاء هذا المشروع الأمريكى الإمبراطوري أو تعطيله أو جعله بلا جدوى اقتصادية ، والأمريكان يعرفون أنه لا يستطيع أن يروض هذا العفريت إلا الإخوان ، ومن هنا جاؤوا إليهم للحوار الذى هو ليس بريئًا ، وعلى الإخوان ألا يقعوا فى هذا الفخ وإلا خسروا الدنيا والآخرة .

* * *

دور الأصوليــة الإنجيليــة في قيام ودعم إسرائيل

الأصـولية الإنجيلية ، أو الصهيونية المسيحية ، هى تيار مسيحى كبير لـه الكثير من الأتباع والمؤسسات ومراكز النفوذ والكنائس والصحف والقنوات التليفزيونية والإذاعـات والبـنوك وغيرهـا فى أوروبا وأمريكا ، ويعتمد هذا التيار أساساً على أتباع المذهب المسيحى البروتستانتى .

وقـد لعـب هذا التيار دوراً كبيراً فى نشأة إسرائيل ودعمها حتى اليوم ، ولـه نفـوذ كـبير داخـل مؤسسـة الرئاسـة الأمريكـية ، بـل إنـه يلعـب دوراً مهمـاً فى توجـيهها ، بـل إن رؤسـاء أمريكـيين مـثل ريجان كان من المنتمين إلى هذا المذهب وكذلك يتأثر بهم الرئيس الأمريكى جورج بوش الابن .

ويؤمـن أتباع هذا المذهب أن هناك ثلاثة إشارات إلهية يجب أن تتحقق قبل أن يعـود المسـيح إلى الأرض وهى قيام دولـة إسرائيل من النيل إلى الفرات ، وامتلاك مديـنة القـدس ، وإعـادة بـناء هيكل سليمان ، وأنه بعد تحقق تلك الإشارات فإن معـركة هرمجدون وهي معركة يعتقد الإنجيليون أنها ستقع في سهل مجدون القدس وعكـا ، وأن التنبـؤ بهـا ورد فـى أسـفار حزقيال ويوحنا ويوشع وهى تقول: إن قوات الكفار سوف تدمر فيها ، وإن المسيح سوف يظهر فوق أرض المعركة ويرفع بالجسـد المؤمـنين بـه ، ويخلصـهم من الدمار ، ومن ثم يحكم العالم مدة ألف عام حتى تقوم الساعة .

ووفقاً لهذه العقيدة الدينية فإن الإنجيليون يعتبرون أن دعم قيام إسرائيل واجب شرعى مسيحى وكذلك دعم توسعها والاعتراف بالقدس عاصمة لها ، وكذلك تمويل الاستيطان اليهودى فى الأرض المحتلة ، بل أكثر من هذا فإن عليهم دعم المخططات الرامية إلى هدم المسجد الأقصى وإعادة بناء هيكل سليمان .

وفى الحقيقة فإن نشأة الأصولية وانتشارها يخضع لأكثر من تفسير ، فالبعض يعتقد أن اليهود نجحوا فى التسلل إلى دوائر الكهنوت المسيحى ، واستطاعوا إدخال العقائد الخاصة بقيام إسرائيل واحتلال القدس وإقامة هيكل سليمان فى صلب الإيمان المسيحى وخاصة البروتستانتى ، وأن ذلك تمهيد لعودة المسيح بحيث أصبح دعم المخطط اليهودى لإقامة إسرائيل من الفرات إلى النيل واجب مسيحى شرعى .

ويرى البعض الآخر أن دهاة الساسة الأوروبيين ، المعادين للسامية والكارهين لليهود هم الذين أنشؤوا هذا المذهب لضمان تأييد مسيحى واسع لذلك على أساس أن هذا الأمر يجعل اليهود يفكرون فى قيام وطن لهم فى فلسطين على حساب العرب المسلمين ، وبذلك يضرب هؤلاء عصفورين بحجر واحد ، أولهما هو التخلص من اليهود على أساس أنهم سبب البلاء فى أوروبا وأنهم نفاية بشرية يجب أن تتخلص منها أوروبا ، وفى نفس الوقت تحقيق نوع من التآمر ضد العرب والمسلمين واستخدام اليهود كقفاز لضرب الإسلام والمسلمين على اعتبار أن هناك عداءً تاريخياً وصراعاً مستمراً لم يحسم حتى الآن بين الحضارة الإسلامية والحضارة الأوروبية .

وفى الواقع فإننا نرى أن التفسيرين صحيحان وأن المخطط اليهودى تلاقى

مع رغبات دهاة الساسة الأوروبيين لمعادين للسامية ، وأن اللقاء بين الرغبتين أنشأ هذا التيار ونفذ هذا المخطط ، فقيام إسرائيل وتوسعها يحقق هدف اليهود ويحقق هدف الأوروبيين فى وقت واحد على حساب العرب والمسلمين .

وإذا بحثنا فى هذا التيار وظروف ظهوره ، نجد أنه اتجاه قديم فى السياسة الأوروبية ، فعلى حين كانت الكنيسة الكاثوليكية تتمسك باعتقادها بأن ما يسمى بالأمة اليهودية قد انتهى ، وأن الله طرد اليهود من فلسطين إلى بابل عقاباً على صلب المسيح ، وكانت الكنيسة الكاثوليكية تعتقد أن النبوءات الدينية التى تتحدث عن العودة تشير إلى العودة من بابل وأن هذه العودة قد تمت بالفعل على يد الإمبراطور الفارسى قورش .

ثم جاءت ما يسمى بحركة الإصلاح الدينى المسيحى الذى تمخضت عنه البروتستانتية ، ثم انتشار المذهب البروتستانتى فى أوروبا وأمريكا ليكون الأرض الخصبة لنشأة المسيحية الصهيونية والإيمان بضرورة قيام إسرائيل وبناء المعبد كتمهيد ضرورى لظهور المسيح ، وتكريسا لهذا التحول أصبح العهد القديم "التوراة " هو المرجع الأعلى لفهم العقيدة المسيحية وبلورتها ، وفتح باب تفسير نصوصه أمام الجميع لاستخراج المفاهيم الدينية دون قيود كما تم اعتبار اللغة العبرية باعتبارها اللغة التى أوحى بها الله إلى أنبيائه ، واللسان المقدس الذى خاطب به شعبه المختار هى اللغة المعتمدة للدراسة الدينية ، ومن خلال ذلك تغلغل الفكر اليهودى إلى قلب الحركة الدينية المسيحية عموماً والبروتستانتية خصوصاً .

ثم بدأت الدعوة إلى قيام إسرائيل فى فلسطين تظهر على يد علماء الدين

المسيحى البروتستانتى ثم رجال السياسة البريطانيين والأوروبيين مثل عالم اللاهوت البريطانى توماس برايتمان ١٥٦٢ - ١٦٠٧ والسياسى البريطانى هنرى منشن ١٦٢١ ، ثم العالمان الإنجليزيان جوانا واليـنزر كارترايت ١٦٤٩ ثم السياسى البريطانى كروميل ١٦٤٩ ، ثم الفرنسى فيليب جنتل ١٦٥٦ ، لم يقتصر الأمر فى هذا الصدد على علماء الدين والسياسيين بل تعداه إلى الأدباء والفنانين مثل ميلتون ولورد بايرون وكولريدج وألكسندر بوب وجان راسين وجورج إليوت وغيرهم .

ثم تبنى هذه الدعوة اللورد الإنجليزى شافتسبرى ١٨٨٢ ، وكذلك دوق كنت وجلادستون واللورد بالمرستون وزير الخارجية البريطانى ١٨٦٥م ، بل حتى نابليون بونابرت قد تبنى الدعوة إلى إقامة وطن لليهود فى فلسطين ووجه الجنرال بونابرت نداء إلى اليهود ، ودعاهم فيه بالورثة الشرعيين لفلسطين ، وطالب فيه بإقامة دولة لليهود فى فلسطين وذلك فى أثناء حملته على الشرق ١٧٩٨- ١٨٠١م .

واستمر الأمر على هذا المنوال إلى أن ظهر تيودور هرتزل فتبنى هذا الأمر ودعا اليهود إلى العمل على تحقيقه وتم بلورة ذلك فى مؤتمر بال عام ١٨٩٧ ، ثم تدافعت الجهود اليهودية والأوروبية إلى أن تمخضت عن وعد بلفور سنة ١٩١٧ ، وبعد ذلك حظيت الدعوة بدعم كامل من أوروبا وأمريكا إلى أن قامت دولة إسرائيل عام ١٩٤٨ .

الصهيونية المسيحية فى أمريكا:

مع تصاعد قوة ونفوذ الولايات المتحدة ، ومع زيادة وزنها الاقتصادى

والسياسى والعسكرى نشطت داخلها الحركة المسيحية الصهيونية ويبلغ عدد المنتمين إلى الكنائس الإنجيلية التى تعتقد بالمسيحية الصهيونية وضرورة قيام إسرائيل وبناء الهيكل تمهيداً لعودة المسيح حوالى ٧٧ مليون أمريكى ينتمون إلى ٢٠٠ طائفة ، وتمتلك هذه الاتجاهات فى أمريكا العديد من قنوات التليفزيون حوالى ١٤٠٠ محطة تليفزيون وإذاعة ، وحوالى ٤٠٠٠ مقدم برامج والعديد من الصحف ووكالات الأنباء ، بل ومنهم العديد من الشخصيات الأمريكية البارزة كان منهم الرئيس ريجان والقس سيجوارت والقس فالويل والقس بات روبرتسون والعديد من أعضاء الكونجرس ودوائر النفوذ المالى والإعلامى والسياسى الأمريكى ، ويتأثر بهذا المذهب الرئيس بوش الابن ووزير دفاعه رامسفيلد ووزير العدل أشكروفت ، ويستطيع هؤلاء إقناع الـ ٧٧ مليون من أتباعهم بأن دعم إسرائيل واجب مسيحى وكذلك ، يستطيعون إقناع عدد أكبر من غير أعضاء الكنائس الأصولية ، أى أنهم عملياً قادرون على خلق رأى عام واسع جداً فى أمريكا لتأييد إسرائيل ودعمها ، ناهيك عن النفوذ اليهودى التقليدى فى الكونجرس والإعلام ودوائر المال .

وعلى أى حال فإن مجرد نظرة على المؤسسات التابعة للكنائس الإنجيلية التى تؤمن بالمسيحية الصهيونية يدلنا إلى أى مدى وصل نفوذهم المالى السياسى والإعلامى فى أمريكا ، فهناك على سبيل المثال لا الحصر المصرف الأمريكى المسيحى من أجل إسرائيل ، مؤتمر القيادة الوطنية المسيحية من أجل إسرائيل ، منظمة جبل المعبد ، وتبلغ هذه المنظمت فى أمريكا عموماً حوالى ٢٥٠ منظمة تدير آلاف المصارف والصحف والمؤسسات المالية والإعلامية .

وتبشر هذه المنظمات المسيحية بالعديد من المفاهيم داخل أمريكا وخارجها فهى تؤمن بأن دعم إسرائيل هو التزام دينى ثابت وليس مجرد التزام سياسى متغير ومتحرك ، كما تعتبر شرعية الدولة اليهودية مستمدة من التشريع الإلهى ، وبالتالى اعتبر قيام الدولة تحقيقاً للنبوءات الدينية ، التشديد على أن أرض إسرائيل هى كل لأرض التى وعد الله بها إبراهيم وذريته ، وبالتالى تشتمل كل الأرض الموعودة من النيل إلى الفرات ، استمرار العمل بالشعار الذى يقول: إن الله يبارك إسرئيل ويلعن لاعنيها ، وبالتالى فإن دعم إسرائيل طريق إلى بركة الرب ، بل إنه عندما يتناقض القرار الإسرائيلى مع مواثيق الشرعية الدولية أو القانون الدولى فإنه لا اعتبار لذلك ، ويجب احترام القرار الإسرائيلى ؛ لأنه تعبير عن إرادة الرب ، أما القوانين الدولية فإنها تعكس إرادة الإنسان ، ومن الضرورى احترام إرادة الرب إذا ما تناقضت مع إرادة الإنسان .

* * *

اللاجئون الفلسطينيون بين العرب والصهاينة!

اعتبرت (إسرائيل) - بكل حكوماتها - من يمين ويسار ووسط: علمانيين ومتدينين، وكذا كل قواها السياسية وحتى دعاة السلام المزعومين فيها - أن موضوع حق العودة للاجئين الفلسطينيين هو خط أحمر لا يمكن الاقتراب منه، وكذا عبرت الإدارات الأمريكية المختلفة في مشروعاتها التي قدمتها للسلام بين الفلسطينيين والإسرائيليين عن تجاهلها لهذا الموضوع، وتبنت بالكامل إهدار حقوقهم المشروعة في العودة، وآخرها مشروع كلينتون قبيل رحيله، وإن كانت لا تمانع في المساعدة في توطينهم في أماكن غربتهم أو تعويضهم بالمال، أو تحسين ظروف حياتهم. وعلى طول مسيرة المفاوضات والاتفاقات، بل وعلى طول محطات الصراع معهم فإن قضية اللاجئين كانت هي أم القضايا وأخطرها وأكثرها إثارة للجدل، وهذا بديهي؛ فالمشروع الصهيوني برمته قائم على اغتصاب أرض من أهلها وترويعهم وتشريدهم وطردهم منها، ثم الاستيطان فوق تلك الأرض واستجلاب المهاجرين اليهود من كل مكان، ومن ثمّ حرمان أصحاب الأرض الحقيقيين من أرضهم وبيوتهم وبياراتهم.. وهكذا فإن استيطاناً يهودياً في أرض فلسطين يعني مباشرة طرد الفلسطينيين، وعودة اللاجئين تعني مباشرة طرد اليهود من الأراضي التي اغتصبوها، وهكذا فإن قضية اللاجئين هي أم القضايا وجوهر الصراع.

ولأنها كانت ولا تزال كذلك فإن الفكرة الصهيونية ارتبطت منذ البداية بأكذوبة كبرى وهي: شعب بلا أرض.. لا أرض بلا شعب؛ فقد قامت الدعاية

في الإعلام الصهيوني على أن أرض فلسطين خالية من البشر ، وحاولوا إقناع العالم بذلك ، ونجحوا في ذلك إلى حد كبير رغم أنها أكذوبة واضحة المعالم ، بل وصل الكذب إلى حد أنهم أحياناً صدقوا أنفسهم أو تبجّحوا بالكذب رغم الحقيقة الماثلة للعيان ؛ فجولدا مائير الزعيمة الصهيونية المعروفة كانت تكرر أنه لا يوجد فلسطينيون ، رغم أنهم كانوا يحيطون بها من كل جانب سواء من عرب ١٩٤٨ ، أو غزة والضفة أو من قامت بنفسها بتهجيرهم أو قتلهم وترويعهم حتى يهاجروا!!

وبناء على تلك الفلسفة التي صاغت الفكر الصهيوني ، اعتمد الصهاينة دائماً على تخويف الفلسطينيين وترويعهم وتنظيم المذابح حتى يضطروا إلى الهجرة ، ومن يصمد ولا يهاجر يتم مصادرة أرضه بقوانين إدارية ، أو يحارب في رزقه وعيشه ، وهكذا حتى يضطر أن يهاجر .

وإذا تتبعنا المدن الإسرائيلية المعروفة الآن نجد أنها قامت على أنقاض مدن وقرى فلسطينية ، وعلى أراض تركها أصحابها أو تم مصادرتها ، وليس هناك استثناء لهذا الأمر ، أما الحديث عن أن الفلسطينيين قد باعوا أرضهم طواعية إلى اليهود ؛ فهو كلام لا قيمة له ؛ لأن البحوث والدراسات الرصينة قالت: إنها موجودة بنسبة لا تصل إلى ٦ في الألف ، وهي نسبة لا يُعتد بها أولاً ، كما أنها كانت أراضي مملوكة لإقطاعيين ليسوا فلسطينيين ثانياً ، بل كانت لهم إقطاعيات في فلسطين وسوريا ولبنان وربما مصر وهكذا . . . وثالثاً ؛ لأن السماح بهجرة اليهود إلى فلسطين – وهي المؤامرة البريطانية الكبرى – هو أصل المشكلة ، فلمن كان سيبيع هؤلاء لو لم يوجد مهاجرون يهود؟

سجل الآلام الضخمة:

المذابح والترويع والطرد هي الأصل، وما عداه استثناء، وهكذا فإن قضية اللاجئين تلخص قضية فلسطين كلها، والاقتراب منها يعني فتح موضوع مشروعية قيام (إسرائيل) ذاته ومشروعية بناء كل بناية ومصنع ومدرسة وجامعة بها، ومشروعية إقامة كل فرد فيها، فضلاً عن أنه يفتح سجل الآلام الضخمة التي عاناها ولا يزال يعانيها الفلسطينيون؛ ولذا لجأ المفاوض الإسرائيلي إلى تأجيل البتّ في تلك القضية في كلّ مرة يتمّ الوصول إلى اتفاق، وذلك ضمن ثلاث قضايا شائكة هي القدس، والمستوطنات واللاجئون، ولعلّنا لا نبالغ إذا قلنا: إن أخطر هذه القضايا هي قضية اللاجئين وصحيح أن قضية القدس ذات أبعاد تاريخية وعقائدية، ولا تخص الفلسطينيين وحدهم بل العرب والمسلمين، وتتشابك فوق خيوط إقليمية ودولية، ولكنها قابلة للحل بطريقة أو بأخرى، ويمكن لـ (إسرائيل) أن تقبل حلاً ما يعطي السيادة للفلسطينيين على المقدسات الإسلامية مع بعض الضمانات، أو حتى يمكن لـ (إسرائيل) أن تتنازل عن منطقة الأقصى للفلسطينيين، وحتى لو أدّى ذلك إلى هياج قطاع من المجتمع الإسرائيلي، وهو قطاع المتشدّدين؛ فإنه لن يؤدي إلى نهاية (إسرائيل) مثلاً، وكذا فإن المستوطنات يمكن الوصول إلى حل بشأنها؛ لأنها أولاً لا تمثّل إلا قطاعاً محدوداً من الإسرائيليين، وأنها ثانياً سوف تكون عبئاً كبيراً على الكيان الصهيوني في حالة الوصول إلى حل وإقامة دولة فلسطينية، فكما أنها تمثل احتراما لتلك الدولة، فإنها أيضاً رهينة داخل البحر السكاني

الفلسطيني ، وفي النهاية يمكن الوصول إلى حل ما بشأنها ؛ بل لعلنا لا نكون مبالغين إذا قلنا: إن (إسرائيل) تشددت بشأن قضية المستوطنات وقضية القدس لكي تجعل الاهتمام بهاتين القضيتين - وتحديداً بقضية القدس - يغطي على ما تريد من الحصول على صك فلسطيني ينهي قضية اللاجئين ، أي ينهي القضية ويريح (إسرائيل) للأبد ؛ لأن وجود كل لاجئ لم يعترف بشرعية الاستيطان والوجود الصهيوني ويريد العودة ؛ يعني أن هناك قنبلة زمنية ستنفجر في أي لحظة ، ولنا أن نتخيل قيام حركة بين المهاجرين ، لا علاقة لها بالسلطة ، ولا بالقوى السياسية الفلسطينية أو العربية المختلفة ، ولا علاقة لها بالحكومات ، ولا تهتم بغير حق العودة فقط ، واستطاعت أن تثير حماس هؤلاء الـ (٧) ملايين لاجئ ، لكي يتجمعوا يوماً في مكان ما في الأردن أو لبنان ويزحفوا بلا سلاح على (إسرائيل) ، ألن تغرق (إسرائيل) في بحر البشر الفلسطيني؟

نهاية إسرائيل:

هذه المسيرة المليونية الفلسطينية مشروعة تماماً ، ولن تجرؤ قوة إقليمية أو دولية على قمعها أو منعها ، هذه المسيرة ليست وحدها الإجراء الممكن ، بل كذلك يمكن التحرك دولياً في الأمم المتحدة ومراكز حقوق الإنسان والتجمعات الشعبية هنا وهناك لرفع قضية اللاجئين ، ولكن من منظور العودة ، ولا شيء سوى العودة ، إنه أمر مزعج مرعب لـ (إسرائيل) ، و(إسرائيل) تدرك أن التسليم بحق العودة يعني نهاية (إسرائيل) ؛ لأنها تتكون من (٤) ملايين يهودي ، بالإضافة إلى وجود (١و ٢) مليون عربي من عرب ٤٨ بالإضافة إلى (٢و ٥) مليون فلسطيني

في الضفة وغزة لن تتحمل عبء (٧) ملايين فلسطيني من الشتات، ولاسيما أن هؤلاء مشهورون بكثرة الإنجاب، أي أن اليهود سيغرقون في بحر بشري فلسطيني، وهو ما ينهي وجود الدولة لعبرية تماماً.

وهكذا فإن حق العودة هو ما ترغب (إسرائيل) في الحصول على صك من السلطة الفلسطينية بإنهائه، وإنهاء القضية وإغلاقها نتيجة لذلك، حتى لا يأتي يوم بعد عام أو عشرة أعوام ويطالب الجيل التالي من الفلسطينيين بالعودة، وبذلك يظل الوضع معلقاً فإن مطالب الأجيال لن تنتهي طبعاً وخصوصاً إذا استمر الصراع خصباً وساخناً والدماء تسيل.

وإذا كنا قد استنتجنا أهمية موضوع اللاجئين، وجعلناه الموضوع الأكثر خطورة، فإنه ليس من حق أحد لتسليم بإنهاء حق العودة للفلسطينيين؛ لأنه ليس حق الأجيال القادمة فحسب؛ بل هو حق المسلمين في بقاء الأرض المباركة أرضاً إسلامية، فيجب ألاّ يُفرط في هذا الحق، ولا يتعارض هذا، ويجب ألاّ يتعارض أصلاً مع أهمية عودة القدس والمقدسات الإسلامية في بيت المقدس؛ فهي كلّها قضايا هامة بالطبع؛ بل المفروض طبعاً عودة كامل التراب الفلسطيني من النهر إلى البحر، ومن الشمال إلى الجنوب.

حق العودة هو حق بدهي، وهو حق لا يختلف عليه اثنان، وهو أيضاً ثابت بالشرعية الدولية بالقرار رقم (١٩٤) الذي ينص على العودة والتعويض؛ أي عودة كل اللاجئين في كل مكان إلى فلسطين، وعودة المهجَّرين داخل فلسطين إلى قراهم الأصلية وبيوتهم الأصلية، ثم تعويضهم عن تلك الفترة التي قضوها في المنافي وعن استغلال (إسرائيل) والإسرائيليين لأرضهم وبيتهم طوال تلك المدة.

وبالطبع فإن (إسرائيل) وأمريكا، ومعهما ما يسمى بدعاة العقلانية يروجون لمقولة أن ذلك مستحيل ؛ لأن معنى عودة كل هذه الملايين نهاية (إسرائيل) وهذا غير ممكن - لماذا؟ . . وأن الإسرائيليين قد بنوا عمارات ومرافق ومدناً ومدارس وجامعات ومصانع على الأراضي المغتصبة . فكيف نهدم ذلك، ونعيده إلى أصحابه؟ . . وأن المطالبة بالمستحيل هو نوع من العنتريات التي عفا عليها الزمن، ومن الأفضل الحديث عن حلول واقعية ؛ بمعنى توطين اللاجئين في أماكن وجودهم أو البحث لهم عن أماكن أخرى، وتحسين ظروف حياتهم ومساهمة الأسرة الدولية في تعويضهم وتمويل توطينهم، وظهرت في هذا الإطار مشروعات لتوطين اللاجئين الموجودين في لبنان، وكذا الأردن وسوريا . . . إلخ ولكن الفلسطينيين الموجودين في هذه البلدان رفضوا ذلك، ورفضت حكومات لبنان وسوريا ذلك أيضاً، وهناك حديث عن توطينهم بالعراق مثلاً بعد الاحتلال الأمريكي، وبالطبع فإن أحداً لن يقبل ذلك، لا الفلسطينيون ولا لبنان والعراق وسوريا . . . إلخ .

حق العودة هو جوهر القضية ؛ لأنه يسحب شرعية وجود الدولة العبرية من أساسه، وعلينا ألا نخاف من طرح الموضوع، أي موضوع تفكيك دولة (إسرائيل) وإقامة وطن حر يعيش فيه الجميع على قدم المساواة ؛ ولأن الأمر كذلك فإن الحكومات الإسرائيلية المتعاقبة حرصت على الحصول على اعتراف بوجود وشرعية (إسرائيل) مقابل بعض التنازلات، بل حرصت أيضاً على إلغاء ميثاق منظمة التحرير مقابل اتفاقية أوسلو، وهذا لأنها تدرك أنه بدون الحصول

على صك الشرعية من العرب والفلسطينيين أنفسهم ، فإن الشعور بالأمان لدى كل المغتصبين سيظل منقوصاً ، وحتى لو اعترف العالم كله وبقي مجموعة من الفلسطينيين أو العرب يشككون في شرعية وجود الدولة العبرية ، ويطالبون بتفكيكها ، ولا يسلمون أو يعترفون بها ، فإن ذلك يعني أن الأجيال القادمة ستجد الجذوة تحت الرماد مشتعلة أو الجذور صالحة لم تمت ، وربما اندلع الطوفان من جديد!!

إلهاء الرأي العام العالمي:

وحتى يتم إرضاء أو إلهاء الرأي العام العالمي فإن مساعدة الفلسطينيين اللاجئين تتم طبعاً عن طريق وكالة غوث اللاجئين "الأونروا" التي تشكلت باقتراح من الولايات المتحدة الأمريكية ، والمساعدة هنا تكمن في تأهيلهم اقتصادياً واجتماعياً وتعويضهم عن الأضرار أو بناء مخيمات لهم ، أو تشغيلهم ما عدا حق العودة طبعاً ، وحاولت (إسرائيل) دائماً الادّعاء أن الفلسطينيين ليسوا شعباً بل هو مجتمع من العرب يمكن أن يذهبوا ليعيشوا في البلاد العربية ، وأنه ليس هناك دولة اسمها فلسطين ، وأن الفلسطينيين جاؤوا إلى تلك الأرض كرعاة فقط ، وهذا منذ زمن بعيد . . أما اليهود فهم شعب يتم تشكيله ، ويجب إعادتهم من كل مكان لتعمير تلك الأرض التي هي بلا سكان ولا صاحب ، وأنهم - أي اليهود - متحضرون ، أما الفلسطينيون فهمج وبرابرة هكذا - يزعمون إفكاً وكذباً - ولا يخلو الموضوع من طرائف إسرائيلية أو أشياء تثير الغيظ ، اليهود الذين هاجروا من البلاد العربية إلى (إسرائيل) ، ورغم أن ذلك تم بإرادتهم أولاً ، أو حتى رغم أنف تلك الدول التي ما أرادت أصلاً أن يخرجوا منها ، وربما

منعتهم فهربوا ، وثانياً نقول لهم: تفضلوا وعودوا إلى بلادكم واتركوا فلسطين . . ومن الطرائف والعجائب أيضاً ، أن جامعة هارفارد تبنت مشروعاً يقتضي اعترافاً ورقياً إسرائيلياً بالذنب وامتناع الفلسطينيين في المقابل باستحالة حق العودة .

والغريب أن رفض (إسرائيل) لحق العودة الفلسطيني ، أي عودة الفلسطينيين إلى أرضهم التي طُردوا منها قهراً منذ خمسين عاماً ، يترافق مع إصرار (إسرائيل) على منح حق الهجرة التي سموها العودة إلى فلسطين لأي يهودي في العالم: روسي أو مجري أو ألماني أو أمريكي أو عراقي أو يمني أو حبشي أو مغربي أو إيراني رغم عدم صلة هؤلاء بفلسطين ولا أجدادهم في أغلب الأحيان لعدة آلاف من السنين ، وربما بالمرة تماماً ؛ حيث إن معظم اليهود الحاليين لا علاقة لهم ببني إسرائيل الأصليين كما ذكر ذلك أكثر من باحث مرموق .

حق العودة للفلسطينيين ثابت بالتاريخ والجغرافيا ، رغم كل محاولات طمس الهوية ، وما دام هناك شعب فهناك قضية ، وخاصة أن هذا الشعب يتمسك بمفاتيح البيوت ، ويحكي الأجداد للأحفاد عن مدنهم وقراهم الأصلية وبياراتهم وحقولهم ، والحق ثابت ؛ لأن الاحتلال لا يلغي حق الملكية ؛ ولأن وعد بلفور وقرارات التقسيم وغير ذلك مما أدى عملياً أو رسمياً إلى قيام (إسرائيل) غير شرعي ؛ لأن الفلسطينيين لم يكونوا طرفاً فيه بل هم الضحية . عدد اللاجئين وتوزيعهم في العالم يتراوح بين ٥ و٧ سبعة ملايين ونصف مليون نسمة ، وهم موزعون أساساً في سوريا ولبنان والأردن والضفة وغزة ومصر وأمريكا وأوروبا ، ويبقى أن من الضروري - كما قلنا - ظهور هيئة تمثلهم ليست سياسية ولا علاقة لها بمنظمة التحرير أو السلطة الفلسطينية أو أي قوى سياسية أو حكومات ، تهتم

فقـط بتوثـيق الخـرائط والعقود والأوضاع والأرقام التي تؤكد حقوق اللاجئين في العـودة إلى فلسـطين والعمـل المتواصل لتأكيد حقهم في العودة لبلادهم التي هُجِّر منها آباؤهم وأجدادهم ؛ وما ضاع حق وراءه مطالب .

* * *

أمريكا تطلب العالم لبيت الطاعة

إما أن تكون مع الولايات المتحدة الأمريكية فأنت إذن فى محور الخير المطلق، أو لا تكون معها - حتى لو أردت أن تكون محايدا - فأنت فى محور الشر المطلق، ولا يوجد طريق ثالث.

والحقيقة أن فى المسألة نوعاً من الخطأ المقصود أو غير المقصود، فالمسألة لا علاقة لها بظهور مفاهيم جديدة، أو سيادة اليمين الأمريكي، أو ظهور نزعة عنصرية، ولكنه نوع من التطور الطبيعى له أسبابه الموضوعية فى البنية الأمريكية منذ نشأتها وطوال تاريخها وممارساتها انتهى لأسباب موضوعية أخرى إلى صعود اليمين الأمريكي، أو ظهور النزعة العنصرية الحالية، والرغبة فى الهيمنة على العالم وتقسيم العالم بهذه الطريقة البدائية، وانتهى إلى نشر القوات الأمريكية فى معظم أنحاء العالم، والسعى للمزيد من نشر تلك القوات واحتلال العراق وإطلاق يد الإرهاب الصهيونى بلا حدود فى الموضوع الفلسطيني.

نحن إذن أمام كيان عنصرى وإمبريالى وإمبراطورى منذ اللحظة الأولى؛ لأنه قام أساساً على فكرة تفوق الرجل الأبيض، وحقه فى السيطرة على أمريكا وإبادة سكانها الأصليين باسم الصليب وباسم التقدم وباسم رسالة الرجل الأبيض!! وهكذا فالعنصرية جزء لا يتجزأ من البنية الأمريكية منذ اللحظة الأولى، ثم الاسترقاق الواسع النطاق للسود الإفريقيين واستخدام سواعدهم فى بناء الاقتصاد والرخاء الأمريكي، وأمريكا باعتبارها وارثة القيم الغربية ما

انفكت أن أصبحت مثل أوروبا عنصرية- استعمارية ؛ ولأنه كان هناك صراع مستمر ، ونوع من توازن القوي ، أدى إلى تطاحن الدول الأوروبية فيما بينها على النهب والمستعمرات والأسواق ، ثم تطاحن المنظومتين الرأسمالية والاشتراكية ، فإن الفرصة لم تأت أصلا لظهور المفاهيم الإمبراطورية والعنصرية والاستعلائية المباشرة لعدم وجود المناخ الصالح ولا الانفراد لدولة واحدة ، اللهم إلا فى حالات سبقت ظروفها الموضوعية ففشلت مثل ألمانيا النازية ، أو إيطاليا الفاشية .

وعندما انتهى النفوذ الاستعمارى لمعظم الدول الأوروبية وسقط هذا النفوذ فى الفم الأمريكي ، باستخدام وسائل قديمة وجديدة ، ثم سقطت المنظومة الاشتراكية وتفكك الاتحاد السوفيتى السابق ، أصبحت الولايات المتحدة الأمريكية هى الدولة الوحيدة المنفردة بالقوة فى العالم ، فهى الأقوى عسكريا ، الأغنى اقتصاديا ، المهيمنة إعلاميا ، ومع التطور الهائل فى وسائل القوة والمواصلات كان من الطبيعى أن تتطور السياسات والمفاهيم بحكم الصيرورة الطبيعية إلى المفاهيم الإمبراطورية ، ومحاولات غزو العالم الذى بدأ منذ حرب الخليج الثانية ، ثم غزو أفغانستان ثم العراق . . وهكذا .

فالمسألة لا علاقة لها إذن بصعود نوع من القوى السياسية فى أمريكا ، بل إن الظروف الموضوعية هى التى أفرزت صعود تلك القوى والسماح لها بممارسة برنامجها الإمبراطوري ؛ ولأن الولايات المتحدة الأمريكية دولة مؤسسات ، فإنه حتى ولو كان الرئيس غير الرئيس والإدارة غير الإدارة ، فإن الأمر لم يكن ليختلف كثيراً .

ولعل هذا فى حد ذاته رد على هؤلاء الذين يقولون: إن أمريكا تغيرت ، أو تنكرت لمبادئ المؤسسين والآباء الكبار حين تمارس التمييز ضد العرب

والمسلمين ، أو تعاملهم بهذه الطريقة فى المطارات والموانئ ، أو تقول ما تقول تبريرا لعدوانها المستمر على أكثر من دولة فى العالم ، والصحيح أن أمريكا هى أمريكا كما هى فى حقيقتها ، وهذه هى الصورة الطبيعية والمتوقعة لها فى إطار تركيبتها مع إدراك الظروف الموضوعية .

وإذا كان ذلك كذلك ، فعلينا أن نبحث فى التوصيفات المختلفة التى تصف الحالة الأمريكية ، وإحدى هذه التوصيفات تقول: إن أمريكا تعيد عصر الإمبراطورية الرومانية ، وهذا صحيح إلى حد كبير ، فالإمبراطورية الرومانية حققت نوعا من العولمة أو السيادة المطلقة على العالم القديم ، لصالح وحساب الرومان فقط ، وكان سكان الإمبراطورية ينقسمون إلى سادة رومان وعبيد هم باقى السكان ، ولغة التفاهم الوحيدة بين الطرفين هى الطاعة المطلقة ، أو العصا الغيظة ، وهو نفس الأمر فيما يخص أمريكا ، وكذلك فإن العالم القديم كان يعيش فى ظل ما يسمى بالسلام الرومانى وهو ما تريد أمريكا أن تفعله ، بمعنى دخول الجميع فى السلام الأمريكي ، وهو طبعا كما كان السلام الرومانى نوع من الخضوع الكامل للقوة الأمريكية ونمط الحياة الأمريكية وما تقرره أمريكا من إسقاط هذا النظام أو هذا الرئيس أو تجميد أموال تلك الهيئة أو غزو ذلك البلد ، أو تحديد الطيب من الشرير!!

والمشكلة أو الفارق النوعى هنا بين الإمبراطورية الرومانية والإمبراطورية الأمريكية ، أن الأخيرة تمتلك أدوات قوة عسكرية واقتصادية ومواصلاتية أعلى بكثير جدا مما تمتلكه الأولى ، وهذا يعنى أن الخضوع سيكون أكثر قسوة ، ولكن فى نفس الوقت فإن الإمبراطورية الرومانية كانت تواجه شعوبا وأمما فى طور

التكوين ولم تكن شخصيتها الحضارية قد تبلورت بعد ، وهذا سهل لها مهمة الإخضاع ، وهو هنا على العكس ، فإن الأمريكان يواجهون أمما وحضارات وثقافات مكتملة التكوين ولن يكون خضوعها سهلا ، ولعل هذا بالتحديد ما يجعل الولايات المتحدة تسابق الزمن لضرب الحضارة العربية الإسلامية فى القلب واحتلال قلبها بقسوة وكثافة ، وكذا محاولات احتواء الصين وروسيا والهند ، والسيطرة على البترول للتحكم فى الاقتصاد الأوروبى والياباني ، أى منع تلك الحضارات والقوى من الاستمرار وتقزيمها أو قتلها إن أمكن .

من المفيد هنا أن نتأمل الورقة الأمريكية أو التقرير الذى أطلق عليه البعض مذهب بوش ، وهو تعبير حقيقى وواضح عن كل ما سبق ، والوثيقة أو الاستراتيجية الأمنية الجديدة أو استراتيجية الحرب الوقائية أو سياسات الردع والاحتواء ، والتى أصدرها البيت الأبيض ، وكتب مقدمة لها الرئيس بوش بنفسه ، وساهم فى صياغتها كبار العقول الاستراتيجية الأمريكية ، هذه الوثيقة تتضمن عدة مبادئ خطيرة ، منها ضرورة العمل الوقائى ضد أى خطر على أمريكا ، حقيقى أو محتمل ، وأنه لم يعد بوسع الولايات المتحدة الانتظار كما كانت تفعل فى السابق ، لا نستطيع السماح لأعدائنا بتسديد الضربة الأولى لنا ، وأن ذلك يعنى أن علينا أن نبادر بضرب أى خطر محتمل حتى لو أبدت الجهات الدولية الأخرى بما فيها الأمم المتحدة معارضتها ، وكتب بوش أيضا فى مذهبه الجديد من المسلم به وكإجراء دفاعى عن النفس فإن الأمريكيين سيتخذون إجراءات ضد تلك التهديدات المتنامية قبل أن تستكمل هذه الجهات بناء قوتها ، وأنها لن تتردد فى التصرف منفردة وسوف تمارس حق الدفاع عن النفس بإجراء

مسبق!! . . ووعد بوش بإجراء تغييرات هيكلية فى القوات المسلحة الأمريكية ليتسنى لها شن الحرب النبيلة المقدسة على الإرهاب والخطر المحتمل فى كل مكان آسيا وأمريكا الشمالية والجنوبية وأوروبا وإفريقيا والشرق الأوسط .

وهكذا فنحن أمام استراتيجية جديدة سوف تشكل تصرفات الولايات المتحدة لعقود مقبلة ، تقضى بأن أمريكا وحدها تحدد من هو الخطر عليها ، الحقيقى أو المحتمل ومن حقها أن تضربه قبل أن يصبح خطرا ، وهو مبدأ إمبراطورى خطير يجعل تدخل الولايات المتحدة فى أى مكان لا يحتاج إلا إلى أن تقرر الولايات المتحدة ذلك فقط لا غير ، وكذلك إصرار الوثيقة على أن الولايات المتحدة ستتصرف منفردة حتى لو عارضت ذلك الهيئات والجهات الدولية بما فيها الأمم المتحدة ، بمعنى إما أن تصبح الأمم المتحدة بوقا وذيلا ، وإما فلا حاجة لها ، وهذا معناه أن أمريكا أعطت لنفسها الحق فى تحديد الخطأ والصواب ، المشروع وغير المشروع ، وأعطت نفسها الحق فى تنفيذ ما تراه ملائما ، ومعناه أن العالم كله مطلوب لبيت الطاعة الأمريكي .

الوثيقة التى جاءت فى ٣٥ صفحة ومقدمة كتبها الرئيس بوش بنفسه أو بمعنى أصح وقعها باسمه ، حددت العدو فى أنه الإرهاب ومن يحمى أو يؤوى أو لا يقاوم الإرهاب ، وهذا معناه كل العالم تقريبا ؛ لأن الإرهاب يمكن أن يوجد حسب المفهوم الأمريكى فى كل من يعارض سياسة الولايات المتحدة أو يناهض الصهيونية مثلا ، والتعريفات بالطبع مطاطة ، واليوم على قائمة الإرهاب عشرات المنظمات وآلاف الأشخاص وغدا المزيد وهكذا ، وهى تهمة مطاطة طبعا تبرر العدوان اليوم مثلا على العراق وسوريا ولبنان والسعودية وإيران وباكستان

واليمن والسودان وغيرها ، فكل هذه الدول بها إرهابيون ، وغدا مصر والجزائر والمغرب وتونس وجنوب إفريقيا وفنزويلا وأندونيسيا وهلم جرا !!

وإذا كان الإرهاب وحده لا يكفى فإن الوثيقة حددت دوراً أمريكياً فى نشر القيم الحضارية - الحرية وحقوق الإنسان - فى العالم ومناهضة الديكتاتوريات والتمييز الدينى وغيرها ، وهو نفس مضمون رسالة الرجل الأبيض الذى برر بها الأوروبيون استعمار آسيا وإفريقيا وتنظيم المذابح والتدمير والوحشية والنهب وتقطيع الأوصال ، وهو نفس الأمر المتوقع على يد السيد الأمريكى حامل شعلة الحرية ، والحرية منه براء .

الوثيقة تشير بوضوح إلينا ، كعرب ومسلمين ، كأول هدف ، ولكنها لا تنسى الصين التى - حسب الوثيقة - تهدد جيرانها فى آسيا والمحيط الهادى من خلال تطوير قدراتها العسكرية المتقدمة ، وأنه على أمريكا أن تسعى للحد من ذلك ، وهو أمر يمكن القياس عليه ، بأنه غير مسموح لأى دولة فى العالم أن تبلغ مبلغا معينا من القوة العسكرية أو الاقتصادية وإلا ستتعرض لتدخل الولايات المتحدة التى سوف ترى فى ذلك تهديدا للجيران يجب وقفه!!

الوثيقة بالطبع تدعو إلى المزيد من فتح الأسواق ، وحرية التجارة والانفتاح الثقافي ، وهى كلها تعبر عن حقيقة السماح لأمريكا بأكبر قدر من النهب وتدمير البنية الثقافية للحضارات والشعوب الأخرى .

الوثيقة واضحة لمن أراد أن يعرف إلى أين يسير العالم وماذا ستفعل أمريكا به اليوم أو غدا أو بعد غد .

* * *

هل تصلح أمريكا لقيادة العالم؟

مع انهيار الشيوعية ، وانفراد أمريكا بالقوة العسكرية في العالم ، طرحت أمريكا نفسها كقيادة للعالم ، واعتبرت أن هذه هي فرصتها ، وأنه يجب أن يكون القرن الواحد والعشرون قرنا أمريكيا ، وأمريكا لم تقدم نفسها كقيادة عسكرية للعالم فقط ، بل تريد أن تقدم نفسها كقيادة سياسية واقتصادية بل وقيمية وحضارية للعالم ، أو بكلمة أخرى تريد الهيمنة على العالم في كل شيء بدءًا من النفوذ العسكري ومرورًا بالنفوذ الاقتصادي والسياسي وانتهاء بالنفوذ الثقافي .

وأمريكا التي تريد الانفراد بالقيادة في العالم الجديد أو النظام العالمي الجديد كما يحلو لها أن تسميه لابد أن تستخدم في هذا الصدد الجزرة والعصا ، فهي ترسم لنفسها صورة وردية ويرسم لها المؤيدون أو التابعون أو المأجورون صورة زاهية وقيما رفيعة ، فهي ذات مسؤولية عالمية ، ومدافعة عن الحرية ، وتريد عالمًا بلا حروب ، وتريد مساعدة العالم كله على الرخاء والحرية .

وبالطبع تقدم قيمها السياسية كما لو كانت أفضل القيم ، فالتاريخ قد انتهى وأثبت صحة اقتصاد السوق ، والليبرالية الرأسمالية ، والنزعة الفردية وهكذا .

ومن ناحية أخرى فإنها تلوح بالعصا الغليظة لمن لا يريد الخضوع لهذا النظام العالمي الجديد أو الهيمنة الأمريكية وتهدد بأنها سوف تضرب

بقسوة كل من يتحدى جبروتها سواء كان من الأعداء أو الأصدقاء على حد سواء يقول بريجنسكي:

" إن أفول نجم الاتحاد السوفيتي معناه تفرد الولايات المتحدة بمركز الدولة العظمى ذات المسؤولية العالمية " .

ويشرح نيكسون في كتابه الهام " انتهزوا هذه الفرصة " ملامح تلك القيادة الأمريكية مقدما لها صورة وردية بالطبع .

يقول نيكسون:

"سيعلم الجميع أنه بدون الولايات المتحدة الأمريكية فلن يكون هناك سلام أو حرية في العالم أجمع سواء في الماضي أو في الحاضر أو في المستقبل" .

" يجب أن نضطلع بدور أساسي في قيادة العالم لكي نجعله في وضع أفضل مما هو عليه الآن ، وليس لمجرد المحافظة على وضعه كما هو ، يجب أن نعيد الثقة في عقيدتنا ، وفي مثلنا ، وفي قدرنا ، وفي أنفسنا ، نحن موجودون لنصنع التاريخ ، ونفتح آفاقًا جديدة للمستقبل " .

" ليس هناك مكان أروع إثارة يمكن أن تعيش فيه ولا أرقى منه إلا أمريكا ، لقد ظل الناس على مدى قرون طويلة يحلمون بالسلام والحرية والتقدم في العالم أجمع ، ولم نكن في يوم من الأيام أقرب إلى تحقيق هذه الآمال من يومنا هذا " .

" إن علينا حمل عبء قيادة العالم ؛ لأننا شعب عريق ، لقد عشنا في حقبة من الزمن لم يتيسر لشعب آخر أن يعيش فيها ، وله ما لنا من مميزات ولن يتيسر لغيرنا في المستقبل - على الأرجح - أن يمر بها ، علينا

أن نـتهز الفرصة ليس فقط لأنفسنا ولكن أيضـًا لغيرنا " .

" تمثل أمريكا ثلاث قيم لها أهمية كبرى هي:

الحرية ، الفرصة المتاحة ، احترام الإنسان لذاته " .

" إن الولايـات المتحدة الأمريكية تستطيع أن تقوم بدور القيادة في العالم وعلى العام أن يتبع خطانا " .

" لا تستطيع أي دولـة سوى الولايات المتحدة أن تقوم بدور القيادة في العالم ، ربمـا تستطيع إحـدى الـدول أن تحـل محلـنا مـن الناحـية العسكرية . . وقد يصل الـبعض إلى مـا وصـلنا إليه اقتصاديـًا ، ولكن ليس هناك إلا الولايات المتحدة التي تملـك القـوى العسـكرية والسياسـية والاقتصـادية لـتقود العـالم في طريق الحرية ، ومقاومـة الاعـتداء والأهـم مـن ذلـك أن تأثيرنا لا ينبع فقط من القوة العسكرية والاقتصـادية ، ولكـن ينبع أيضـًا من الإعجاب بمبادئنا ومثلنا ، ونحن البلد الوحيد في العالم الذي رفع اسمه بقوة مبادئه وليس بقوة سلاحه ".

إذن أمـريكا تقـدم نفسـها للعالم ولكن أيضـًا لأنها تحمل قيما عظيمة ، وينبغي عـلى العـالم أجمـع أن يدخل في هذه القيم وأن يتخلى الجميع عن قيمهم الحضارية الذ تـية ، وأن يخضع وهو سعيد لقيادة أمريكا ، وإلا فإن من يرفض أو يعارض أو حتى يتململ فإن الويل والثبور وعظائم الأمور من نصيبه .

وفي الحقيقـية فإن هذه الصورة الوردية التي تروجها أمريكا ويروجها مؤيدوها صـورة مـنافقة وكاذبـة وتفـتقر إلى الحد الأدنى من الجدية ، فلا هي دولـة صاحبة قيم عظيمة ولا ممارسات عظيمة ولا هي دولـة بهذه القوة التي يتحدثون عنها .

والصورة الحقيقية لأمريكا، تقول: إن أمريكا ذاتها نشأت من خلال جريمة كبرى وهي إبادة شعب " الهنود الحمر " واستلاب أرضه والعيش فيها رغم أنفه وعلى حسابه " أباد المهاجرون الأمريكيون أكثر من مائة مليون من الهنود الحمر وهو رقم كبير بحساب وقت تنفيذه . . . أي أن كل مهاجر أباد أربعة من الهنود الحمر وبالتالي فقد عاش على جماجم أربعة من البشر " .

وهؤلاء الذين أنشؤوا أمريكا أو سلبوها من أهلها كانوا من حثالات المهاجرين والمغامرين والأفاقين الأوروبيين، وهؤلاء بدورهم أبادوا الهنود الحمر، ثم استقدموا الرقيق الإفريقي ليسخرود في بناء أمريكا، أي أن أمريكا قامت على النهب والإبادة والعنصرية، والتفرقة العنصرية التي عاشت أمريكا فترة طويلة من تاريخها القصير تمارسها بصورة رسمية ما تزال موجودة ومتغلغلة في الوجدان الأمريكي وما تزال آثارها ملموسة حتى الآن في كل مكان بأمريكا، فأي عالم إذن يمكن أن نتوقعه تحت قيادة أمة نشأت على النهب والإبادة والعنصرية؟!!

إن الأمة الأمريكية تمثل كل القيم البشعة للحضارة الغربية، تلك الحضارة التي قامت على نهب الشعوب واسترقاقها وأذاقت كل البشرية الويلات خلال فترة الاستعمار ولا تزال، وما دامت الأمة الأمريكية جزءًا من الحضارة الغربية فهي تمتلك كل مقوماتها الحضارية وهي العنف والقهر والنهب والعنصرية، بل إنه يمكن القول: إن الأمة الأمريكية هي أسوأ التطورات في الحضارة الغربية؛ لأنها نشأت من حثالة البشر في تلك الحضارة الغربية؛ ولأنها نشأت من خلال جريمة إبادة الهنود الحمر سكان أمريكا الأصليين" .

إن سجل الجرائم الأمريكية مكتظ ومفعم، فأمريكا التي تدعي أنها رفعت

اسمها من خلال المبادئ، وليس من خلال القوة هي نفسها التي قامت بهذه المجموعة الكبيرة من الجرائم وهي كالتالي:

- إبادة شعب أمريكا الأصلي " الهنود الحمر ".
- استرقاق السود وتسخيرهم في بناء أمريكا.
- غزو نيكاراجوا سنة ١٨٨٣.
- الهجوم على بيرو ١٨٣٥.
- اقتطاع أرض مكسيكية هي ولاية تكساس حاليًا (من سنة ١٨٤٦ - ١٨٤٨) بالإضافة إلى كاليفورنيا ونيومكسيكو.
- تدمير ميناء جراي تاون في نيكاراجوا - غزو أروجواي - غزو قناة بنما (١٨٥٤).
- غزو كل من نيكاراجوا، كولومبيا عدة مرات منذ ١٨٥٧ - ١٨٩٩.
- التدخل في هايتي ١٨٨٨.
- التدخل في تشيلي ١٨٩١.
- غزو كوبا واقتطاع قاعدة بحرية في خليج جوانتا نامو (١٨٩٨ - ١٩٠١).
- غزو كولومبيا ١٩٠١ - ١٩٠٢.
- غزو هندوراس ١٩٠٢.
- التدخل في كوبا ١٩٠٦.

- الاستيلاء على ست مدن في هندوراس ١٩٠٧ .
- سرقة البنك المركزي في هاييتي عن طريق إنزال المارينز الأمريكيين في هاييتي سنة ١٩١٤ .
- قصف فيركروز ١٩١٤ .
- دخول هاييتي مرة أخرى ١٩١٥ .
- دخول المكسيك ١٩١٦ ، وفي نفس العام دخلت القوات الأمريكية الدومنيكان وسيطرت عليها بحكومة عسكرية حتى ١٩٢٤ .
- التدخل في السلفادور سنة ١٩٣٢ .
- الإطاحة بحكومة جواتيمالا ١٩٥٤ .
- عملية خليج الخنازير في كوبا ١٩٦١ .
- حصار كوبا جوا وبحرا ١٩٦٢ .
- التدخل العسكري في فيتنام وكوريا لمدة طويلة وكذلك كمبوديا ولاوس وتايلاند .
- مساعدة المخابرات الأمريكية في قتل جيفارا في بوليفيا ١٩٦٧ .
- عملية غزو بنما وجرينادا والتدخل في السلفادور (١٩٨٣ - ١٩٩٠) .
- أما ما خص العرب منها:
- دعم قيام إسرائيل والاعتراف بها ١٩٤٨ ، ثم تقديم عشرات المليارات إلى

إسرائيل لدعمها فضلاً عن السلاح والمعلومات الاستخبارية وغيرها حتى اليوم .

- التدخل العسكري في لبنان ١٩٨٣ .
- ضرب ليبيا ١٩٨٦ .
- اختطاف الطائرة المصرية إبان حادثة السفينة أكيلي لاورو ١٩٨٦ .
- إسقاط طائرة الركاب الإيرانية المدنية فوق مياه الخليج ١٩٨٨ .
- تدمير العراق والكويت ١٩٩٠ .
- ضرب السودان وأفغانستان ١٩٩٨ .
- احتلال أفغانستان ٢٠٠١ .
- احتلال العراق ٢٠٠٣ .

وإذا كانت الصورة الوردية التي ترسمها أمريكا لنفسها أو يرسمها لها مؤيدوها صورة كاذبة ومنافقة وغير حقيقية ، فإن الصورة الأخرى التي تكمل بها أمريكا ومؤيدوها حصارها حول العالم وهي صورة أمريكا القوية القادرة التي لا تستطيع قوة أخرى تحديها هي أيضًا صورة مبالغ فيها لإيقاع الرعب في نفوس الآخرين ، وأن الصورة الحقيقية لأمريكا ليست بهذه القوة ولا بهذه القدرة ويمكن بالصمود والمواجهة أو بعوامل الضعف الداخلية الأمريكية أن تسقط هذه القوة بأسرع مما نتصور .

إن الحقائق المعروفة والمنشورة تقول: إن أمريكا أكبر بلد مدين في العالم حاليًا ،

وميزان مدفوعاتها يعاني عجزًا هائلاً ، وميزانها التجاري مع بلد مثل اليابان شديد الاختلال لصالح اليابان ، وإن كثيرًا من الصناعات والمؤسسات الصناعية الأمريكية ، إما أفلست أو على وشك لإفلاس وأن البطالة تتفشى في أمريكا وأن الإيدز والمخدرات وضعف مستوى التحصيل الدراسي والتفرقة العنصرية تعمل بقوة ونشاط على انهيار أمريكي قريب

ونيكسون نفسه في كتابه الأخير " الفرصة السانحة " يعترف ببعض هذه الحقائق .

يقول نيكسون: " وما لم تقم الدولة بتطوير سياسة لتعليم لتخريج علماء وباحثين من شباب الأمريكيين فسوف تفقد تقدمنا الصناعي والتكنولوجي ، وأمريكا بها أكثر من ٢٥ % لم يحصلوا على شهادة إتمام الدراسة الثانوية ، وكثير من الذين حصلوا عليها يفتقدون المهارات اللازمة ليندمجوا في المجتمعات الحديثة ، أما فيما يختص بالعلوم والرياضيات فشبابنا يأتي في ذيل القائمة التي تضم الدول الصناعية ولو أن لنا قليلاً من المدارس العامة على مستوى جيد ، إلا أن أغلبها أقل من مستوى الدول المتخلفة ، وقد انحدر مستوى أغلب المدارس وأصبح الطلبة لا يشعرون بالرغبة في الدراسة بحماس ، ويقضون سعة أو أقل في الدراسة بالمنزل وثلاث ساعات أو أكثر أمام لتليفزيون يشاهدون برامج تافهة يوميا ، ,ن أمريكا ينحدر مستواها في التعليم شيئًا فشيئًا خصوصًا فيما يخص العلرم والتكنولوجيا " .

وفيما يخص الاقتصاد يعترف نيكسون قائلاً: " حدث انخفاض في رأس الم‍ال في الصناعة مماثل لما حدث في رأس المال البشري في التعليم ، إن الادعاء بأن

النقص في الميزانية الفيدرالية لا يهم غير صحيح . إن نقصًا يعادل ٥ % في مجموع الإنتاج القومي يوضح اتجاها معينا للاقتصاد ، ولما كان العجز يعاد تمويله من المدخرات الشخصية والاستثمارات الأجنبية ، فإن استنزاف هذه المدخرات في قروض صغيرة الأجل لابد من استثمارها في مشاريع طويلة الأجل يجعله كالمياه التي تنخر في القواعد التي يقوم عليها الاقتصاد " .

ويقول نيكسون: "إن أمريكا لديها مشاكل عويصة في الداخل ، فهناك ٣٨ مليونًا من سكانها لا يتمتعون بالرعاية الصحية ؛ لأنهم لا يستطيعون دفع اشتراكاتها ، واستهلاك المخدرات في أمريكا أكثر من استهلاك دول العالم مجتمعة رغم أنها تأتي في المرتبة العشرين من حيث تعداد السكان ، وفي أمريكا أكبر معدل ارتكاب الجرائم في العالم والأشرار فيها في تزايد مستمر بحيث جعلوا مدننا الكبيرة غير آمنة

تعمدت أمريكا أن تسرب تقريرًا استراتيجيا أمريكيا تعاونت في وضعه مختلف الأجهزة الأمريكية ، حذرت فيه أية دولة أو قوة غير أمريكية من مغبة منازعة أمريكا في هيمنتها العالمية لأمريكا وإما أن تستحق الموت أو العقاب . . وعليك أن تختار!!

* * *

إعلان الهزيمة

الهزيمة الاستراتيجية للولايات المتحدة الأمريكية في العراق ، أصبحت حقيقة مؤكدة يجمع عليها كل الخبراء الاستراتيجيين بمن فيهم من داخل أمريكا نفسها ، وربما لا ينكر هذه الحقيقة إلا بعض الواهمين ، الذين لا يريدون الاعتراف بذلك ؛ لأن هذا الاعتراف يعني نهايتهم وفضيحتهم أولا ، ويعني أنهم راهنوا على الحصان الخاسر .

ثانيا حين تعاونوا مع الاحتلال أو بنوا خطتهم على إمكانية هزيمة إرادة الشعب العراقي ، وعلى هؤلاء بالطبع أن يعدوا أنفسهم للحظة الانسحاب الأمريكي من العراق ، سواء بالفرار معه ، أو الإمساك بذيل طائراته المنسحبة كما فعل عملاء واشنطن في سايجون " فيتنام " عندما تمت هزيمة القوات الأمريكية هناك ، وهؤلاء الذين فعلوا ذلك مع العراقيين خصوصا فقدوا شرفهم أولا وفقدوا مصداقيتهم وإمكان استمرارهم في العراق بعد ذلك ، وهؤلاء كثيرون ولكن أكثرهم بؤسا هم أمثال الجعفري والحكيم ومن لفائفهم ؛ لأن قيادات الأكراد لهم حسابات أخرى مع جماهيرهم تمكنهم من الاستمرار حتى ولو بصعوبة بعد رحيل الاحتلال ، أما السنة الذين تعاونوا مع الاحتلال فهم بلا قيمة جماهيرية أولا ، وعددهم محدود .

ثانيا الآثار المترتبة على الهزيمة الأمريكية في العراق ستكون استراتيجية فهي نوع من إعلان قدرة الشعوب - بالإرادة والإيمان - على هزيمة أعتى قوة عسكرية ، وهذا يعني أننا بإزاء عصر الشعوب المجاهدة ، وهو أمر له مردوده

السياسي والعسكري والثقافي على المشروع الأمريكي بكاملة ، وسيكون حافزا في أماكن مثل أفغانستان ولبنان وغيرهما على تحدي الإرادة الأمريكية ، وهو نوع من بداية النهاية لعصر الغطرسة الأمريكية ونهاية المشروع الإمبراطوري الأمريكي بكامله ، ويمكن أن يشكل في التحليل النهائي بداية انهيار المشروع الصهيوني ذاته من ناحية ارتباط هذا المشروع الصهيوني بالمشروع الأمريكي وهزيمة الأخير في المنطقة بالتحديد سيلقى أثارا سلبية ضخمة على المشروع الصهيوني ويشكل حافزا للقوى المجاهدة وللشعب الفلسطيني لاستمرار الانتفاضة والمقاومة باتجاه القصد النهائي ، ولن نكون مقرنين في الخيال إن قلنا: إن انتصار المقاومة العراقية - السنية - هي بداية عصر العالمية الإسلامية الثمانية بإذن الله ؛ لأن السنة هم الهيكل الأساسي للأمة الإسلامية وإذا تحركت السنة تحركت الأمة بكاملها واستعادت ذاكرتها الجهادية والنضالية والرسالية وهو أمر أخطر من اندلاع الثورة الإسلامية في إيران ؛ لأن انحصار ذلك في المشروع الشيعي جعلها عجزة أن تفتح عصر العالمية الإسلامية الثانية نظرا لمحدودية وأخطار وتراث المشروع الشيعي السلبي في عمومه بالنسبة للأمة .

على كل حال فإن من المفارقات الهامة في هذا الصدد أن التربص الأمريكي و لإسرائيلي بحزب الله في لبنان واستهداف هذا الحزب بالتصفية ، وكذا استهداف إيران وسوريا أمريكيا وإسرائيليا ، والذي كان من الممكن أن يتم لو نجح المشروع الأمريكي في العراق لم يفسره وتعرقله اتصالات المقاومة العراقية وهكذا فإنه من الممكن بشيء من التجاوز والمجاز أن نقول: إن أمثال الجعفري والحكيم شاركا في استهداف حزب الله وسوريا وإيران ، على حين قام أمثال أبي مصعب الزرقاوي

بحماية حزب الله وسوريا ولبنان بل وإير ن .

* * *

إعلان الهزيمة الأمريكية في العراق لم تعد إلا مسألة وقت ، وصحيح أن اندلاعات المقاومة العراقية بعد فتره قصيرة من سقوط بغداد في ٩ أبريل ٢٠٠٣ ، ثم استمرار تلك المقاومة رغم كل لمصاعب ، ثم صمود تلك المقاومة أمام عمليات الجيش الأمريكي وقوات الأحزاب الكردية والشيعية المتعاونة مع الاحتلال ، بل وفشل كل العمليات الضخمة لاستئصال المقاومة التي اتخذت أسماء مثل الأفعى ذات الأجراس وعقرب الصحراء والبرق وتقدم المحاربين وغيرها من الأسماء الرنانة ، يعني مباشرة أن استمرار الوجود الأمريكي في العراق أصبح مستحيلا؟ بل إن زيادة القتلى والجرحى الأمريكيين في الوجبة اليومية للمقاومة العراقية كان سمة ثابتة بعد كل عملية - اعترف الأمريكيون بمقتل ٢٨ جنديا في يوم واحد بعد عملية البرق يوم ١٢ يونيو ٢٠٠٥ تحديدا .

إعلان الهزيمة جاء هذه المرة من الداخل الأمريكي نفسه ، فالرأي العام الأمريكي الذي خضع طويلا للخداع بدأ يفيق ، ففي استطلاع لمعهد جالوب ما بين ٦ يونيو- ٨ يونيو ٢٠٠٥ تبين أن ٥٩% من الأمريكيين يرغبون في أن تقوم الولايات المتحدة الأمريكية بانسحاب عسكري كامل أو جزئي من العراق ، وأن ستة من كل عشرة أمريكيين يرغبون في انسحاب القوات الأمريكية وقال رونالد سبيكتور الأستاذ في التاريخ العسكري بجامعة جورج واشنطن: إنه حتى الذين كانوا يعتبرون التخلص من صدام حسين فكرة جيدة يقولون: نريد أن يعود جنودنا مشيرا إلى أن الرأي العام الأمريكي يتغير!

في إطار آخر بدأ عدد كبير من النواب الجمهوريين " ومن حزب الرئيس بوش في الانضمام إلى النواب الديمقراطيين في الحملة الداعية إلى جدول زمني للانسحاب الأمريكي من العراق ، ويرى السيناتور الأمريكي الجمهوري دينزي برهام: أن التمرد المسلح في العراق في حالة جيدة ، وأن الإدارة الأمريكية بطيئة التكيف ولا تقدر قوة التمرد العراقي جيداً ، وأن الجيش الأمريكي يواجه نقصا خطيراً في إعدادا المجندين ؛ لأن الحرب تزداد مرارتها في أفواه الآباء والأجداد . وحذر من أن الرأي العام الأمريكي سوف ينصرف عن دعم الإدارة الجمهورية ما لم تتصرف في هذا الخصوص " أما النائب الجمهوري عن ولاية نورث كارولينا وولتربونز فقد طالب بوضع جدول زمني للانسحاب من العراق وقال: لتثبت عدم صحة ذهابنا للعراق وأن قلبه يدمي على آلاف القتلى والجرحى الأمريكيين هناك ، تصريحات مماثلة أدلى بها أكثر من نائب جمهوري حول ضرورة الانسحاب ، الفشل الأمريكي زيادة عدد القتلى والجرحى ، الخطط العربية في العراق . . . إلخ ، الأمر الذي يعني أولا فشل الإدارة الأمريكية تجاه الحزب الجمهوري ذاته في تبرير استمرارها في العراق ، وسقوط تبريراتها بشأن هذا الغزو ، وهو أمر يعني مباشرة أن الانسحاب أصبح حتميا ولو بعد حين .

على صعيد آخر فإن وزارة الدفاع الأمريكية أعلنت عن عجزها عن الوصول إلى الخطة المستهدفة لتعيين أفراد جدد في القوات المسلحة الأمريكية للشهر الرابع على التوالي ، وأن هذا العجز وصل إلى ٤٠% وهو ما وصفه السيناتور الأمريكي جوزيف بايدن بكلمة واحدة هي " الفشل " .

* * *

وا معتصماه

في غضون شهري مايو ويونيو ٢٠٠٥ تفجرة فضيحتان تمس العقائد الإسلامية والمشاعر الإسلامية ، الأولى في الولايات المتحدة الأمريكية ، والثانية في إسرائيل ، ولعل تفجير الفضيحتين في بلدين معينين يشير إلى طبيعة المسألة ويعطي أكثر من دلالة .

الفضيحتان ذات طابع واحد ، وكى منهما تتعلق بتدنيس القرآن الكريم وهو الكتاب المقدس لدى المسلمين ، ففي الولايات المتحدة الأمريكية كانت صحيفة النيوزيك الأمريكية قد نشرت أخباراً عن قيام جنود وضباط من حراس سجن جوانتنا مو حيث تعتقل السلطات الأمريكية أكثر من ٤٥٠ شخصا بدون محاكمة منذ أكثر من ثلاث سنوات ولم توجه تهمة محددة إليهم ، وتستغل وجود هذا المعسكر خارج الأراضي الأمريكية حتى لا تنطبق عليه القوانين الأمريكية ، ولكنه تابع لوزارة الدفاع الأمريكية " البنتاجون " وهو شكل من أشكال التحايل لا تنطبق على أحد ، وقد ناشدت العديد من منظمات حقوق الإنسان السلطات الأمريكية بإغلاق المعسكر أكثر من مرة ولكن وزارة الدفاع الأمريكية تصم أذنيها عادة عن سماع تلك المناشدات ، كما سجلت أكثر من جهة حقوقية وسياسية وجود تعذيب وانتهاك واضح لحقوق الإنسان على نطاق واسع في ذلك المعسكر ، واعتبر البعض ذلك بما فيهم شخصيات أمريكية نوع من الإساءة إلى القيم الأمريكية!! وامتداد للممارسات النازية والستالوينين ، على كل حال فإن نشر مجلة النيوزويك لتلك الأخبار آثار ردود فعل غاضبة في الشارع الإسلامي ،

واندلعت المظاهرات في أكثر من مكان في أفغانستان وباكستان وإندونيسيا ومصر وفلسطين وغيرها ، على حين سكتت الحكومات العربية والإسلامية تماما ، ولم تفعل شيئا ، وهو نوع من إعلان العجز والإفلاس بالطبع بالنسبة لتلك الحكومات ، ولكن حركة الشارع الإسلامي رغم محدوديتها - أثبتت أن الوجدان الإسلامي لا يزال موجودا ، ويمكن أن يشكل رداً من نوع ما في وقت ما ، وهو ما دفع الإدارة الأمريكية على إنكار تلك الأخبار للتشكيك في نفسها ومصداقيتها ، لتطويق رد الفعل الشعبي الإسلامي : ويبدو أن المجلة فضلت أن تكذب نفسها عى أساس أن تلك مصالح استراتيجية!! بالنسبة للولايات المتحدة التي تخوض ما تسميه حربا ضد الإرهاب ونشر تلك الأخبار يعطي نوع من المشروعية لذلك الإرهاب الإسلامي ، ولكن لأن المسألة حقيقة أولا ، وتمت الصورة واسعة ثانيا تكررت مرات عديدة ثالثا ، فإن الإدارة الأمريكية اضطرت في النهاية إلى الاعتراف بوقوع حالات تدنيس للمصحف الشريف في سجن جوانتانا مو ، ولكنها بالطبع حاولت التقليل من شأن الحادثة باعتبارها نادرة الحدوث وباعتبار أنها تحترم المعتقدات الدينية!!

المهم في هذا الصدد أن التحقيق الذي أجرته وزارة الدفاع الأمريكية والذي أذاعه الجلال بريجادير " جاي هود ' قائد المنطقة العسكرية الجنوبية - التي يقع سجن جوانتانا مو في نطاقها - تقريرا عنه اعترف بوقوع خمس حالات مؤكدة لتدنيس نسخ من المصحف الشريف . وهناك ١٤ حالة غير مؤكدة حسب تقرير الجنرال هود!!

ويعترف تقرير هود بأشياء مثل تلويث المصحف بالبول ، تمزيق أوراق

المصحف، دهس المصحف بالأقدام، كتابة ألفاظ نابية على المصحف.

المنظمات الحقوقية من جانبها، وأقوال المعتقلين أنفسهم، تصف حالات تدنيس المصحف بأنها حالات متكررة ومعتمدة وعلى نطاق واسع.

الحادثة الثانية حدثت في سجن مجدو الإسرائيلي الذي يضم أسرى فلسطينيين حيث تم تمزيق المصاحف على يد الجنود الإسرائيليين أثناء عمليات تفتيش عنبري ٢، ٣ في سجن مجدو الإسرائيلي وهو ما دفع الأسرى الفلسطينيين إلى الإضراب عن الطعام احتجاجا، كما اندلعت مظاهرات في غزة بهذا الصدد، وسكتت حكومة السلطة الفلسطينية عن أي رد فعل...

ومن الملاحظ أن حادثة سجن مجدو جاءت بعد أقل من شهر من تفجير فضيحة سجن جوانتانامو الأمريكي، مما يعني أن هناك نوعا من الاستفزاز الواضح والمتعمد لمشاعر المسلمين عموما والمساجين منهم خصوصا، وإن هناك أيضا وجدانا معاديا للمشاعر الإسلامية داخل عقلية الجنود والضباط الإسرائيليين والأمريكيين، وأن الأمر لا يتصل فقط بتوجيهات من القوى الحاكمة في أمريكا وإسرائيل، بل هي حالة أوسع من ذلك، وإن هناك إحساسا إسرائيليا وأمريكيا بعدم قيمة الحكومات العربية والإسلامية؛ لأن الحكومات العربية والإسلامية؛ لأن تلك لو كان لها احترام حقيقي لدى الأمريكيين والإسرائيليين لما تم تكرار الأمر بهذه الصورة، وإن رد الفعل الشعبي كان أقل من المتوقع وهو أمر له دلالة خطيرة!!

مسألة تدنيس المصحف الشريف في السجون الإسرائيلية والأمريكية أمر ليس

هينا ، فالمصحف الشريف كتاب المسلمين المقدس وهو أهم الرموز الإسلامية بالطبع ، ولكن أيضا فإن التعذيب والتنكيل الذي يتعرض له الأسرى المسلمون في السجون الصهيونية والأمريكية وهو أمر خطير ويقتضي رد فعل شعبي واسع لمحاولة إيقافه .

وما دام الرمز والإنسان يتعرضان للتدنيس على يد الأعداء ، فإن الأمر يستدعي حركة شعبية وغير شعبية لوقف هذا الامتهان ، وفي هذا الصدد هل نذكر الخليفة العباسي المعتصم الذي حرك جيوش الدولة وحوالي ٢٠٠ ألف جندي وقاد ذلك الجيش بنفسه لمعاقبة البيزنطيين عندما أغاروا على حصن زمطرة على أطراف الدولة العباسية عام ٨٣٢ م ، ٢٢٢هـ ، واعتدى جنود البيزنطيين على بعض النساء فصرخت إحداهن " وا معتصماه " ووصل خبرها إلى الخليفة الذي استجاب إلى الاستغاثة وحرك الجيش عام ٢٢٣هـ ، ٨٣٣م ودخل عددا من المعارك ضد الإمبراطور ثيونيل انتهت بفتح مدينة عمورية يوم ١٧ رمضان عام ٢٢٣هـ ، ١٢ أغسطس ٨٣٣م وقد سجل الشاعر المعروف أبو تمام ذلك الأمر في قصيده مطلعها:

السيف أصدق أبناء من الكتب ::: في حده الحد بين الجد واللعب

* * *

تطور نوعي في ممارسة الإخوان المسلمين ولكن!!

المتابع للتطورات السياسية والحزبية المصرية في الآونة الأخيرة يكتشف للوهلة الأولى أن هناك تطورا نوعيا - هاما وجيداً - في ممارسة الإخوان المسلمين في مصر ، فالجماعة بادرت - والمبادرة هنا جزء هام في الموضوع بإثارة عدد من المظاهرات بدءاً من يوم الأربعاء ٤ مايو ٢٠٠٥ ، ثم تتابعت في عدد أكبر من المواقع والمحافظات يوم الجمعة ٦ مايو ٢٠٠٥ ولم تتوقف بعد ذلك ، ولعل المظاهرات الأكبر كانت يوم الجمعة حيث شهدت القاهرة ومدن أخرى مثل المنصورة والزقازيق وغيرها مظاهرات كبيرة بالآلاف وسقط في أحد هذه المظاهرات شهيد هو طارق طه مهدي غنام ٣٤ سنة مدرس لغة إنجليزية ودلك في مسجد الغنام بطلخا بالدقهلية . وهكذا فإن الصدام تدعم بالدم وهو أمر ولا شك له ما بعده ، المظاهرات حرصت على عدم التنديد بالرئيس مبارك وهذا جزء من أدب الإخوان ولا شك ، ولكنها طالبت بمطالبة نوع إلغاء قنون الطوارئ المطالبة بالإفراج عن المعتقلين السياسيين ، تحقيق الحريات العامة عدم تفريغ التغير من مضمونه ، ولا شك أن هذه المطالب هي مطالب مصرية عمة ، وهذا أولا يقرب الإخوان المسلمين من قلوب الناس ، باعتبار أن الناس تدرك أن جماعة الإخوان هي القادرة عملياً على الضغط على النظام لتحقيق الأماني الشعبية ، وهي أيضا تغيير موضوعي في لغة الإخوان المسلمين بحيث تقترب أكثر من الإجماع الشعبي السياسي المصري وهي رسالة تطمين للآخرين بأن الإخوان لا

ينوون استبعادهم من الساحة السياسية بل يتقربون منها، رغم أن عددا من القوى السياسية بالتواطأ مع الحكومة كان عادة ما يستبعد المسلمين من العملية السياسية!!

المسألة بالطبع لم تمر بدون خسائر، فالأوساط الإخوانية تقدر عدد المعتقلين من الإخوان بما يقرب من الألف معتقل بما فيهم قيادات كبيرة مثل الدكتور عصام العريان رئيس اللجنة السياسية للجماعة، وبديهي أن لكل صدام ثمنا، وأنه في حالة الإخوان المسلمين فإن الثمن المدفوع في الصدام سيكون أقل عادة من الثمن المدفوع في السكون، وصحيح أن الحكومة حولت عناصر الإخوان إلى النيابة وأسندت إليهم تهم التظاهر، التحريض، تكوين جماعة غير شرعية... إلخ، ولكن هذه التهم كان من الممكن توجيهها بدون حركة ولا تحرك من الإخوان، وكانت العديد من الاعتقالات والمحاكمات والقضايا قد تم زج الإخوان بها في السنوات الأخيرة وبعضها أمام محاكم عسكرية، وصدرت أحكام كبيرة بشأن بعضهم.. وبديهي أن الإخوان يدركون أنه لا حركة بدون خسائر، ولكن مع الحركة وخسائرها المعقولة يكون الضغط الشعبي، والمكسب السياسي وأداء الواجب الديني والوطني.

هذا بالطبع تغيير نوعي في أداء الإخوان، الذين كانوا عادة يفضلون المجيء في ذيل الموجة والتردد وعدم الإقدام، وهو أمر له ما بعده شريطة أن يكون تغيراً استراتيجيا في فكر وبنية الجماعة، وليس مجرد صحوة مؤقتة تعود بعدها ربما إلى عاداتها القديمة.

هذا التطور النوعي الجيد - أكدته تصريحات المرشد العام للإخوان المسلمين

الأستاذ / محمد مهدي عاكف في مؤتمر الصحفي الذي عقد في مقر الجماعة في المنيل بالقاهرة يوم الأحد ٨/ ٥/ ٢٠٠٥ ، والذي أكد فيه أن ما حدث هو نوع من الاحتجاج الرمزي ، وهو هنا يشير إلى أن قدرات الجماعة كبيرة جداً ، وأن الجماعة قادرة على إخراج مئات الأنوف من الناس للتظاهر ، وبالتالي فإن على النظام وعلى القوى السياسية الأخرى وعدم تجاهل الإخوان المسلمين في أي تطور سياسي في مصر ؛ لأن هذا هو المنطق والمصلحة ، وأكد الرجل من جديد ضرورة دعم الحريات ومحاكمة قتلة المتظاهرين ، وإلغاء قانون الطوارئ وكلها أمور تدل على تطور هام ونوعي في لغة الإخوان المسلمين ، الأمر الأكثر دلالة هنا هو أن المرشد أكد على رفضه للتحاور مع الأمريكان ، وهو أمر جيد ولا شك ويدل على أن الجماعة باتت تحترم الوجدان الشعبي ، وبديهي أن هذا الأمر لن تكتمل مصراويته إلا إذا أعلنت الجماعة نقدها لسلوك الإخوان في العراق والجزائر مثلا ، وكذا عدم رضاها عما يتم من لقاءات بين ممثلي الإخوان في لبنان مثلا مع المسؤولين الأمريكيين ، " وآخر ها ما تم يوم ٢١ ، ٢٢ مارس الماضي بين شخصيات أمريكية مقربة من دوائر صنع القرار في الولايات المتحدة وقادة وممثلين لبعض الحركات الإسلامية في المنطقة منهم الجماعة الإسلامية في لبنان ومثلها " إبراهيم المصري وأسعد حرموش " وحركة المقاومة الإسلامية في فلسطين " حماس " ومثلها موسى أبو مرزوق وسامي خاطر وأسامة أبو حمدان " المصور ، أحمد منصور الموقف الأمريكي من الحركات الإسلامية . مجلة الأسبوع المصرية عدد ٩/ ٥/ ٢٠٠٥ .

إنه نوع إذا أقام تطور نوعي ، نود أن يتحول إلى استراتيجية ثابتة لجماعة

الإخـوان المسلمين ، وفي تلك الحالة سوف تحصد الجماعة مصداقية عالية ، أما إذا انتكسـت الجماعـة وباعـت الـناس ومشـاعرها في مقابل صفقة مع الحكومة فإنها تكرس للرأي القائل بأنه لا خير فيها .

نـأمل أن يكـون الموقـف اسـتراتيجيا ، ونمـيل إلى الاعتقاد بأن هذا التطور لـه أسـبابه الموضـوعية والذاتية ، منها أن الجماعة باتت من القوة والانتشار بحيث إنها إن لم تفعـل شـيئا الآن ، فـلا أمـل هـناك ومـنها أن الظـروف الموضوعية في مصر ناضـجة لـلحركة تمامـا ، وإن عـدم قطف الثمرة في ذلك الموقف يعني خيانة الأمة والحـركة بـل ويهدد بانشقاقات في الحركة ذاتها ربما يهدد وجودها ذاته ، ومنها أن هـناك صـراع داخـل الحـركة بـين تـيار يمـثله المرشد العام ، ومجموعة من الشباب الراغـب في تـبني اسـتراتيجية أكـثر ، ومجموعة أخرى لها مصالح اقتصادية تقتضي الـتهدئة بـل وأحيانا التواطؤ مع الأمريكان والنظام المصري ، ويمكننا: أن نقول إن سـيادة مجموعة المرشد والشباب سيعني أكثر من شيء على مستوى مستقبل الحركة ومستقبل مصر والمنطقة .

* * *

جدل الداخل والخارج
في مستقبل النظام السياسي في مصر

في أي موضوع اجتماعي تتفاعل عادة مجموعة من العوامل الذاتية والموضوعية وتكون النتيجة في محصلة هذا التفاعل ، وبديهي أن هناك عوامل تكون أكثر تأثيراً من غيرها في هذا الموضوع ، وهكذا فإن تعدد العوامل واختلاف حجمها في موضوع ما أمر بديهي ، ولكن بخصوص التطورات السياسة في مصر فإننا إزاء عدد كبير جداً من العوامل الذاتية والموضوعية ، الداخلية والخارجية وكلها على درجة متقاربة من الأهمية ، وهكذا فإن المثير والملفت للنظر في هذا الموضوع ليس فقط كثرة العوامل الفاعلة بدرجة تثير الانتباه ولكن اقتراب حجم أهميتها من بعضها البعض أيضا .

ولا شك أن تطورات النظام السياسي في مصر أمر له تأثيره الإقليمي والدولي ، العربي والإسلامي ، وبالنظر لأهمية مصر جغرافيا وتاريخيا وثقافيا وسياسياً ، وهكذا فإن الاقتراب من الموضوع ومحاولة تفكيكه ودراسته ووضع تصور للسيناريوهات المستقبلية هو أمر شديد الأهمية على المستوى البحثي والسياسي والاستراتيجي .

بداية فإن عجلة التغيير في مصر قد انطلقت ، ولن تكون الأمور كسابق عهدها بأي حال من الأحوال ، قد يستغرق ذلك وقتا قصيرا أو متوسطا ولكنه لن يكون طويلا أبدا ؛ لأن العوامل الضاغطة باتجاه التغير أكبر من أن تمتصها

العاصر الرافضة للتغيير والمتشبثة بما هو قائم .

ولعل النقطة الفارقة هنا ، هو أن النظام السياسي في مصر قد فقد الكثير من مشروعيته ، وبات لا يحظى بأي رضا شعبي على أي مستوى لدرجة أن البعض يقول: إن النظام قد شاخ ووصل إلى حالة من العجز والترهل لم تعد تجدي معها المسكنات ، ولم يعد الناس مستعدين للمزيد من الحديث عن مشروعية نظام سواء حاول هذا النظام أن يستمد تلك المشروعية من ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ، أو أن يستمدها من معركة أكتوبر المجيدة عام ١٩٧٣ ، بل أن تغيير المادة ٧٦ من الدستور باتجاه انتخاب رئيس الجمهورية عن طريق الاختيار بين أكثر من مرشح بدلا من أسلوب الاستفتاء يعني مباشرة تطوراً نوعيا باتجاه إنهاء مشروعية حقبة يوليو ١٩٥٢ ، واتجاه نحو الاقتراب من نهاية مشروعية حقبة أكتوبر ١٩٧٣ باتجاه نظام مختلف شكلاً وموضوعا ، صحيح أن الصيغة النهائية للتعديل جاءت مملوءة بالثغرات والعقبات ، وتم وضع الكثير من الضمانات والقيود التي تحول دون السماح بترشيح كل من يريد ، بل من تسمح له السلطة ، وترضى عنه على أساس أن الحصول على تدفيع عدد كبير من أعضاء مجلس الشعب والشورى والمجالس المحلية في أكثر من نصف محافظات مصر ، يعني عمايا منع المستقلين من الترشيح ، والمقصود طبعا هو منع الإخوان المسلمين تحديدا من ذلك ؛ لأنهم الأكثر قدرة على تحدي النظام والدخول في منافسة حقيقية معه ، ولكن كل هذا لن يحول في النهاية دون أن تستمر العملية إلى الأمام تحت ضغط العوامل التي أدت أصلا إلى التغيير . ومن العوامل الهامة باتجاه رصد مؤشر التغيير داخل بنية المجتمع المصري بحيث إن التغيير بات ضرورة حتمية حتى ولو تم إجهاضه مؤقتا

أو الالتفاف حوله هو هذا الاتفاق الواسع بين قطاعات الشعب المصري سواء في الأحزاب القانونية أو القوى السياسية المحجوبة عن الشرعية أو في الهيئات والمؤسسات ذات الأثر مثل النقابات ، نوادي أعضاء هيئة التدريس ، الهيئة القضائية ، فالأحزاب العلنية التي لها شيء من الشعبية - ناهيك عن الأحزاب التي بلا قيمة على الإطلاق والتي عادة ما تتبنى ما تقوله السلطة - أعلنت كلها أولاً التمسك برفض التحفظات والعقبات التي جاءت في تغيير المادة ٧٦ من الدستور ورفضت قبولها وقاطعت الاستفتاء عليها ، وتمسكت بالمطالبة برفع حالة الطوارئ ، والإفراج عن المعتقلين السياسيين والإشراف القضائي الكامل على الانتخابات ، بل وأعلنت كلها تقريبا " الوفد - العمل - التجمع - الناصري " عزمها على مقاطعة انتخابات الرئاسة ، وسحب من أعلن منها ترشيح أحد قياداته هذا الترشيح ، وهكذا اختارت تلك الأحزاب السير إلى الأمام في عملية المعارضة ، وبالنسبة لجماعة الإخوان المسلمين - المجوبة عن الشرعية فإنها خرجت من حالة التجرثم التي عاشت فيها طويلا ، ودخلت إلى المعارضة السياسية العلنية والواسعة النطاق لأول مرة منذ فترة طويلة ، وسيرت المظاهرات في أكثر من محافظة بعشرات الألوف ، وبديهي أن دخول قوة كبيرة جداً ومنظمة ومقبولة شعبياً مثل جماعة الإخوان المسلمين على خط المعارضة ، وتبني مطالب شعبية تحظى بإجماع جماهيري هو أمر له ما بعده ، وأيا كان دافع الإخوان إلى ذلك ، فإن ما حققوه من مكاسب سياسية واستعادة المصداقية والسمعة من جراء ذلك وإحساسهم بمدى الضغط الشعبي والرغبة الشعبية في التغيير سيجعلهم غير قادرين ولا راغبين في التراجع ، وهو أمر سيؤدي إلى تدعيم عملية التغيير في النهاية .

ومن عوامل الدفع باتجاه التغيير أو كدليل على مدى عمق تلك الرغبة هو ظهور حركات ليس لها مطلب ولا شعار إلا التغيير ، بمعنى أنها لا تستند إلى مرجعية سياسية واحدة ، بل متنوعة إسلاميين ، قوميين - يساريين ليبراليين ، وهي نقط تحمل اسم وشعار التغيير " حركة كفاية نموذجان " ومن الملاحظ انخراط جيل الوسط في عملية المعارضة على نطاق واسع وهو جيل يرى أن الحرس القديم في الحكومة والأحزاب يسعى لمنعه من الحصول على حقه الطبيعي في أداء دوره التاريخي وتستمد مسؤوليه القيادة في المجتمع .

على أن المؤشر الأخطر والأهم في هذا الصدد هو ما قام به نادي القضاة الذي يمكن اعتباره ترمومتر حقيقي لرغبات الشارع والمجتمع ، وما يفتعل داخل أحشاء هذا المجتمع من تفاعلات . من قيام هذا النادي باسم القضاة جميعا ، بالطلب إلى السلطات بأن تكون الهيئة القضائية مستقلة تماما ، التمسك بقانون السلطة القضائية وسحبه من مجلس القضاء الأعلى وهي مطالب تعني تقليص النفوذ الحكومي على الجماعة القضائية إلى أقصى حد ممكن ، ثم التهديد بالامتناع عن الإشراف على الانتخابات الرئاسية والبرلمانية قبل منح القضاء حق الإشراف الكامل والحقيقي عليها ، بحيث لا يتحول الإشراف القضائي على تلك الانتخابات إلى نوع من الديكور الديمقراطي أو يتحول القضاة إلى شهود على عملية التزوير!!

الأكثر من ذلك أن القضاة طالبوا بإلغاء قانون الطوارئ!!

في نفس الإطار فإن النقابات المهنية لمنتخبة " الأطباء - المحامون - الصيادلة - الصحفيون " قد عبروا عن التضامن مع مطالبة القضاة وتبنوا نفس المطالب تلك ، والأمر نفسه حدث في نوادي أعضاء هيئات التدريس باجامعات المصرية ، بل ونظم بعضهم تظاهرات ترفع نفس المطالبة وهكذا فنحن أمام متغير نوعي خطير ، حيث إن الإشراف القضائي على الانتخابات البرلمانية والرئاسية أمر يوجبه الدستور ، وبالتالي فإذا امتنع القضاة عن ذلك سقطت مشروعية النظام فورا ، وإذا استجابت الحكومة لمطالب القضاة فإن كثيرا من المتغيرات سوف تحدث حيث سيصبح من الصعب تزوير الانتخابات ، وبديهي أن الحكومة لن تقف مكتوفة الأيدي ، وستحاول شق صف القضاة أو الالتفات حول مشروعية إشراف القضاة على الانتخابات ، ولكن أيا كان الأمر فإن موقف القضاة له ما بعده ، وهو أمر نوعي خطير جدا شكلا وموضوعا وهكذا فنحن أمام حركة جماهيرية واسعة أولا نوعية ثانيا تحظى بشبه إجماع شعبي ثالث ولا شك أن لذلك أثره المتوقع عاجلا أم آجلا .

وإذا كانت حركة المعارضة والمطالبة بالتغيير هو مؤشر على ما يعتمل داخل أحشاء المجتمع ، فإن من الممكن القول أن تلك الحركة هي تعبير ومؤشر عن حالة من الأزمة الشاملة ، وعدم الرضا الشعبي شبه الكامل وأنها انعكاس لأحوال لا يمكن استمرارها ، فالأوضاع السياسية والاجتماعية المحلية والإقليمية والدولية تضغط بشدة على الواقع المصري على النحو التالي:

- أوضاع اقتصادية واجتماعية متردية في مصر فالبطالة وصلت إلى ٢٠% .
- الأرقام الحكومية تتحدث عن ١٢% وهناك عدة أجيال من الخريجين لا

تجد عملا ، وهو أمر له مردوده السياسي والاجتماعي بالطبع مع الأخذ في الاعتبار أن المؤشر في هذا الصدد في حالة نزول بمعنى أن الأمل ضعيف بالنسبة لهؤلاء في الحصول على عمل مناسب في وقف لاحق!! .

وهناك ديون خارجية ٣٠ مليار دولار وديون حكومية داخلية ٥٠٠ مليار جنيه واستمرار ارتفاع تكاليف المعيشة في نفس الوقت الذي تتفشى فيه ظاهرة الرشوة والمحسوبية بحيث إن السلطة وأتباعها تحتكر كل شيء ، المال - الوظائف والنفوذ السياسي أيضاً .

- انسداد أفق المشاركة السياسية والعمل السياسي عموما فالحكومة تمنع ظهور أحزاب ليست على هواها ، وتحاصر عمل الأحزاب الموجودة داخل مقار تلك الأحزاب ، وهكذا فإن الجمهور الرئيسي من الشعب المصري تسير بالتهميش السياسي بالإضافة إلى التهميش الاقتصادي والاجتماعي .
- تزايد الشعور بالمهانة الوطنية والقومية والدينية نتيجة الممارسات الأمريكية والإسرائيلية على مستوى احتلال دول عربية ، قمع الشعوب العربية والإسلامية ، تدنيس الرموز الدينية . . . إلخ مع عدم وجود رد فعل مكافئ من الحكومات " بما فيهم الحكومة المصرية " الأمر الذي يسحب كثيرا من شرعية تلك النظم ومبرر وجودها ، ولا شك أن لهذا الأمر أثره على اتساع نطاق المعارضة للنظام المصري والمطالبة بالتغير .
- استمرار حالة الطوارئ والأحكام غير الطبيعية منذ عام ١٩٥٢ ، وحتى الآن مع بعض الفترات القليلة جدا التي رفعت فيها حالة الطوارئ والمهم في هذا

الصـدد أن حالة الطوارئ استمرت بلا انقطاع منذ عام ١٩٨١ أي منذ رئاسة الرئيس المصري حسني مبارك .

- الشـعور المتزايد بوجـود حالـة مـن الجمـود الإدراكـي لدى النخبة السياسية الحاكمـة في مصـر أو نـوع مـن الـبلادة السياسـية ، بحيـث إن تلـك النخبة لا تسـتجيب إطلاقـا لأي رغبـات جماهيريـة في التغـيير ولـو من باب التنفيس ، الأمـر الـذي يبدو كما لو أنها خارج أمر الإدراك الطبيعية ، وأنها عادة تلتف عـلى أي مكسـب جماهيري ، بـل وتتسـتر أحيانا على حالات فساد كشفتها بنفسها أو فاحت رائحتها بحيث لا يمكن تجاهلها .

ومن المفيد هنا أن نرصد أن الأوساط السياسية الحكومية تعاملت مع موضوع التغـير كمـا لـو كـان مجـرد ضـغط خـارجي ، وهذا أساء إليها كثيراً أمام الشارع المصـري الراغـب في التغـيير بشك بصرف النظر عن وجود هذا الضغط الخارجي مـن عـدم وجـوده ، وصـحيح أن الأوسـاط الأمريكـية عـبرت أكـثر من مرة عن رغـباتها في إحـداث التغـير وعـن إجـراء انتخابات رئاسية مصرية نزيهة وقد قال الرئـيس بـوش شخصيا: إن الانتخابات الرئاسية في مصر المقرر عقدها في الخريف يجـب أن تجـري في ظـل وجـود مراقـبين دوليين وبقواعد تسمح بإجراء انتخابات حقيقـية وحـذر من أن الإصلاحات المحـودة لن تكون كافية وقال: " هناك تخفيف في القوانـين القمعية ، ولكن هذا الأمر ليس كافيا فالديمقراطية التي تحمي الحريات الفـردية تسـتلزم وجـود أحـزاب حقيقـية وسـلطة قضائية مستقلة ووسائل إعلام متـنوعة وتقلـيص صلاحيات السلطة التنفيذية . ووزيرة الخارجية كونداليزا رايس تحدثـت عمـا يسـمى بالفوضـى المـبدعة في الشرق الأوسط هو ما أزعج الحكومة

المصرية كثيراً ؛ وكانت بعض القوى في مصر قد حاولت استغلال ذلك ، وهو ما أزعج الحكومة المصرية كثيراً لأنها تنظر إلى هؤلاء باعتبارهم بديل يمكن لأمريكا أن تدعمه وهي أي الحكومة المصرية تريد احتكار العلاقة مع أمريكا ولا تسمح بأي منافس في هذا الصدد ولكن هذه القوى بلا شعبية في الحقيقة ؛ لأن سمعة أمريكا في الأوساط الشعبية في الوحل وتلك الأوساط لا تثق في رغبة أمريكا في التغيير لصالح الشعب بل التغيير لصالح أمريكا وإسرائيل أي ضد مصالح مصر دولة وشعباً ، ولكن المقارنة الجديدة بالاهتمام هنا ، أن كل القوى الشعبية المعارضة للنظام في مصر - القضاة - الإخوان - النقابات - حركة كفاية - الأحزاب الحقيقية أعلنت رفضها للمراقبة الدولية للانتخابات ، ورفضت بوضوح التدخل الأمريكي والأكثر إثارة في هذا الصدد أن الحكومة المصرية وعن طريق دوائرها الإعلامية اعتبرت نفسها منتصرة في موضوع التغيير ، عندما أعلنت الإدرة الأمريكية رضاها بما تم من تغيير!! عقب زيارة رئيس الوزراء المصري أحمد نظيف إلى الولايات المتحدة ومقابلته لعدد من المسؤولين هناك وحصوله على مباركة أمريكية لاستمرار النظام مع بعض التعديلات ، وقد اعتبرت الأوساط السياسية المعارضة ذلك نوعا من الدليل على النفاق الأمريكي في موضوع التغيير أولا ، ودليل على أن الحكومة المصرية تتجاهل مشاعر الشعب المصري في هذا الموضوع وأنها تفعل ما تفعل وعينها على الخارج ليس إلا .

* * *

مستقبل لبنان
بعد الانتخابات البرلمانية

الانـتخابات الـبرلمانية اللبنانـية الـتي أجريت على أربعة مراحل . . . انتهت في ٢٠٠٥/٦/١٩ ، ومـا أسـفرت عـنه مـن نـتائج ، ومـا حـدث فـيها مـن تحالفات ومـناورات ، ومـا سـبقها مـن أحـداث ، سـتؤثر بالضـرورة في المسـتقبل اللبـناني خصوصا ، وفي الكثير من المعادلات الإقليمية والدولية عموما .

الحالـة اللبنانـية مثل غيرها من الحالات في المنطقة تؤثر بشكل طبيعي في مجمل معادلات المنطقة ، ولكن بالإضافة إلى ذلك فإن للحالة اللبنانية خصوصيتها حيث إنهـا الأكثر تأثيراً أو تأثرا بجميع الأوضـاع ومن ثم الاستحقاقات ، وعادة ما يكون إغلاق الملفات أو فتحها في المنطقة من داخل الحالة اللبنانية ذاتها ، والمنطقة المحيطة بلبـنان عمومـا تعرضـت في الآونـة الأخـيرة لأحـداث جسـام مـنها أن اللاعـب الأمـريكي أصـبح موجودا في المنطقة بنفسه ، ولـه أجندة معروفة ومحددة فالقوات الأمريكـية موجـودة الآن في العـراق ، والـتحرش الأمريكي المعروف بسوريا اتخذ خطـوات هجومـية مـنها قـرار الكونجرس الأمريكي بمعاقبة سوريا " قانون معاقبة سـوريا " ، وكـذا القـرار الدولي (١٥٥٩) الذي تم تنفيذ شق منه وهو الانسحاب السـوري مـن لبـنان وبـاقي أجـزاء أخـرى مـنها نـزع سلاح حزب الله ، وتوطين الفلسـطينيين اللاجئين في لبنان وغيرها ، وإسرائيل في خاصرة لبنان الجنوبية ورغم أنهـا انسـحبت مـن الجـنوب عـام ٢٠٠٢ إلا أن لهـا أجـندتها أيضا بالنسبة للبنان وسوريا ، وهناك العامل الفرنسي ثم العوامل العربية والطائفية الأخرى .

وهكذا فإن الانتخابات اللبنانية قد أجريت وفقا لقانون العام ٢٠٠٠ وهو قانون انتخابي كان الجميع ينتقده، ويستهدف منه ثم تغييره ولكن الوقت لم يكن يسمح بذلك وإلا تم التمديد للبرلمان السابق وتأجيل الانتخابات وهو ما رأت فيه القوى المعارضة لسوريا تطبيقا لمكاسبها المتوقعة رغم أنها لم تكن تحبذ هذا القانون الانتخابي، وكذلك فإن القانون بصيغته لمعروفة. يسمح بعبور القوى الإقطاعية والتقليدية. أو على الأقل لا يطيح بها، ومن ثم فإنه كان لمصلحة نبيه بري رئيس حركة أمل ووليد جنبلاط رئيس الحزب التقدمي الاشتراكي، الذين لو تغيرت القوانين الانتخابية لحقق نتائج أقل كثيرا، ويجب في هذا الصدد أن نلفت النظر إلى أن ضغوط أمريكية وفرنسية مورست على الحالة اللبنانية لعدم تأجيل الانتخابات البرلمانية بحجة تغيير القانون الانتخابي؛ لأن الأجواء التي صاحبت وتبعت عملية اغتيال الرئيس الحريري كانت لصالح المناهضين لسوريا، وكان من الممكن لتلك الحالة العاطفية أن تتلاشى أو تضعف مع الوقت.

لمعركة الانتخابية أسفرت عن نتائج شبه متوقعة وقد انتهت المراحل الأربعة للانتخابات بنتائج كالتالي:

كتلة الحريري " ٣٦ مقعد " اللقاء النيابي الديمقراطي " ١٥ مقعد "، تيار القوات اللبنانية " ٦ مقاعد " لقاء قرنه شهوان " ٤ " مقاعد، الإصلاحية الكتائبية " ٢ مقعد "، اليسار الديمقراطي " ١ " مقعد، التجدد الديمقراطي " ١ " مقعد، معارضون مستقلون " ٤ " مقاعد، التكتل الطرابلسي " ٣ " مقاعد، معارضون مستقلون " ٤ " مقاعد، التكتل الطرابلسي " ٣ " مقاعد وبذلك تكون القوى المناهضة لسوريا قد فازت بـ "٧٢ " مقعداً.

أمـا القـوى الأخرى فقد جاءت نتائجها على الشكل الآتي حركة أمل " ١٥ " مقعـدا ، حـزب الله "١٤ "مقعـداً" التـيار الوطني الحر ميشال عون " ١٤ " مقعداً " الكـتلة الشـعبية إيلي إسكاف " ٥ مقاعد " ، تحالف ميشيل الحر - الطاشتاق " ٣ " مقاعد القوى " ٢ " مقعد البعث " ١" مقعد ، مستقلون " ٢ " مقعد .

كانـت الانـتخابات في كل من بيروت والجنوب وبعلبك محسومة سلفاً ، وتمت بالتزكية في كل من بيروت والجنوب ونسبة تزكية في بعلبك ، إلا أنها كانت ساخنة في الجـبل ، شـديدة السـخونة في الشمال ، وحدثت أشياء غير تقليدية ، في كل من الجـبل والشـمال ، ففـي الجبل اجتاح التيار الوطني الحر ميشال عون الانتخابات ، وفي الشـمال اجـتاح تـيار الحريري كل الدوائر ، بل أن انتصار تيار الحريري لم يبق عـند حـدود الطائفـة السنية في الشمال ، فقد تجاوزها ليشمل المقعدين العلويين في عكا - وطربلس ، وهذا حصل للمرة الأولى بعد ما كانت السيطرة لمصلحة حزب البعـث بالائـتلاف مـع حلفاء سوريا في الشمال ، وكل من حزب البعث والحزب القومـي السوري الاجتماعي خرجا من المعركة دون أي تمثيل في الشمال . لدرجة أن الحـزب القومـي السـوري الاجـتماعي لم يحصـل حـتى عـلى مقعده التقليدي الأرثوذكسي في الكورة!! .

قـراءة النـتائج السـابقة هـي في حد ذاتها مؤشر على العوامل التي أثرت على الانتخابات ، وهذه العوامل هي :

- حالـة عاطفـية عالـية بعـد اغتيال لرئيس الحريري في ١٤ مارس آذار ٢٠٠٥ صـبت لصـالح تـيار المسـتقبل ، وتم أيضـا اسـتخدامها بكفاءة في هذا الاتجاه لصـالح تـيار الحريـري ، وهـذه احالة ذاتها ارتبطت بحالة من الرفض الشعبي

للوجود السوري في لبنان ، حيث اقتنع معظم اللبنانيين " بالحق أو بالباطل " أن سوريا وراء اغتيال الرئيس الحريري ، وهكذا فإن الخاسر الرئيسي في الانتخابات كانوا من المحسوبين على سوريا بصورة أساسية ، فالحزب القومي السوري الاجتماعي مثلا خسر مقعدين من أصل أربعة مقاعد كان يشغلها في الدورة السابقة ، وحتى المقعدين اللذين كسبهما ، كانا في مرج عيون صاحبيا " الجنوب " ، وفي بعلبك الهرمي وهذا يعني مباشرة أن المقعدين كانا منحة من حزب الله الذي يسيطر على الشارع الانتخابي في هاتين المنطقتين . ونفس الأمر ينطبق على حزب البعث الذي حصل على مقعد واحد في مرج عيون أي منحة أيضا من ناخبي حزب الله ، وخسر في معقله الرئيسي في عكا وطرابلس!! .

نفس الأمر ينطبق على حركة أمل وهي محسوبة على سوريا طبعا . وصحيح أنها حصلت على ١٥ مقعداً أي أكثر من حزب الله نفسه ، إلا أن ذلك جاء كنوع من المنحة غير المباشرة من حزب الله الذي فضل أن يعطي دورا أكبر لحركة أمل كنوع من تحميل سوريا الجميل أي نوع من رد الجميل لسوريا ، وكنوع من محاولة تحقيق إجماع شيعي معين على رفض نزع سلاح حزب الله ، وبالتالي يرهن موافقة المستقبلية في هذا الصدد ، وكان حزب الله قادرا على الفوز منفردا بمعظم هذه المقاعد ، ولكن ذلك كان سيكون على حساب اغتصاب سوريا أولا ، وإحداث نوع من الشقاق الشيعي - الشيعي ثانيا . ولا شك أن حزب الله موال لسوريا ولكنه ليس محسوبا تماما عليها ، ولم يكن يستمد وجوده في الشارع السياسي اللبناني عموما والشيعي خصوصا من خلال الدعم السوري ، كما هو الحال

بالنسبة لحركة أمل ، التي كان من الممكن أن تتلقى تراجعا هائلا في وجودها النيابي بعد الانسحاب السوري لولا تلك الحسابات المعقدة بالنسبة لحزب الله .

وفي إطار الحسابات المعقدة لحزب الله نجد أن حزب الله مثلا اضطر إلى التحالف في بعض المناطق مع تيار الحريري الذي كان متحالفا مع القوات اللبنانية " سمير جعجع " ، ومع فرقاء قرنه شهوان " التيار المسيحي الرئيسي الذي كان يعارض الوجود السوري " كما كان متحالفا مع وليد جنبلاط ، وكل هذا بحثا عن نوع من التوافق الوطني اللبناني لحماية المقاومة وسلاح حزب الله .

- العامل الثاني الذي أثر في الانتخابات اللبنانية هو المال السياسي الذي دفع بسخاء هنا وهناك لشراء الأصوات ، ولا شك أن لذلك أثره المباشر مع وجود عوامل أخرى .
- العامل الثالث هو العامل الطائفي ، والعامل الرابع هو المدفوع العراقي الذي لم يلتفت إليه أحد من المحللين رغم أنه في رأيي كان من أهم العوامل . والعاملان في لبنان متداخلان جد . وبداية فإن البعض تصور أن الاحتلال الأمريكي للعراق يعني أن المنطقة داخلة حتما في النفوذ الأمريكي ، ومن ثم رفعوا سقف حركتهم ومطالبهم ومطامعهم وراهنوا على الحصان الأمريكي ، ولكن هؤلاء سيكتشفون لاحقا أن أمريكا تعرضت بالفعل لهزيمة استراتيجية في العراق بفضل المقاومة ، وهذا ما جعل الجنرال عون يتحرك بذكاء نحو الاتجاه الآخر حتى لا يكون كل المسيحيين في السلة الأمريكية يندفعون الثمن وحدهم ، وهذا نفسه هو ما أدى إلى حصول الجنرال عون والتيار الوطني الحر على معظم أصوات المسيحيين ، ففاز في الجبل ، وخسر

في الشمال رغم حصوله وحلفائه على معظم أصوات المسيحيين هناك ، ولكن التحريض الطائفي الذي استخدمه تيار المستقبل " سعد الدين الحريري " نجح في صب أصوات السنة في اتجاه معين ، وهكذا فإنه حتى تيار القوات اللبنانية وتيار قرنه شهوان حصلوا على مقاعد بسبب الصوت السني وليس الصوت الماروني المسيحي ، وهذه إحدى مفارقات وطبيعة الانتخابات اللبنانية وفقا للقانون المستخدم فيها حتى الآن .

الموضوع العراقي ، وتحديدا المقاومة العراقية والموقف منها ، كان أحد أسباب دفع السنة في لبنان للتصويت لتيار الحريري وحلفائه ، ودفع رجل مثل مفتي لبنان وعدد من خطباء المساجد في طرابلس إلى السير باتجاه تحريض السنة على ذلك ، وبديهي أن يبحث السنة عن زعامة ، وتكمن هذه الزعامة في آل الحريري فهذا هو المتاح حاليا ، رغم أن سنة لبنان تاريخيا ووجدانيا مع القومية العربية ومع عروبة لبنان أكثر من أي طائفة أخرى ، ولكن الذي حدث أن المقاومة العراقية اتسمت بالطابع السني في عمومها ، واتسم السلوك الشيعي في العراق " السيستاني - الحكيم - الجعفري " بموالاة الاحتلال الأمريكي ، أي التفكير بمنطق الحصول على مكاسب للطائفة الشيعية ولو على حساب الأمة والوطن - هناك بعض الاستثناءات في شيعة العراق مثل مقتضى الصدر وأحمد جواد الخالص - ومن الطبيعي أن ذلك يخدم الأمريكان ، ومن ثم يعطيهم القدرة أكثر على ذبح حزب الله تحديدا ، ومع ذلك فإن رد فعل حزب الله وقناة المنار التابعة له لم يكن من القوة والوضوح باتجاه نبذ السيستاني والحكيم والجعفري وموالاة المقاومة العراقية حتى لو كانت سيئة مما أعطى الانطباع بأن حسابات حزب الله شيعية قبل

أي شـيء ، وهـذا يؤدي تلقائيا إلى ارتفاع النبرة الطائفية في لنان ، وإلى دفع السنة في اتجـاه التصـرف كطائفـة ، وفي الحقـيقة فـإن سـنة لبنان عاقبوا ضمنا حزب الله وسـوريا عـلى موقـف معـين في العـراق ، وللحقـيقة أيضـا فإن سوريا ربما تدعم المقاومـة العراقـية لأسـباب تخصها وكنوع من الدفاع عن نفسها ، وحزب الله ربما مضـطر إلى هـذا الموقف غير الواضح والصحيح أن السبب في ورطة حزب الله في هـذا الصـدد ، بعـد الضغط الإيراني ، وضغط الزعامات الدينية العراقية الشيعية ، وأيـا كـان السـبب فـإن حـزب الله كـان من الممكن أن يخرق المعادلة ويشد الناس عـلى أسـاس العداء لأمريكا ، ومن ثم م يكن السنة سيندفعون في الاتجاه الآخر ، هـذا لـو كـان مـنذ الـبداية حسم خياره سياسيا وإعلاميا مع المقاومة العراقية ونبذ السيستاني والجعفري والحكيم بدون أن يحاول إمساك العصا من الوسط .

وهكـذا فـإن أسـباب كـثيرة منها الشأن العراقي ومنها الشعور بالخوف نتيجة اخـتلال الأمن في لبنان وحدوث تفجيرات ، ثم عمليات اغتيال لشخصيات معينة جعل التحريض الطائفي يجد وقودا كافيا للسيطرة على الموقف .

الانـتخابات الـبرلمانية اللبنانـية على المستوى المسيحي الماروني ، كانت شديدة التقـيد ، بـل قـل: إنها الحالة الأكثر حاجة إلى التحليل والفهم بهدوء ، فالتطورات والمواقـف فـيها كانت مثيرة ، وبداية فإن الرئيس لحود ، حليف سوريا الأساسي ، راح يعـزف نغمة طائفية مسيحية مارونية وتقرب من الكنيسة في تبركي ، واستطاع الـبطريرك نصـر الله صـغير أن يهـدئ من الهجوم الماروني ضده ، وقرنه شهوان ، وعـلى الـتجمع الأكـثر سـخونة في طلـب الانسحاب السوري ثم المطالبة بتصفية الـنفوذ السـوري ثـم المطالـبة بالـتحالف مـع الأمـريكان والفرنسيين ، بل وأحيانا

الإسرائيليين ، وهو تحالف يضم رموز ١٧ أيار مثل أمين الجميل وسمير جعجع . . إلخ .

هؤلاء الذين راهنوا على وقوع المنطقة في الزمن الأمريكي الإسرائيلي اكتشفوا شيئا فشيئا أن المسألة ليست هكذا ، وأن هناك تيارا مسيحيا قوى بدأ يتشكل باتجاه عدم المراهنة تماما على أمريكا ، ونوع من العلاقة مع سوريا ، رغم أن هذا الاتجاه ذاته كان الأكثر صوتا - تاريخيا - في مهاجمة الوجود السوري في لبنان " ميشال عون " ، ومن ثم اتجه الصوت المسيحي إلى التيار الوطني الحر كنوع من الخوف من المستقبل ؛ لأنه لو تمثل المسيحيون الموارثة من خلال " القوات اللبنانية " وقرنه شهوان أي المراهنة على التحالف مع إسرائيل وأمريكا يعني مباشرة أنه لو انسحب الأمريكان من العراق مثلا ، فإن الموارثة في لبنان سيدفعون ثمنا باهظا ، وأسفرت الانتخابات إذن عن ظهور زعامة مسيحية هي ميشال عون هي الأكثر حصولا على الصوت المسيحي الماروني ، بل الناجحين من رموز القوات اللبنانية ، وقرنه شهوان نجحوا أصلا بعد أن حملهم سعد الدين الحريري على حافلته الانتخابية .

ولكن الخطورة في تحالف الحريري مع هؤلاء هو أنهم يطالبون بالإفراج عن سمير جعجع ، وهذا ممكن - ولكنه يعني مباشرة إهدار دم رشيد كرامي ، ومع كل ما قيل وما يقال عن دم الحريري الذي تمسك به آل الحريري بدون مساومة بل واستخدمه الجميع للحصول على مكاسب سياسية بل كان الوقود الأساسي في المعركة ضد سوريا وفي المعركة التحريضية لدى السنة ، فإنه من الطبيعي أن آل كرامي سيفعلون الشيء نفسه ، وسيجدون من السنة من يقف معهم دفاعا من دم " كرامي" وهو

سنة أيضا ، والمسألة لن تمر بهذه البساطة .

على كل حال فإن المستقبل اللبناني حافل بالاحتمالات والكثير من الملفات صعبة ، بل وشديدة الوعورة ، فحزب الله مثلا أدار تحالفاته على قاعدة حماية المقاومة ، وحصل على وعود بذلك من تيار الحريري ، ووليد جنبلاط فضلا عن الحلفاء الأقرب لحزب الله " أمل " ، ومن ثم فإن التراجع في هذا الصدد من تيار الحريري تحت الضغط الدولي المتوقع جدا في المرحلة القادمة ، بين الدخول إلى بوابة الحرب الأهلية وهو أمر خطير ؛ لأن أمريكا لا تملك ولا تقدر التورط في لبنان بعد هزيمتها الاستراتيجية في العراق ، وحزب الله هو الوحيد المنظم في الأحزاب اللبنانية والوحيد الذي يملك سلاحا وخبرات كبيرة في القتال ، وأمريكا وفرنسا ومن سوف تركهم إسرائيل لن يقبلوا أن تسكت حكومة سعد الدين الحريري عن هذا الأمر وفقا لقرار ١٥٥٩ المتوقع الضغط لتنفيذ باقي بنوده ، ومن ثم فإنه لا يكفي أن يقول سعد الدين الحريري تعليقا على الانتخابات: " إن روح ١٤ آذار قد انتصرت ، وأن أهل لبنن قد انتصروا لمشروع رفيق الحريري وهو إعادة الاعتبار لاتفاق الطائف ولصيغة العيش المشترك بين اللبنانيين ومشروع النهوض الاقتصادي والاجتماعي بلبنان " وبديهي أن كلام مثل هذا لا يصلح في لبنان ؛ لأن لبنان على شفير استحقاقات هائلة ، وليست عمليات الاغتيالات ثم الانفجارات إلا مقدمة لفتح كثير من الملفات والقضايا والمتحالفات الانتخابية ذاتها سوف تطويها الأيام وستظهر مواقف جديدة وقوى جديدة وتحالف جديدة لن تكفي الأغلبية المريحة التي حققها سعد الدين الحريري في تجميدها .

* * *

الدلالات الاستراتيجية والتكتيكية للانتخابات الرئاسية في إيران

الانتخابات الرئاسية في إيران والتي أسفرت في جولتها الثانية عن فوز المرشح محمود أحمدي نجاد على الرئيس السابق الشيخ الهاشمي - رافسنجاني بنسبة كبيرة حوالي ٦٢% مقابل ٣٨% ، هذه الانتخابات حملت الكثير من الدلالات الاستراتيجية والتكتيكية على المعادلات المحلية داخل إيران والإقليمية في دول الجوار ، والعالمية بالطبع .

بداية يجب أن نأخذ في اعتبارنا أن سلطة رئيس الجمهورية في إيران ليست مطلقة ودوره عادة يكون تنفيذي أكثر مما يكون تخطيطي ، بمعنى أن الملفات الكبرى المتصلة مثلا بالملف النووي ، والسياسة الخارجية والدفاع وغيرها يشارك فيها أكثر من مركز للسلطة ، وتركيبة السلطة وفقا للدستور الإيرانية شديدة التعقيد والتركيب بما لا يسمح بانفراد إحدى السلطات ، ومن ثم حدوث ديكتاتورية ، وهذا في الحقيقة أمر إيجابي لصالح التجربة الإيرانية ، فحسب الدستور الإيراني فإن هناك المرشد الأعلى للثورة الإسلامية وله صلاحيات كبيرة ، وهناك مجلس صياغة الدستور ، ومجلس الخبراء والبرلمان "مجلس الشورى" ومجلس تشخيص مصلحة النظام ، ثم رئيس الجمهورية ، ثم المجتمع المدني المتمثل في لنقابات والأحزاب والحوزات العلمية . . . إلخ .

وفي الحقيقة فإن كل السلطات لها الحق في مراقبة الآخرين ، وحتى المرشد نفسه يتم تعيينه عن طريق مجلس صياغة الدستور والخبراء ، والبرلمان . . . . إلخ ويمكن

للبرلمان أن ينقض قراراته ، وهكذا . والوزراء مثلا لا يختارهم رئيس الجمهورية إلا بعد موافقة البرلمان ، المهم أن الصبغة الإيرانية صيغة معقدة لا تسمح أولا بانفراد أحد بالسلطة ، وهي ثنيا تعطي صلاحيات محدودة لرئيس الجمهورية ، ومن ثم فإنه أيا كانت شخصية الفائز في الانتخابات الرئاسية ومهما كانت أفكاره وآراؤه وكفاءته فإن انقلابا في السياسات يعد أمراً مستحيلا في الحياة الإيرانية .

وهكذا فإن الذين وضعوا الانتخابات الإيرانية عندما قالوا: إن فوز نجد مفاجئ ودراماتيكي وتسونامي إيراني ففوز كانوا في الحقيقة لا يفهمون الحالة الإيرانية فعوز نجاد لم يكن مفاجئا في الحقيقة ولم يكن دراماتيكيا ولا تسونامي . فالذين لا يفهمون الحالة الإيرانية مس الداخل يتصورون أن هناك مثلا فوارق حديدية بين الإصلاحيين والمحافظين وينسجون وفقا لعلوم السياسة التقليدية ، تلك الفوارق كما قرؤوها في الكتب ، وفي الحقيقة فإن المسألة داخل إيران ليست كذلك ، فهناك مراجع دينية محسوبة على الإصلاحيين وهناك مدنيون منفتحون محسوبة على المحافظين ، ومن الخطأ مثلا تصور أن الإصلاحيين يريدون الحرية والمحافظين . يريدون العكس ، إن طبعها واسع جدا من التداخل . . . نعتقد أن الفارق الصحيح فيه هو أن ما يمكن أن نطلق عليهم محافظين " هذا الاسم خطأ " هم في الحقيقة ثوريون بمعنى أنهم منحازون إلى الجماهير يريدون عدالة اجتماعية ، يريدون الالتزام بالمشروع الإسلامي ، لا يقبلون بالتقريب ، يريدون عدم الخضوع لأمريكا ، وهم في ذلك ليسوا ضد الحرية ، ولا هم مع العمائم ، بل أكثرهم بما فيهم " نجاد" نفسه ليس عمامة أي ليس رجل دين ، ولعل إحدى المفارقات هنا ، هو أن التنافس في الانتخابات كان بين المحافظ!! نجاد المهندس المعماري الذي هو ليس من العلماء ولا المشايخ ولا العمامات السوداء أو البيضاء في مواجهة

الإصلاحي هاشمي رافسنجاني ، وهو رجل دين وحجة الإسلام ومن قطاع المشايخ ، ولعل أولى الدلالات هنا هو أن انتصار نجاد في الانتخابات هو انتصار للمجتمع المدني الإيراني على مجتمع المشايخ ، وقد يكون رموز المجتمع المدني أكثر تمسكا بالإسلام والمشروع الإسلامي من رجال الدين الرسميين .

الدلالة الثانية هنا ، هو نهاية ما يسمى بالمشروع الإصلاحي الذي فقد الكثير من بريقه وأهميته ، ليس داخل إيران وحدها بل في المنطقة عموما وفي إيران ، فإن السنوات الأخيرة شهدت انحساراً في ذلك المشروع بدءاً من الانتخابات البلدية ثم مجلس الشورى الإيراني ، ثم انتخابات رئاسة الجمهورية ، وعلينا أن نبحث في أسباب هذا التراجع ، وهي واضحة في الحقيقة ، فالمشروع الإسلامي يدعو إلى المصلحة مع أمريكا - كيف وهي تحتل أرضنا وتدعم إسرائيل وهو ما يجعله تيار غير أخلاقي ولا مبدئي ، وهو يخاطب فقط الغرائز البرجماتية ، فيدعو إلى تحرير الشباب والاختلاط ، ويزعم أن التعاون مع أمريكا سوف يحقق رخاء اقتصاديا ، وهذا تحديدا كان مشروعا موجودا في كل مكان ، إنه مشروع السادات في مصر والشلبي في العراق وخاتمي في إيران ، ولكن الناس تكتشف مع الوقت أنه لا رخاء تحقق ولا كرامة أيضا كل ما في المسألة انحلال أخلاقي لا أكثر ولا أقل ، وبديهي أن الشعوب متدينة ومن ثم فإن الانحلال الأخلاقي يحدث رد فعل عكسي ، ومن ثم فإن المشروع الإصلاحي كان بالضرورة سوف ينتهي ، ومن ثم يعيق الثوريين من جديد ، وفي هذا الصدد يجب أن نقول: إن أحد أسباب انحسار التيار الإصلاحي في إيران وفوز " نجاد " هو الهزيمة الاستراتيجية لأمريكا في العراق ، وهذا بفضل المقاومة العراقية الباسلة التي كانت ناخبا أساسيا في كل الانتخابات في المنطقة والعالم!! ، والإحساس بأن هزيمة الأمريكان حتمية في

العراق تعني أن المراهنة على الأمريكان، ومن ثم الإصلاحيين خسارة مؤكدة.

إذن فإن الفوز الذي حققه نجاد من الناحية الموضوعية لم يكن مفاجأة، وفي الحقيقة فإن المحللين الذين تابعوا الانتخابات في الصحف والقنوات الفضائية عندما توقعوا فوز رافسنجاني استناء إلى حسابات تقليدية كانوا يبدون عن جهل فاضح بمزاج الشعوب أولا وبالمتغيرات الحقيقية في المنطقة ثانيا فمزاج الشعوب مثلا كان لابد سيرجح كفة " نجاد "؛ لأن الشعوب عادة عندما تختار تجربة إيران وتجربة مصر ، تختار شخصا نزيها ومستقيما وواضحا، ولا شك أن سمعة رافسنجاني هنا ليست مستقيمة ولا نزيهة، وهناك حديث عن ضلوعه في التربح والفساد، وهو بالمناسبة من عائلة غنية جدا، ومن ثم فإن الخيار كان بين شخص مستقيم واضح، وشخص مركب وملتوى، فاختار الناس "نجاد"، ومن تلك الخبرة أيضا أنه عندما يكون الاختيار بين شخص نصف مستقيم وشخص فاسد فإن الناس تختار الفاسد؛ لأن الشعوب لا تريد أنصاف الأشياء والتردد، ومن ثم البلبلة، ولعل هذا درسا للحركات السياسية عموما في المنطقة وللإسلاميين خصوصا، فالمطلوب شخصيات وسلوكا سياسيا شديد الاستقامة شديد الوضوح، أما البراجماتية والانتهازية، أو ضم الأغنياء على حساب الفقراء أو المهاونة في مصالح الناس بدعوى المحافظة على الحركة فلا تؤدي إلى انصراف الناس عنهم، ومرة أخرى فإن الناس اختارت المستقيم ، رغم فقره وعدم إنفاقه أموال في المعركة الانتخابية، ورغم أن معظم القوى السياسية والشخصيات الكبيرة في إيران كانت تؤيد رافسنجاني.

من الدلالات أيضا. أن الفقراء قادرون على إثبات وجودهم وذلك على مستوى وصول ابن الحداد " نجاد " إلى رئاسة الجمهورية، أو على مستوى فرص

الفقـراء صوتهم في الانتخابات الإيرانية ، ولعل هذا لصالح الديمقراطية في إيران ، فما صـرت في تلـك الانـتخابات يؤكـد أن الشـعب الإيـراني يختار بحرية وهو ما يسـقط الدعـاوى الأمريكـية حـول الرغـبة في الديمقراطـية في المـنطقة ، فهـا هـي ديمقراطية واضحة في إيران ترفضها أمريكا .

أثـار انـتخابات شـخص مـثل نجـاد ، الصـحيح أن تقـول: إنه من تيار الثورة وتلامـيذها المخلصـين ، يـريد العـودة إلى مـبادئ الثورة الأولى ، واختياره يعني أن الشـعب الإيراني يريد مواجهة أمريكا ويريد التمسك بمبادئ الإسلام ، وهذا يعني أنـنا في اتجـاه تغـيرات معيـنة - تشـدد في الملـف الـنووي - تغـير باتجاه المزيد من التشـدد في الموضـوع العراقي ، المزيد من الدعم لحركات المقاومة في المنطقة خاصة حماس والجهاد وحزب الله .

نـوع ، الاضـطراب في العلاقـات مـع دول الجـوار ، وهـي العلاقـات الـتي كان خـاتمي قـد أرسـاها ، ولكن في المقابل فإن هناك نقطة سلبية جدا في انتخابات " نجاد " وهـو أن كـل المؤسسـات الإيرانـية صـارت في قبضـة تيار واحد ، وهذا بالطبع يضع السياسـة الإيرانية في زاوية ضيقة ؛ لأنها لم تعد تستطيع المناورة عن طريق تعدد الرؤى والمواقـف والاجـتهادات وهـو أمـر كـان يقـيدها ولا شـك ، وكذلك أحلام الشعب الإيـراني في نـوع معـين مـن السياسـة الاقتصـادية والاجتماعـية والخارجـية ، فإذا لم تتحقق أحلام هذا الشعب . فإن أثر ذلك سيكون عميقا باتجاه الردة عن قيم الثورة .

* * *

الفهـــرس

الموضـــوع	الصفحة

* * *